مذكرات أسير الداي
كاثكارت
قنصل أمريكا في المغرب

ترجمها عن الانكليزية وعلق عليها وقدم لها

اسماعيل العربي

ديوان المطبوعات الجامعية

الجزائر - 1982

هذا الكتاب ترجمة كاملة للكتاب المعنون :

The Captives

لمؤلفـــــه : **James Leander Cathcart**

نشرته ابنته : **J. B. Newkirk**

طبع في مدينة : **la Porte**

بــدون تاريــخ

مقدمة المترجم

قد يتساءل القارىء المتتبع لنشاط هذا الكتاب : لماذا يترجم ثلاثة كتب تاريخية في موضوع العلاقات الجزائرية الامريكية ؟

وجوابي ، هو انني شرعت منذ سنتين في أعمال البحث في موضوع اردت ان اعطيه عنوان « الجزائر في عهد الدايات » ، ولكنني لم اكد المس صلب الموضوع حتى أدركت انني لن أتمكن من ايفائه حقه من الدرس على اساس المصادر والمراجع المتوفرة لدينا في الوقت الحاضر . فالدايات لم يعنوا بتنمية الارشيفات والمحافظة عليها ، وما بقي من الوثائق من عهد الادارة التركية انما يتصل بالاوقاف والمعاملات الشخصية مثل الزواج والميراث الخ . ، وعبثا يبحث الباحث من بينها عن وثيقة تكتسي طابعا سياسيا او اقتصاديا .

والوثائق الخطية الموجودة في الخارج والتي تتصل بعلاقات البلدان الاوروبية ، وكل بلد على انفراد ، بالجزائر ، لم تستكشف بعد ، والقليل مما استكشف منها لم يصنف، وسيتطلب استغلالها جهودا ونفقات تفوق طاقة الباحث الفرد . واما المذكرات والمنشورات التي صدرت في الخارج في الماضي، فانه لا يتوفر منها لدينا الا بعض ما كتب باللغة الفرنسية .

ونظرا لان بريطانيا والولايات المتحدة (بعد الاستقلال) كانت كلتاهما ترتبط بعلاقات معقدة مع الجزائر ، تتداول فيها فترات الحرب والسلم ، فان الباحث في هذه الفترة لا يمكنه أن يستغني عن أرشيفات تلك البلاد ، دون أن يأمل في أن يصيب عمله حظا ولو ضئيلا من التوفيق (1) .

ولكن علاقات البلدان الأنجلو ساكسونية بالمغرب ، على الرغم مما تكشف عنه من الثراء و التنوع والطرافة في بعض جوانبها ، لم تستلفت حتى الان أنظار الباحثين المغاربة . والمرجح أن هذا الموضوع سوف يظل بكرا ويحتفظ بكل أسراره مدة من الزمن .

والى جانب هذه الأرشفيات توجد دراسات ومذكرات وسير لبعض الشخصيات التاريخية التي لعبت دورا في العلاقات مع المغرب ، وكلها تلقي اضواء على الموضوع (2) .

---

(1) بلغني ان وزارة الخارجية الامريكية تقوم حاليا بطبع الوثائق المحفوظة لديها والتي تتصل بعلاقات امريكا بدول المغرب في هذه الفترة.

(2) راجع فيما يتعلق بالكتب الامريكية الثبت الذي ورد في آخر كتاب ايروين « العلاقات الديبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة » ترجمة اسماعيل العربي ، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1978 .

وهكذا تراءى لي أن الخدمة الجدية التي يمكنني أن أقدمها لتاريخ بلدنا في المرحلة الحالية ، ليست كتابة تاريخ الدايات على أساس ما يتيسر من المراجع ، بل العمل لتوفير ما يمكن من المراجع الأنجليزية والأمريكية باللغة العربية ، حتى تكون قاعدة يستند عليها البحث التاريخي في المستقبل.

والكتاب الذي يسعدني أن أقدمه للقارئ في هذا السفر ، وثيقة سيتاح للباحث المهتم أن يقومها بنفسه . وأما قيمة الكتاب ، في نظري ، فهي بالغة الاهمية ، بما يقدمه من المعلومات واكثرها مما يصفه وصف شاهد عيان للأحداث. وانه ليكفي للتاكد من ذلك أن نعرف أنه المرجع الأول الذي كتب في موضوع العلاقات المغربية الأمريكية .

وتمتاز هذه الوثيقة عن غيرها من الكتب والدراسات التي وضعت بعدها من حيث انها يوميات تعكس انطباعات حية وأحداثا وقعت في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، سجلها كاتبها باليوم وأحيانا بساعة وقوعها .

ولقد شاء حسن الحظ أن يكون صاحب هذه المذكرات شخصا بعيدا عن التاثر بالأهواء والعواطف الشخصية وأن يتسم سرده ـ وجميع القرائن تدل على ذلك ـ بدرجة عالية من النزاهة والامانة. بل أن التزام الكاتب بالامانة والموضوعية بلغ به حدا دخل معه في نظامنا المنطقي الذي يقوم على السلب والنهب في عرض البحار ، وأصبح يمد الداي بالحجج لماذا كان من الطبيعي أن يفرض على الدول الأوروبية دفع الضرائب في مقابل السماح لسفنها بنقل البضائع والتجارة في البحر الأبيض . وهذا المنطق هو الذي جعل الرجل لا يلوم الجزائر التي أسرته ووضعت في رجليه قيود الحديد وسخرته للأشغال الشاقة ، بل ينحى باللائمة على حكومة بلده التي لم تهتم بدفع فديته وهو وطني مناضل شارك في الثورة لتحرير وطنه .

ونحن ، طبعا ، نتوقع من رجل سلبت حريته وعاش في بلدنا في قيد العبودية ما يقرب من احدى عشرة سنة ، وعرف عيوبنا ونواحي الضعف فينا، أن يصطبغ مايكتبه عنا بشعور المرارة والكراهية والنقد لمؤسساتنا ولتقاليدنا ، بل وأيضا لديننا الذي طالما تعرض هو لألوان من الألم والاهانة باسمه ، باعتباره مسيحيا. وهذا النهج تعودناه من الاوروبيين الذين كتبوا عن بلدنا بمختلف صفاتهم في تلك الفترة . ولكن هذه ليست حالة الاسير كاثكارت

فان هذا الرجل الذي تحمل وطاة العبودية بشجاعة وعزة نفس نادرة لم يسمح لآلامه الجسمية والنفسية أن تؤثر على طريقة تفكيره وملاحظته ، ولم يشأ أن يضفي على الحقائق الموضوعة او على مشاهداته الشخصية لونا

يعكس شعوره الشخصي نحوها • فهذا الرجل الذي اهين واضطهد كثيرا لأنه فضل الاحتفاظ بعقيدته المسيحية، ورفض كل اغراء له من الداى لاعتناق الاسلام. يحترم مع ذلك الدين الاسلامي والقرآن الذي قرأ ترجمته الانجليزية. ويرفع من شأن نبي الاسلام الذي يعتبره من أكبر مشرعي العالم، بقدر ما يحترم عوائدنا وتقاليدنا التي نعرف كلنا انها لم تكن دائما، مع الاسف، من النوع الرفيع •

وذكاء كاثكارت وحصافته التي اكتشفها قادة الثورة الامريكية واسندوا اليه من أجلها مناصب قنصلية رفيعة فيما بعد، في المغرب وفي غيره من البلدان، ميزة أخرى في هذه الشخصية تزيد من قيمة الصفات الأخلاقية النادرة التي يتسم بها، مثل الصدق والوفاء والوطنية، وتبرزه في ثوب رجل جدير بكل احترامنا وثقتنا •

والشيء الذي يجب أن يعرفه القارىء منذ الآن، هو أن كاثكارت ـ على عكس الكثيرين من كتاب المذكرات الذين يحاولون تبرير أعمالهم أو يلقون على أنفسهم أكاليل الغار ـ لم يسجل يومياته لتنشر ولكي يعرف مواطنوه ما قدمه من خدمات لوطنه ومن مساعدات لزملائه المنكوبين في الأسر. ويستفيد من ذلك مالا ومجدا • كلا ! فان كاثكارت لم ينشر مذكراته في حياته، وانما تولت نشرها ابنته، بعد وفاته بنحو نصف قرن من الزمن •

وكذلك طبع الكتاب في صورة تكاد تكون شخصية، ان صح هذا التعبير، بحيث لا يحمل اسم الناشر (دار النشر) ولا التاريخ الذي نشر فيه(1) وكل ما ورد على غلافه، هو اسم المطبعة (هيرالد) التي طبع فيها في مدينة «لابورت» • وجهلي باسم الناشر وتاريخ نشر هذا الكتاب، شكل عقبة كبيرة في طريق البحث في الولايات المتحدة للحصول على نسخة مصورة منه • فقد استغرقت مراسلتي واتصالاتي التي أعفي القارىء من ثقل سرد تفاصيلها زهاء سنتين. قبل أن يتفضل، وله جزيل الشكر، صديقي الدكتور تشارلز جودز • رئيس قسم التاريخ بجامعة « دنفرز » كلورادو (الولايات المتحدة) بتزويدي بنسخة بالتصوير الشمسي •

واللغة التي كتب بها الكتاب هي اللغة الانجليزية السائدة في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر، أي لغة المعمرين الأمريكان • وهي لغة مباشرة وتتسم بالواقعية، ان لم نقل بشيء من الخشونة، وتبتعد عن الاستعارة

---

(1) كتبت يد مجهولة على الصفحة الاولى من النسخة التي عملت عليها بقلم الرصاص، انه نشر في سنة 1899، اي بعد مضي نصف قرن من كتابته (وكاثكارت توفي سنة 1843) •

والمجاز والصور الأدبيه ، ويمكن القول بأنها تمثل الروح البروتيستانتيه البيوريطانية المتقشفة خير تمثيل · ونهجئة بعض الكلمات تختلف عن الرسم الذي تقدمه لها المعاجم الانجليزية المعاصرة · والأمر كذلك بالنسبة الى معاني الكلمات التي تطلق في حالات كثيرة على غير المألوف والمتعارف في الانجليزيه في وقتنا هذا ، وهو أمر لا أحتاج الى القول بأنه كلفني جهدا مرهقا ·

ولكن الصعوبة الكبرى التي واجهتها ، هي في طول الجمل على الطريقة الألمانية ، وكثيرا ما تشكل الجملة الواحدة نصف الصفحة وثلاثة ارباع الصفحة · ويزيد من صعوبة قراءة النص واستيعاب معناه ، ندرة الترقيم بالفواصل ، حيث أن نظام الترقيم كان لا يزال في المراحل الأولى من ظهوره في اللغة الانجليزية · ويضاف الى هذا كله ، شيوع الأغلاط المطبعية والتحريف والتصحفيف مما يوحي بأن الناشرة لم تعالج المخطوطة بالتصحيح بل دفعت بها كما هي على حالتها الاصلية ، وأن المؤلف لم يراجعها بعد كتابتها ·

والحق أنه لو لم يتح لي ماأتيح من التدريب على تحقيق المخطوطات واعادة تركيب الجمل لاقامة النص في سياق منطقي ، متى اقتضى الامر ذلك ، لماأمكنني التغلب على الصعوبات التقنية العديدة التي واجهتها في هذا العمل · ومع ذلك كله ، فأنا أشعر أن الترجمة التي أقدمها للقارىء ترجمة علمية شاملة لا تهمل ظلا من ظلال المعاني ولا تحيد عن قانون الامانة والدقة الذي التزمت به في كل الأعمال التي قمت بترجمتها الى اللغة العربية حتى الآن ·

والمعلومات التاريخية التي تمثل المساهمة العلمية التي يقدمها هذا الكتاب ، يمكن تصنيفها على ستة مستويات · وأقدم ملخصها على الترتيب التالي ، حسب أهميتها :

1 ـ العلاقات الجزائرية الامريكية • ان مذكرات كاثكارت هي المرجع الاول والوحيد في هذا الباب في الربع الأخير من القرن الثامن عشر (وهذا التقرير لا يشمل المراسلات المتبادلة بين القناصل ووزارة الخارجية الامريكية) · وذلك لأن كاثكارت هو الذي تولى المفاوضات مع الداي في مختلف مراحلها لعقد المعاهدة الأولى ، وقد استخلص منه ترضيات معتبرة ، مستغلا في ذلك معرفته بنفسية الداي وبهيكل العلاقات الخارجية الجزائرية بصفة عامة ، بحيث يمكن القول ، بان السفير دونالد صون الذي أرسل في هذه المهمة والذي كان مستوى ذكائه وبراعته لا يفوق ، ان لم يقل ، عن مستوى سلفه ، جون لامب ، لم يقم بدور اكبر من توقيع المعاهدة التي اعدها له كاثكارت .

2 ـ علاقات الجزائر بالدول الاوروبية • يصف كاثكارت هذه العلاقات بكل ما يتخللها من التنافس والتطاحن من أجل المصالح السياسية والتجارية او من أجل الحصول على الحظوة لدى الجزائر ، بين الدول الاوروبية ، وصفا يتسم بالأصالة • والفصل الذي خصصه لوصف الشؤون البريطانية في الجزائر ، على الرغم من ايجازه ، أعتبره ذا قيمة كبيرة ، من حيث انه يمثل ثمرة اتصالات ومبادلات شخصية ومعلومات يستقيها المؤلف من الداي حسن مباشرة، أو من بعض قناصل الدول الاوروبية • وهو بالتأكيد عمل يكمل أعمال الذين عالجوا العلاقات الجزائرية البريطانية في فترة لاحقة • مثل القنصل البريطاني في الجزائر ، « بلاي فير » •

3 ـ وصف المؤسسات والمنشآت العمومية : ترك لنا كاثكارت وصفا دقيقا لجميع المؤسسات العمومية التي كانت موجودة في الجزائر في وقته ، فيحدثنا بصفته شاهد عيان ، عن المدارس والمساجد والسجون الخ • ، والفصل الذي خصصه لوصف قصر الداي من الداخل في عهد حسن باشا ، يمكن أن يعتبر وثيقة لا نظير لها في هذا الباب ، تعرفنا بمختلف أجنحة القصر ودهاليزه ومرافقه ، وأسلوبه المعماري وزخارفه ، كما تفيدنا بالزيادات التي أدخلت عليه لتوسيعه في عصر نفس الداي •

4 ـ الحالة الاجتماعية • لم يتح لكاثكارت ، وهو عبد لا يسمح له بالخروج الا في مواسم الأعياد ، أن يختلط بالشعب الجزائري ، وهذا من سوء الحظ ، لانه لو تعرض للحياة اليومية في الاوساط العربية، وخرج من نطاق الموظفين الأتراك الذي كان محصورا فيه ، لقدم لنا ، بدون شك ، ثروة طائلة من التفاصيل الحية • على أن بعض الاشارات والاحاديث العابرة التي سجلها في مذكراته ، تؤكد لنا ما نعرفه من أن الشعب كان يعاني من الاهمال والارهاق بالضرائب والظلم والجوع والامراض، تحت نير الحكم التركي• على أن وصفه لنظام السجون في أواخر القرن الثامن عشر ، يمكن أن يعتبر وثيقة فريدة ، سيجد فيه الباحث تفاصيل دقيقة وشاملة بشأن تشغيل الاسرى وطعامهم ونومهم ، والرقابة والادارة الخ •

5 ـ الانطباعات الشخصية • سجل كاثكارت كثيرا من الانطباعات التي علقت بذهنه من خلال اتصالاته ومعاملاته مع عدد من الشخصيات السياسية والادارية الخ • ، ومن اهم الشخصيات التي وصفها وأعطى لنا ملامحها العامة ، نذكر سكجولدر براند ، قنصل السويد ، والقنصل الأمريكي ،

اوبراين ، وكلاهما كان صديقا حميما له ، والأب جوزيف ، (أحد قساوسة بعثة الرحمة الفرنسية) وقنصل بريطانيا ، لوجي ، ولكن مخالطته الطويلة للداي حسن (الذي كان مدير مكتبه) ، والى حد أقـل ، للسفير الأمريكـي ، دونالد صون ، الذي وقع أول معاهدة جزائرية أمريكية ، تجعل من مذكرات كاثكارت مرجعا لا غنى عنه للباحث في سير هذه الشخصيات • وكذلك تقدم لنا هذه المذكرات صورة عامة لدور اليهود في قصر الداي ، وبصفة خاصة ، لدور كوهين بكري الذي كان موظفا مترجما في قصر الداي ، قبل أن يقيـم « امبراطورية القمح » التي نعرفها ، في أوائل القرن التاسع عشر ، والذي كان من الأدوات الأساسية التي جلبت ويلات الاستعمـار الفرنسـي علـى الجزائـر •

29 ابريل 1979 — اسماعيل العربي

مقدمـــة ابنـــة المؤلـــف

بدأ تسجيل هذه المذكرات منذ مائة واثنتي عشرة سنة بقلم شاب يبلـغ السابعة عشرة من العمر ، كان الانجليز قد أخذوه أسيرا على البارجة الأمريكية « كونفدراسي » ونقل الى نيويورك مع معظم أسرى البارجة على متن السفينة « جود هوب » أولا ثم على متن سفينة للسجن حيث بقي حتى تمكن من الفرار مع أسير آخر وحصل على عمل في سفينة تجارية ٠

كانت تقله السفينة « ماريا بوسطن » حينما استولى الجزائريون علـى هذه السفينة في شهر يوليو سنة 1785 م ، في موضع يقع على مسافة ثلاثة أميال الى الجنوب الشرقي من رأس « سانت فاسانت » ، وقد كانت « ماريا بوسطن » أول سفينة أمريكية تقع في يد القراصنة الجزائريين ٠

لقد وجد الشاب في روحه الوطنية العنيدة ما ساعده علـى النهـوض من حالة العبودية المزرية ليصبح موظفا مسيحيا ومديرا لمكتب الداي في الجزائر حيث كان يعمل واسطة بين الداي والسفراء الأجانب حينما يعجز هؤلاء عـن الحصول على مقابلة مع الداي ٠

وفي سنة 1796 ، عاد الشاب الى الولايات المتحدة على حسابه الخـــاص يحمل معه رسائل تتعلق بصياغة بنود معاهدة للسلام مع الجزائر ٠ وقد شغل وظيفة حكومية في فيلاديفيا لمدة سنتين قبل أن تعينه حكومته قنصلا عاما في الجزائر ، وتونس ، وطرابلس ٠

وعقب اعلان طرابلس الحرب على الولايات المتحدة ، عينته الحكومة قنصلا في « اوغورن (leghorn) حيث مارس مهمته خلال بضع سنوات ، وقد بلغ مجموع السنوات التي قضاها في مختلف الأماكن بصفته قنصلا ، تسع سنوات ٠

وفي سنة 1805 ، عاد الى الولايات المتحدة · وفــي سنــة 1807 عينتــه الحكومة الاميركية قنصلا في مدايرا ، حيث شغل منصبه لمدة تسع سنوات قبل أن يعود الى واشنطون · وبعد ذلك بوقت قصير ، عين قنصلا عاما فــي قادس ، حيث أقام مدة ثلاث سنوات ، قبل أن يعين ممثلا للولايات المتحدة في لويزيانا · وخلال الفترة 1823 ـ 1843 عمل في منصــب المراقــب الاداري فــي واشنطــون ·

كان ولاؤه لوطنه وحبه لاسرته دائما حافزا له للعمل الدائب ، بحيث انه لم يتمتع قط باجازة صيفية قبل أن يحين أجله في 6 أكتوبر 1843 ، وأما زوجته التي رافقته ، وكلها ولاء واخلاص ، في تجواله في ثلاثة أرباع العالم ، فقــد انتقلت في اثره الى منزل السعداء · وذلك بعد أقل من أربعة أشهر من وفاته ·

*

* *

الفصل الاول

الحالة السياسية في الجزائر في سنة ١٧٨٥

شجـــرة الاســـــرة

اسم اسرتي مشتق من بارونية كاثكارت واراضيها في ولاية « رانفيو » (Renfew) في اسكوتلادة ، حيث توجـد مدينة كاثكارت الحالية . ومؤسس الاسرة التي انحدر منها ، هو الكولونيل جبرائيل كاثكارت الذي هاجر الـــى ايرلاندا مع القسيس مالكولم هاملتون (أسقف كاشل فيما بعد) ، في سنــة 1641 م .

تزوج الكلونيل كاثكارت بالسيدة أنبى هاملتون ، ابنة أسقف كاشل ، وولد له منها 11 ولدا ذكرا وعدداً من الاناث . وقد قتل الكلونيل مع ستة مـن أبنائه في معركة « أوجهريم » في سنة 1691 .

وأما مالكولم كاثكارت ، جدي الاعلى ، فقد نجا من المعركة وتزوج ماري . ابنة السير جيمس كالدويل ، وقد عاش حتى بلغ سنا نادرة ، وهي 116 سنة .
وأما ابنه جيمس الذي هو جدي والذي سميت باسمه ، فقـد كان ضابطـا برتبة قبطان في الجيش البريطاني ، وقد قتل في معركة خاض غمارها الجيش البريطاني بقيادة الدوق كومبرلاند ، في سنة 1745 م ، وقـد خلـف طفلين ، والدي ، مالكولم هاملتون كاثكارت الذي ولد في « بيرسفيلد » في ولاية « ميث الغربية » في سنة 1736 ، و « ايلزا » ، التي تزوجت بالسيد سولفان الذي لم يتح لي قط معرفته . . .

كان جدي قد تزوج بابنة أخ أندريو ويلصن ، مؤسس مستشفى ويلصـن المعروف في ايرلاندا . وأما والدي ، فقد تزوج ببنت ادوارد هامفريز ، مـــن مدينة دوبلن بايرلاندا .

وأما شقيقي الاكبر رولسطون ناسو كاثكارت ، فقد ولد في جبل « موراه » في مقاطعة « ميث الغربية » في 22 سبتمبر 1763 م . أما أنا فقد ولدت فـي نفس البلدة في سنة 1767 م ، وقد حضرت الى أمريكا في سن مبكرة ، وكـان والدي قد وضعني في كفالة أحد أقارب القبطان جون كاثكارت ، الذي تجولت معه في البحار عدة سنوات قبل أن يعين ضابط صف في البارجة الأميركيـــة « كونفدراسي » التي كانت تحت قيادة القبطان سميث هاردينج .

قاومت دول القرصنة في المغرب ، ولا سيما الجزائر ، خـلال سنـوات متعاقبة هجمات اسبانيا وعدد آخر من الدول المسيحية الأصغر منها ، والواقعة على الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط ، بالاضافة الى الحملات العسكرية البرتغالية . واضطرت جيوش تلك البلدان (التي تحتل أراضيها) الى الانسحاب منها كما أرغمت رؤساءها على التخلي عن آمالهم في احتلال المدينة (الجزائر) . واهم هذه الحملات واخطرها شانا ، بعد الحملة التي شنها الامبراطور شارل الخامس في سنة 1541 ، الحملات التي قادها الدون بيدبيدرو كاستيجـون والجنرال أو . ريلـي (o. Riley) في سنة 1775 ، والدون انطونيو بارسلو في سنة 1784 . وكذلك قررت الجزائر أن تقبل مبالغ طائلة من مملكة اسبانيا في مقابل معاهدة للسلام تحررها من الخوف المستمر من الغارات والقصف بالمدافع ، في الوقت الذي تطلق يدها لممارسة القرصنة ضد السفن التجارية للبلدان الاوروبية الاخرى .

واما الأسس التي يمكن أن يقوم السلام عليها بين هـذه الـدول ، فقد عدلها سيدي حسن وفكيلهارش (wilk harch) أحد امراء البحرية الجزائرية ، خلال الفترة 1777 ـ 1778 ، حينما كان معتقلا في قرطجنة . وهذه الشـروط كان يمكن أن تصبح نافذة المفعول لولا أن دخول اسبانيا في حرب مع بريطانيا فيما بعد ، جعل هذه الاجراءات غير ضرورية . ولما كان الداي قوي الميول الـى بريطانيا حتى بعد توقيع معاهدة الصلح في سنة 1783 ، فقد كان من غيـر الحكمة أن تطلب اسبانيا الى الداي عقد الصلح على أساس شروط يمليها هو .

وتبعا لذلك ، فقد وجهت اسبانيا حملة صغيرة لقصف مدينة الجزائر في سنة 1784 ، وذلك حتى تثبت أن لديها قوة بحرية كافيـة لمنـع القرصنـة الجزائرية من العبث بمصالحها التجارية . ولكن هذه الحملة لم يكن لها من اثر الا أن تجعل الصلح المرغوب فيه أكثر شعبية بين الجنود وسكان مدينة الجزائر، وأن يتيح للداي ولديوانه فرصة لاقناع هؤلاء بانه انما يميل الى الصلح مـع تلك الدولة التي كانت عدوا لدودا للجزائر خـلال سنـوات طويلة ، استجابـة لرغباتهم .

ومع ذلك ، فقد بقيت عقبة أمام ملك المملكة الكاثوليكية كان عليه ان يذللها قبل عقد الصلح ، وتلك هي فقرة في نص يمين التتويج تحرم عليه ان يعقد سلما مع « الكفار » · ولكنه نظرا لان الهدنة معناها وقف القتال لمدة معينة من الزمن ، فقد أمكنة التحايل للتخلص من ذلك القيد بعقد معاهدة هدنة لمدة قرن ، كلفت الخزينة الاسبانية مليون دولار لحساب الدولة الجزائرية ونحو مثل ذلك المبلغ لحساب الداي الشخصي ، وذلك بالاضافة الى مبالغ اخرى دفعت على سبيل الهدايا للشخصيات الجزائرية البارزة ، وقد كانت حصة سيدي حسن من هذه الهدايا حصة الأسد ، بسبب تدخله الودي لعقد المعاهدة · وكذلك كان هذا التدخل ذريعة لابتزاز هدايا ثمينة في فترة لاحقة من البلاط الاسباني ·

كانت الجزائر في هذه الفترة ترتبط بمعاهدة سلام مع كل من بريطانيا العظمى وفرنسا واسبانيا وهولندا والدانمارك والسويد والبندقية وجمهورية راجواز (Ragusa) الصغيرة وفيما يتعلق بالامبراطورية الروسية والمانيا ، كان الداي يقف تجاهها موقف عدم الاكترات حيث كان ينتظر ورود معلومات من الباب العالي قبل أن يتخذ موقفا منها ، وبالتالي ، فان الاسطول الجزائري لم يأسر أية سفينة تابعة لاحدى هاتين الدولتين ·

وأما البرتغال وبروسيا ونابلي والامارات الايطالية وغيرها من المدن التي لا تدفع الضرائب البحرية ، فقد كانت الجزائر في حالة حرب معها ·

وأما بريطانيا العظمى ، فبالنظر الى تفوقها البحري ، واعتبارا للقواعد البحرية التي أقامتها في البحر الأبيض اثناء الحرب التي انتهت باعترافها باستقلال الولايات المتحدة ، فقد كان الديوان الجزائري يخشى بأسها ويحترمها في نفس الوقت ، وذلك عدا ميول الداي الى هذه الدولة وتفضيله اياها · ومع ذ ك ، فمنذ وفاة السيد بنطون (Benton) ، اخر قنصل لبريطانيا في مدينة الجزائر ، لم تعين هذه الدولة قنصلا يخلفه في منصبه ، حتى وصل المستر شارل لوجي (c. Logie) ، الذي استلم مهام منصبه ، قبل عقد معاهدة السلام مع اسبانيا بوقت قصير ·

وتبعا لذلك ، فقد كان الداي يجهل طبيعة العلاقات التي تربط بريطانيا بمستعمراتها السابقة · وبالطبع ، لم يكن من مهام قناصل الدول الاخرى ، مثل فرنسا وهولندا ، أن يقدموا للداي معلومات عن النزاع البريطاني الاميركي وعن نتيجة الحرب بين البلدين ، ما لم يتلقوا تعليمات من حكوماتهم بهذا الشأن · ولو سمحت لهم الظروف بالقيام بهذه المهمة ، لأمكن تجنب كثير من سوء التفاهم والحوادث المؤلمة التي وقعت فيما بعد ·

لن يكون من السياسة في شيء ، فضلا عن أنه شيء يحز في النفس ، أن نجتر المقايضات والمساومات التي فرضتها الظروف التي تحملنا رعاية مصلحة البلدين على تناسيها . ولكنه يتحتم على المؤرخ النزيه أن يسجل الحوادث كما وقعت في الحقيقة ، أولا يسجلها مطلقا .

ولذلك ، فسو فلا أقطع خيط السرد للحوادث بالتهرب من الحقيقة . على أنني أعتقد مخلصا أن كثيرا من الحوادث التي وقعت والتي سأذكرها هنا ، تعود الى دوافع شخصية أكثر مما تنبع من أي شعور بالعداوة بين البلدين .

وصل القنصل البريطاني ، لوجي ، الى الجزائر في وقت متأخر فلم يكن في استطاعته التاثير على مجرى المفاوضات بين الايالة واسبانيا . وسواء أكان يسعى لرفع مكانته في نظر حكومته ، أم أنه كان يبغي نيل الحظوة لدى الحكومة الجزائرية (وهو أمر من الاصعب تحديده) فقد عمد القنصل الجديد فور وصوله ، الى تقديم تفاصيل مدعمة الى الداي عن نتيجة الحرب البريطانية الأمريكية ، وصرح أمامه بأن سفن الولايات المتحدة التجارية لم تعد تتمتع بحماية صاحب الجلالة ، وانه كلما عثر القراصنة الجزائريون على سفينة امريكية ، فهي غنيمة مباحة ، وأنه يتمنى للقراصنة كل النجاح في أسر تلك السفن التي ترفض التمسك بولائها لصاحب الجلالة ، ملك بريطانيا العظمى(1) .

وفي 30 يونيو من نفس السنة جهزت قطع من الأسطول الجزائري وأرسلت مباشرة الى المحيط الاطلسي الذي لم تدخله السفن الجزائرية منذ عدة سنوات . وقد كان هدفها أسر بعض السفن الثمينة التابعة للبرتغال والبرازيل كان من المنتظر وصولها الى لشبونة في تلك الآونة ، ولم تكن تنتظر لقاء أية سفن أمريكية ـ تلك السفن التي وصفها القنصل لوجي بأنها هياكل لا تملك قوة أو حيلة ، وبالتالي فهي محتقرة ولم يكن ملكه يرى انها جديرة بأي مجهود يبذل لأسرها .

---

(1) كان لوجي يحمل شعورا قويا في نفسه ضد الولايات المتحدة ، والجهود الكبيرة التي بذلها لعقد هدنة بين الجزائر والبرتغال ، اذا كانت تتجاوب مع سياسة حكومته ، فهي لا تخلو من اثر هذا الشعور . وقد ذكر سلاون الذي كان في الجزائر اثناء مفاوضات الهدنة البرتغالية ، وكان يحضر الاجتماعات التي يعقدها الداي مع المفاوضين، انه شاهد لوجي يوما يخبر ربابنة سفن القرصنة الجزائرية بالمواقع التي ينبغي أن يتجولوا فيها في عرض المحيط الاطلسي الذي انفتحت الملاحة فيه للجزائريين بعد الهدنة مع اسبانيا ، لكي يمكنهم الاستيلاء على السفن الامريكية . وقال سلاون ان لوجي قد ضمن للجزائريين الاستيلاء على اكثر من عشر سفن امريكية في شهر واحد « اذا طبقوا توجيهاته » . راجع ايروين : العلاقات الديبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة ،
وكذلك :

Todd, life and letters of Joel Barlow, N. Y., London, 1886, p. 120.

كان القراصنة يطوفون عند شواطىء البرتغال وقد خاب املهم في اسر اية سفينة برازيلية ، ولكنهم في مقابل ذلك تمكنوا من اسر عدد من السفن البرتغالية والجنوية وسفينتين امريكيتين ، احداهما هي « ماريا » من بوسطن، التي كنت انا على متنها • وقد اسرت السفينة الاخيرة على مسافة ثلاثة اميال من رأس سانت فانسانت (راس يقع في جنوب شرق البرتغال) في 25 يوليو 1785م . وصلت سفينتنا الى الجزائر في الرابع من شهر اغسطس من نفس السنة •

وأما السفينة الثانية « فيلاديفيا » ، فقد اسرت على مسافة 70 فرسخا من صخرة لشبونة في 30 من نفس الشهر ، ووصلت الى الجزائر في 12 اغسطس • وقد كانت بارجة الأميرال هي التي اسرتها ، واما سفينتنا « ماريا » ، فقد أسرتها سفينة ثلاثية الصواري مسلحة باربعة عشر مدفعا •

ولما صعد المسلمون الى سفينتنا طلبوا منا ان نسلمهم علمها واوراقها •

فأما علم السفينة فلم يكن معروفا لديهم ، واما اوراقنا فلم يكونوا يستطيعون قراءتها ، ونحن لم نكن نحمل ترخيصا من الداي للملاحة في البحر الأبيض • وهكذا اعتبرونا غنيمة مباحة •

كان شعوري يختلف عن شعور زملائي الأسرى • فقد كنت اعرف اللغة الاسبانية التي كان الجزائريون يتحدثون بها ، كما كنت الوحيد بين زملائي الذي يعرف شيئا عن بلاد المغرب :

كنت اعرف أن اسبانيا كانت منذ بضعة أشهر في حرب مع الدول الافريقية ، وقد حالت دون دخول القراصنة الى المحيط الاطلسي • ونظرا لاننا لم نتحدث الى أحد من الربابنة في البحر ليخبرنا بهذا التطور • فقد ظننت أن السفينة التي أسرتنا تابعة للمغرب الأقصى الذي كان في حالة حرب مع البرتغال •

كان عدد القراصنة واحدا وعشرين بينما لم يكن عددنا نحن يتجاوز ستة ، الأمر الذي يجعل من المستحيل السيطرة على سفينة القراصنة لو كنا من الرعونة بحيث نحاول ذلك •

ظلت هذه الخواطر تراودني مدة اكثر من ساعتين ، قبل ان ننتقل الى السفينة الجزائرية • كانت الريح رخاءا ، وعندما امتطينا السفينة الثلاثية

الصواري ، كان استقبال البحارة الجزئريين لنا يتمثل في صرخة مدوية تدل على اننا غنيمة ممتازة • وبعد ذلك قادونا الى ظهر السفينة ، قبل أن تمتد يد كل واحد الينا •

كانت قبعاتنا ومنادلنا وأحذيتنا هي أول ما أخذ منا ، وقد كنا في أشد الحاجة اليها بسبب الشمس المحرقة التي لا سبيل الى الاحتماء من أشعتها • وكذلك كانت أرجلنا غير مستعدة لتحمل حرارة أرضية السفينة •

كان في استقبالنا « الرايس » ، أو قبطان السفينة ، وهو عربي مسن ومحترم كان قد قضى سنين عديدة في الاسر في اسبانيا ثم في جنوة . أنه رجل طيب بدون شك • وقد وجه الينا الحديث قائلا « أيها المسيحيون ! ان حظوظ الناس في العالم شديدة التقلب • سوف تألفون حالكم • وأنا شخصيا كنت عبدا في السابق ، وسوف أعاملكم معاملة افضل من التي لقيتها • خذوا شيئا من الخبز والعسل وفنجان القهوة ، والله كفيل بأن ينقذكم من تعاسة العبودية كما أنقذني أنا مرتين • ومتى عقدتم الصلح مع والدكم ، ملك بريطانيا ، سوف يحرركم داي الجزائر في الحال » •

وقد اخبرني الرايس أنهم قراصنة جزائريون وانهم دخلوا الى المحيط الاطلسي على اثر عقد معاهدة السلام بين الجزائر واسبانيا ، كما أخبرني بوصول القنصل البريطاني (شارلز لوجي) الى الجزائر ، وان الاخير قد أبلغ الداي أنه يمكنه الاستيلاء على أية سفينة لا تحمل جواز سفر من نوع معين (أي بريطاني) •

وقال لي الرايس انهم أسروا عددا من صيادي السمك البرتغاليين كما أسروا سفينتين كبيرتين يبلغ مجموع عدد بحارتها 36 بحارا من الرجال ، بالاضافة الى امرأة اسبانية المولد • انها امرأة ظريفة يبدو عليها أنها قبلت مصيرها وتكيفت مع وضعيتها الجديدة بسهولة • وزيادة على ذلك ، فهي تبذل مجهودا لحمل الأسرى الآخرين على الرضا بما قدر لهم • دخلت في حديث معها ، وحمدت الله على أن وضعيتنا ليست أسوأ مما هي • فعندما انسلخ احد الأشرعة عن صاريته ، امرنا بالهبوط الى داخل السفينة ولم يبق على ظهرها سوى المرأة ، انه لا يمكن وصف فظاعة حالتنا ونحن في ذلك المكان ، دع الخيال يتصور آلام اثنين وأربعين رجلا زج بهم في غرفة مظلمة قذرة للغاية في سفينة للقرصنة محرومين من أي طعام ويكادون يختنقون من شدة الحر وقلة الهواء • ومع ذلك ، ففي هذا المكان سنقضي كل ليلة حتى تصل السفينة الى الجزائر •

وفي هذه الأثناء كانت تطاردنا سفن ونطارد سفنا اخرى في عـــرض البحر · وأما السفينة الاخيرة التي طاردناها ، فقد ثبت انها سفينة تابعـــة لبلد صديق للجزائر ، ولذلك أخلي سبيلها في الحال · ومع ذلك فان رئيس الغنائم والملاحين الذين صعدوا معه للتحقيق على متن السفينة المحتجزة قد استولوا على ربعية (اداة تستخدم في الفلك) القبطان ومجهره وخرائطـــه وملابسه ، وذلك على سبيل التعويض لانفسهم على ما تحملوه من المتاعب في الكشف عن هوية السفينة ومعاينة وثائقها ·

كان الطعام الذي قدم الينا عبارة عن حبات من الزيتون الاسود الرديء مع بعض الخل وخبز خشن قديم مع شيء من الزيت والماء ، لقد كنا مرغمين على ابتلاع هذا المزيج · وفيما عدا ذلك ، قدم الينا في مناسبتين « برغل » لم نستطع أكله على الرغم من الجوع الشديد الذي كان ينهش احشاءنا ·

ليس من شك في أننا سنموت جوعا لولا بعض الاتراك الذين أخذتهم الشفقة علينا وأعطونا شيئا من البصل والبرتقال والزيت والتين من طعامهم الخـــاص ·

وكذلك تلقيت مساعدة شخصية في عدة مناسبات عندما كنت أمســك بمقبض دفة المركب نيابة عن البحارة · بل انني تعلمت التدخين على متـن سفينة القرصنة بعطف من مضيفها الذي أعطاني غليونا وشيئا من الطباق ، وهو دين عشت لارده لصاحبه في الجزائر بعد ذلك بسنتين ·

وسواء أكان الجزائريون يخشون مـن أن ترسـل البرتغـال أسطولها ليتعقبهم في عرض البحر ، أم انهم قنعوا بالغنائم التي حصلوا عليها حتى الآن ، فانهم قد قرروا ، لحسن الحظ ، اختصار طوافهم في المحيط الاطلسي وعادوا الى البحر الأبيض مع أول ريح غربية بعد الاستيلاء على سفينتنا ·

ولو بقي القراصنة الجزائريون في المحيط الاطلسي شهرا واحدا لامكنهم، بدون شك ، أن يأسروا عدة سفن أمريكية ، ولربما عـددا آخـر مـن السفن البرتغالية المشحونة بالبضائع الثمينة أيضا ·

وصلنا الى مدينة الجزائر عشية عيد الفطر الذي ينتهي به شهر رمضان، ونظرا لاننا ملك لصاحب المركب الذي أسرنا فقد قادونا الى منزل مالكنا · وبعدما جردنا من الثياب التي كانت لا تزال باقية على أجسادنا ، خلعوا علي شخصيا قميصا قديما باليا قذرا وسراويل كانت في السابق ملكا لصيـــاد

سمك برتغالي وكان يحتوي على اعشاش لا تعد من القمل ، وذلك بالاضافة الى تاج ، وهو عبارة عن قبعة قديمة ، هي كل الملابس التي جهزت بهـــا خزانتي ، واما بقية اخواني في الرق ، فان حالتهم لم تكن أفضل من حالتي ٠

كانت اول جولة نظمت لنا هي اخذنا الى « كيونتشك » او وزارة البحرية حيث اكرمنا كرما بالغا وسمح لنا بأن نشرب الكمية التي نريدها من الماء بدون حساب من عين ثرة مبنية بالمرمر رائقة عذبة المياه ٠ كانت رغبتي في الشرب من هذا الماء الزلال عارمة بحيث اعتقد انني كنت اموت لو رفضوا الاستجابة الى هذه الرغبة ٠٠ والذين قاموا باسفار طويلة يعرفون جيدا قيمة هذا الترف ، كما ان الاشخاص الذين هم في وضعيتنا يعرفون كيف يكونون شاكرين ٠

ان الانطباع الذي رسخ في ذهني عن هذه العين انطباع لا يمحى وسيبقى عالقا بذاكرتي مدى الحياة ٠

ساروا بنا من مبنى البحرية عبر الشارع الرئيسي فـي حركـة شبـه استعراضية وفي اثرنا جمهور غفير من المتفرجين الذين تجمعوا لكي يشاهدوا امريكيين ، فنحن في الحقيقة اول امريكيين تقع أعين القوم عليهم ٠ واخيرا وصلنا الى منزل مالكنا وسيدنا ، ونحن لم نذق طعاما غيـر المـاء منذ الليلة السابقــــة ٠

وهناك لم يكد يستقر بنا المقام حتى حضر الينا عدد كبير من العبيـــد المسيحيين من مختلف الطوائف ٠ فقد كان يوم العيد يوم عطلة لهم ، وقد احضر الينا الذين استطاعوا ذلك فواكه الموسم والخمر والخبـز ، والماكولات المطبوخة والتي تؤكل بدون طبخ ٠

وفي منزل مالكنا ، وضعنا جميعا في غرفة واحـدة فارغـة وجلسنا على الارض على الآجر الذي لا يغطيه شيء ٠

وفي وسط الغرفة وضع قدر كبير كان قد استعمل مؤخرا لغلي الثيـاب الوسخة ، مملوء بالماء وقد وضعت فيه شرائح لحم احمر افترضنا في مبدا الامر انه من لحم البقر ، ولكننا اخبرنا بانه لحم الجمل ، الامـر الـذي لـم نستطيع معه تذوقه ٠ وهذا الامتناع عن تناول لحم الجمل أثار فورة من الغضب في نفس مالكنا الذي اقسم اغلظ الايمان انه لن يتكلف بعد الآن مثل هـــذه النفقات الباهظة من اجل ارضاء عبيده المسيحيين ٠

وقد أضيف الى لحم الجمل كمية من « البرغل » وبعض السمن القديم ، وقدم الينا الطعام في صحون من الخشب • ذلك ، بالاضافة الى كمية من الخبز الاسود ، وهو الطعام الوحيد الذي نعيش عليه حتى في نفس الوقت من يوم الغد •

وهكذا بقينا في حالة الاهمال وبدون طعام ونحن نفكر في فظائع العبودية التي تنتظرنا ، مستلقين على الآجر الذي لا غطاء عليه ، والقمل والباعوض ينهش لحمنا طول الليل •

وفي الصباح الباكر ساقونا الى الميناء لنقوم بارخاء اشرعة السفن وبغير ذلك من الاعمال الضرورية على متن نفس السفينة التي اسرتنا •

وهناك قدم الينا شيء من « البيسكويت » والزيتون الاسود من النوع الذي قدم الينا في البحر ، مع كميات كبيرة من الماء •

وفي المساء ساقونا الى منزل مالكنا حيث قضينا الليل في نفس الظروف التي عرفناها في الليلة السابقة • واما العشاء فقد استعيض فيه عن لحم الجمل ببعض الخضروات والفواكه مع شيء من الخمر وبعض المأكولات التي بعث بها الينا العبيد المسيحيون ، وبذلك حصلنا على عشاء لا بأس به •

وفي هذه الاثناء ، كنا نجهل كل شيء عن مصيرنا وهل نعمل في السخرة للتجديف في السفن أم نباع في السوق لبعض العربان في الأرياف •

واذا كانت مخاوفنا لا تقوم على أساس ، فهي مع ذلك اقلقت مضاجعنا وملأت احلامنا بالفظائع التي تنطوي عليها حالتنا وأضفى عليها خيالنا الوانا قاسية من الالم والرعب •

وفي اليوم التالي أخذنا وطيف بنا على منازل العظماء والنبلاء التي لم نكن قد زرناها في اليوم السابق ، وذلك في صورة شبه استعراضية • فقد كان الجميع شديدي الفضول لمشاهدة الأمريكيين ، وكان الكثيرون منهم يعتقدون اننا من الهنود الحمر ، وهي فكرة أوحت بها اليهم رؤيتهم لبعض الرسوم التي توضع على خرائط القارة الامريكية على سبيل الزخرفة وكذلك كان الجميع مندهشين لان يروا أن بشرتنا بيضاء ، واننا ، حسب تعبيرهم ، نشبه الأنجليز •

وأخيرا ، اخذنا الى منزل القنصل البريطاني حيث قدمت لنا بعض المرطبات ، ثم اسر القنصل بكلمة الى مالكنا بانه سيكون مسئولا عن سلوكنا ما دمنا في ملكيته ، ولكنه نصحه بان يترك في المنزل شخصا يمنعنا من التجول في الشوارع ٠

وحتى هنا في القنصلية البريطانية أشعرونا بوضعيتنا وتعرضنا لأنواع جديدة من الاهانات التي لم نكن نتوقعها ، وبالتالي كان احساسنا بالألم منها أقوى ٠

أقمنا عند مالكنا يومين ، وفي اليوم الثالث أخذنا الى سوق النخاسين حيث بقينا منذ طلوع الشمس حتى الساعة الثالثة بعد الزوال بدون أكل وبلا شراب ، وقد استمرت معاملتنا بهذه الصورة لمدة ثلاثة أيام على التوالي ٠ وفي اليوم الأول والثاني كنا ننام في منزل مالكنا وبدون أي تحسن للحالة التي عشناها في اليوم الأول لوصولنا ٠

وبعد ظهر اليوم الثالث أخذنا الى قصر الداي وأجري لنا استعراض أمام سعادته ، وقد اختار خمسة من ملاحي سفينتنا ولم يترك سوى القبطان ستيفانز ، كما اختار ثمانية من الأسرى البرتغاليين ، وذلك للخدمة في القصر ٠ وأما الباقي ، فقد أخذوا الى سجن العبيد ، حيث ان الأيالة قد اشترت جميع هؤلاء الأسرى باستثناء أربعة أو خمسة من المسنين الذين بيعوا في السوق ، وامرأة ارسلت فور وصولها الى المستشفى الاسباني حيث ستبقى حتى تدفع فديتها (وهي الأخرى اشترتها الايالة) ٠

واثر ذلك ، أخذنا الى حمام ساخن وقام بغسلنا عبيد مسيحيون آخرون ونظفنا من جميع الأوساخ التي علقت بنا اثناء الرحلة في السفينة وخلعت عنا أسمالنا البالية وألبسنا قميصا فضفاضا مفتوح الأكمام وسراول تركية واسعة وأحذية وطرابيش حمراء ، وكلها من النوع التركي ، ولا شك في أن منظرنا فيها يبدو في غاية الغرابة ٠

سمح لنا بان نبقى معا في تلك الليلة ، وقد كانت حالتنا على أفضل ما يمكن بالقياس الى ما عرفناه في الأيام السابقة ٠ وبعد الحمام شعرنا بنظافة أجسامنا واستغرقنا في سبات عميق بقدر ما يسمح به وضع العبودية الذي نحن فيه ٠

وفي الصباح استيقظنا وقد زال تعبنا وفي راحة تامة ووضع كل واحد منا في مكان عمله في القصر : اثنــان منا عينا في منصــب رؤساء الخـدم ، واحدنا عين في المطبخ • واما انا واحد الزملاء ، فقد كــان مصيرنا العمل فـــي حديقة القصر ، حيث لم يكن امامنا عمل كثير وكان عددنا اربعة عشر خادما • كان عملنا ينحصر في العناية باسدين ونمرين وظبيين ، وقد كان من الممكن ان يقوم به أربعة أشخاص بدون كبير عناء •

كان الوقت متسعا أمامي الآن لكي ارثي لحالة التعاسة التي انا فيها ، ومع ذلك ، فقد كنت جاهلا بابعاد حالة العبودية • فلو عرفت كل التغيرات التي ستطرأ على حالتي وطوال المدة التي سوف تستغرقها عبوديتي ، لكان من المرجح ان تخور قواي المعنوية واسقط تحت وطأة الألم والحزن والأسى • ولكن الأمل ، ذلك البلسم المسكن لآلام النفس ، كان يوحي لنا بان حالتنا لم تكن سيئة في حقيقة الأمر ، أو قل انها كانت أقل مما كنا نتوقع ، وان ما نتحمله الآن ليس أسوأ كثيرا مما تحمله كثير من مواطنينا في امريكا اثناء حـــرب الثورة في السجون البريطانية ، وعلى أي حــال ، فقـــد كنـــا واثقين مــن ان حكومتنا سوف تقوم بفديتنا فورا • ولهذه الاعتبارات كلها ، قررت أن أتحمل حالة عبوديتي بكل ما يمكن من الرضى وأن لا أظهر أمام المسلمين بمظهر البؤس والقنوط !

ولكن الحقيقة هي أن ما شهدته حتى الآن هو احسن ما في حالة العبودية وان أسوأ ما في هذه الحالة لا يزال في انتظاري •

لقد وعدت بأن اعرض تفاصيل المعاملات التي كان يلقاها العبيد المسيحيون في بلدان المغرب والتي عرفت أنواعا منها شخصيا ، وسوف أقدم هذه التفاصيل في السرد حسب ترتيب وقوعها الزمني ، وفي نفس الوقت ، سوف تحتم علي الضرورة بعض الاستطراد في السرد حتى تستقيم الخطة التي وضعتها له ، وانا في ذلك ارجو معذرة القارىء والناقد المتشدد •

* *

الفصــــل الثانـــي

ان نظرة على التدبير الاقتصادي في قصر الداي لتسمح لنا بالتعرف على وضعية العبيد في القصر نفسه وفي منازل جميع الاعيان والاغنياء في ايالة الجزائر ، وذلك مع اعتبار الفوارق بين نزوات رؤساء العبيد ، وبعضهم افضل والبعض الآخر اسوأ مما في البلدان الأخرى ٠

يشرف على تدبير شئون قصر الداي خازندران (أو حاجبان) ورئيسان للطباخين ، وهذان الأخيران يتناولان طعامهما على مائدة الداي ، وفيما عدا هؤلاء لا يتدخل شخص آخر في التدبير المنزلي في قصر الداي ٠

كان تحت أوامر رئيسي الطباخين لدى وصولي الى القصر ثلاثة وثلاثون عبدا من المسيحيين الذين ينتمون الى مختلف الطوائف والبلدان ، وذلك بالاضافة الى عدد من الخدم العرب الذين يقومون بمختلف الأعمال خارج ابواب القصر ٠

والعبيد المسيحيون لا يسمح لهم بالخروج من القصر سوى مرتين ، وذلك في اليوم التالي للأعياد المسيحية الرئيسية ٠

وهؤلاء المسيحيون يستخدمون للقيام بمختلف الأعمال ، في المكاتب وفي المطبخ وفي مخازن القصر ، ورؤساء الطباخين هم الذين يشرفون على جميع أنواع النشاط الذي يقوم به العبيد المسيحيون ، وأما الخزندران فان أكبرهما منصبا هو سيدي على المشهور ، والذي أصبح فيما بعد باشا طرابلس ، وقد كان تحت سلطة كل واحد منهما عدد مماثل من العبيد المسيحيين ٠

وهؤلاء مقسمون كما يلي :

ففي جناح الداي الخاص (وهم أعلى مراتب العبيد) يوجد « كابو دي جولفا (capo digolfa) الذي هو اكبر العبيد في جميع الايالة ، باستثناء « رئيس الموظفين المسيحيين » ، ومعه أربعة آخرون من العبيد . وهؤلاء هم

حرس الداي الشخصي ولا يمارسون اي عمل آخر آخر غير ذلك ، وفي الطابق الأول الذي يحتوي على جناح الخازندار ، يوجد اربعة عشر عبدا مسيحيا عملهم هو ضمان نظافة هذا الجناح وحمل أطباق اللحم الى مائدة الداي ومائدة الخازندار من المطبخ ، وذلك بالاضافة الى تنفيذ ما يأمرهم به الداي والخازندار ، ولا أحد غيرهما يتدخل في عملهم ، واثنان من هؤلاء مهمتهما الوحيدة هي تقديم القهوة للداي ولزواره من العظماء • وهذه المسألة سنعود اليها فيما بعد •

ونظرا لأن هذين العبدين يعيشان من مائدة الداي ، فان مستوى معيشتهما أفضل من غيرهما ، بل وأفضل من الحياة التي في امكانهما توفيرها في بلديهما ، وشرب الخمر محرم في القصر ، ومن تعاطاها من العبيد المسيحيين يعرض نفسه للجلد ولاحالته بعد ذلك الى الاعمال الشاقة مكبلا بالسلاسل • والطباق أيضا ممنوع في القصر متى كان الداي لا يدخن شخصيا ، كما كانت الحالة اثناء مقامي في القصر • ولكن التدخين مسموح به في الحديقة •

ونحن عمال الحديقة لا نتلقى من الطعام سوى صحن صغير من اللحم مع « المحمصة » وصحن من « البرغل » وقدحين من اللبن الحامض (الرايب) في اليوم ، وهو غذاء لا يكفي لأربعة منا • وبين الحين والحين يقدم الينا شيء من الزيت والخل والخبز الاسود ، مثل الخبز الذي يقدم للعبيد الذين يعملون في الميناء • وكذلك تقدم الينا بعض الفواكه ، مثل « الدلاع » في مواسمها ، وأما فواكه الحديقة فهي ممنوعة علينا ويحتفظ بها لاستهلاك الداي شخصيا • وأنا اتيح لي أن أعرف عددا من أخواني العبيد انزلت بهم عقوبة الجلد عقب اكتشاف تناولهم برتقالة أو عنقودا من العنب مما تنتجه حديقة القصر •

والذين يرتبطون منا بصداقة مع عمال المطبخ قد يتلقون كميات اضافية صغيرة منهم ، ولكنه على الرغم من ذلك ، فنحن كثيرا ما نشعر باغراء لصنع سلاطة من أوراق الدوالي حتى تخمد لظى الجوع في احشائنا • بل اننا كثيرا ما تهجمنا على بيت حمام الداي وخاطرنا في ذلك بكسر عنوقنا في المرحلة الأولى ، ثم بالجلد العلني ، اذا قبض علينا في هذه العملية في مرحلة تالية •

كنا واقعين ضمن صلاحيات الخازندار وكنا نعامل معاملة تتسم بالوقاحة والغلظة والقسوة المتناهية •

كان يوجد معنا أيضا اثنان من المسيحيين مهمتهما القيام بتنظيف الجزء الأسفل من القصر ، واضاءة الدرج للداي في الصباح ، حيث انه ينهض مبكرا ويقصد الى ديوانه للجلوس في وقت معتم • ومن مهامهما أيضا رفع

أسرة الجنود الذين يرقدون عند أبواب الخزينة والقيام بكل ما يامرهما به رئيس الوزراء وحافظ مخازن القصر ، وهما يقعان تحت سلطة هاتين الشخصيتين ، ولكنه نظرا لان كليهما لا ينام في القصر ، فقد صنفا ضمن الطباخين ويناماں معهم ·

والى جانب العبيد المسيحيين ، يوجد من بين من يعملون في القصر عدد من الحدادين الذين ينامون في السجن ليلا · وكذلك يوجد عدد من الكناسين الذين يقومون بنقل القاذورات الكثيرة التي تتجمع في القصر كل يوم ، ولا سيما بالنظر الى العدد الكبير من الحيوانات التي تذبح وتسلخ في داخل القصر · وفي هذا السياق اذكر انني شاهدت أكثر من مرة كبشا ميتا في حديقة القصر ثم رأيت الجزار ياتي بعد ذلك لقطع رقبته لكي يقدم لحمه للعبيد المسيحيين وللحدادين ·

وكذلك يحتفظ في القصر بعدد كبير من جياد الداي والبغال التي تستعمل لحمل الأثقال ، وهي تحدث كثيرا من الأوساخ والقاذورات في القصر ، وهذه القاذورات تنقل الى خارج القصر وتوضع في أماكن معينة ويتولى رئيس الزبالين بيعها لاستعمالها سمادا ·

تلك في مجملها الأعمال التي يقوم بها 68 من العبيد المسيحيين والخدم المحليين في قصر الباشا الكبير ، وجميعهم يتلقون نفس المعاملة ، ولو ان الذين يعملون في الحديقة أقل حظا من الجميع ·

في يوم 12 أغسطس وصلت البارجة الجزائرية التي اسرت البارجة الأمريكية « فيلاديفيا » وعلى متنها بحارتها الذين يبلغ عددهم خمسة عشر بحارا وضابطا · وقد عوملوا نفس المعاملة التي تلقيناها على وجه التقريب ، ولكنه نظرا لأن البارجة الجزائرية ملك للحكومة ، فقد نقلوا من السفينة الى القصر مباشرة ، وهناك قضوا ليلتهم الأولى · ولما التقينا بهم استانسوا بوجودنا ووجدوا فينا بعض العزاء ، ولا سيما حينما أخبرناهم بأن الأسرى لا يستعملون في الجزائر للتجديف لتسيير السفن ، وهو خبر من شأنه أن يبعث السرور في نفس كل من هو في وضعيتهم · وكذلك سرهم أن يعرفوا ان العبيد لا يكبلون بالسلاسل عادة في الجزائر ، هذا ما عدا الحالة التي يرتكب فيها العبد جريمة واستحق ذلك على سبيل العقاب ، وقلنا لهم ان الضباط يرسلون للعمل لادارة الاشرعة والبحارة للعمل في البحرية ·

وهذه المعاملة أفضل مما كانوا يتوقعون بحيث أنهم أخذوا يكيفون أنفسهم ذهنيا لوضعيتهم الجديدة · ونتيجة لان البارجة كانت تحمل جواز سفر انجليزي قديم ، فان بحارتها لم يجردوا من ثيابهم ، وعندما نظفت ملابسهم كان مظهرهم أحسن كثيرا من مظهرنا نحن ·

ولما استعرضوا امام الداي في اليوم التالي ، اختار سعادته عددا منهم للخدمة في القصر ، وأما الباقون ، فقد ارسلوا الى سجن العبيد الذي ساصفه للقارىء حينما أصبح من سكانه أنا شخصيا ·

اخذ القبطان أوبراين (o. Brian) والسادة ستيفانز وكوفين (والأخير مجرد راكب على السفينة) فور وصولهم الى منزل القنصل البريطاني للعمل هناك بصفتهم خدما · وهناك أقاموا يعانون كل ما اخترعه الانسان من أنواع الاهانة والذل والاحتقار ، حتى وصل الكونت « ايكسبيلي » (Expilly) سفير اسبانيا الذي أخذهم تحت رعايته ، بناء على طلب « كارميكايل » (Carmicheal) القائم بالاعمال الامريكي في مدريد ، واستاجر لهم منزلا صغيرا وعاشوا فيه حياة رغدة بالمؤن التي كان يبعث بها اليهم كارميكايل واصدقاؤهم في القصر ·

وكذلك نقل مساعدو الربان ليعيشوا مع القبطان ، وأما البحارة فقد تركوا للأشغال الشاقة واكتفى بمنحهم مبلغ سبع سنتيمات ونصف في اليوم للاستعانة بها للملبس ولطعام اضافي ·

والآن اعود الى وصف الحالة في القصر ·

كان العبيد الذين يعيشون في الجناح الاعلى من القصر يتلقون بدلتين انيقتين من الجوخ الرفيع مزينة بحواشي من الذهب · واما العبيد الذين يعملون في الحديقة فيمنحون نفس النوع من الملابس باستثناء حواشي الذهب ، واما الطباخون فيتلقون أكسية من نوع من القماش اقل جودة ولكنها مطرزة بالحرير ، والعبيد الذين يرسلون للأعمال الشاقة يتلقون بدلة واحدة من القماش الرديء لا تساوي أكثر من دولار ونصف دولار ، كما يتلقى كل واحد منهم غطاءين ويفترض أن يستمر كل ذلك طيلة مدة بقائهم في الاسر ·

ومن هذا الوصف لا بد وأن يستنتج القارىء أن حالة العبيد الذين يعملون في القصر افضل من غيرهم ، ولكن الحقيقة هي أن الاهانات التي يتعرض لها العبد في القصر لا تحتمل وتجعل الانسان في بؤس وعذاب مستمر ، بحيث يفضل الانسان الذي له احساس بكرامته الأعمال الشاقة على حياة القصر ، ومما يزيد من شقاء العبد في القصر انه يجد امامه كثيرا من فراغ الوقت الذي يقضيه في اجترار الخواطر والأفكار وفي التامل في حالة تعاسته ·

وانا هنا اعدد بعض اعمال الظلم التي تحملتها شخصيا او رايت زملائي يتحملونها اثناء اقامتي في القصر • وهذه الاهانات والظلم يتعرض لها كل اسير ، بحيث ان اسيرا من جنوة عندما افتدي وقبل يد الداي محمد باشا ، قال بدون وعي معتقدا انه يمثل استثناء نادرا : « احمد الله ، فمنذ كنت اسيرك وخلال عشر سنوات كاملة لم اجلد ولو مرة واحدة » •

وعندما تفوه بهذه الكلمة ، اصدر الداي امره قائلا : « خذ هذا المسيحي واعطه مائة فلقة على قدميه حتى لا يعود الى بلده ويحكي للناس معجزته ! » •
ولكن المسكين شعر بوقع الصاعقة لهذه الكلمات ورد على الداي قائلا :

« انني الآن رجل حر • وانت ، بالتاكيد ، لن تعاقبني لانني لم ارتكب ذنبا واحدا استحق العقاب عليه في ظرف عشر سنوات » •

وعند ذلك اجاب الداي :

« اعطه مائتي جلده بالعصى ، واذا فتح الكافر فمه بكلمة واحدة اخرى ، ارسله الى الأعمال الشاقة وأخبر الشخص الذي دفع فديته أن في امكانه ان يفتدي أي شخص آخر من جنوه بدلا منه ، سوف أحتفظ به في الأسر حتى يموت من أجل وقاحته » •

وهكذا تلقى المسكين عقابه ثم حمل الى المستشفى حيث عولج مدة من الزمن قبل ان يبحر الى بلده وهو يحمل فكرة عن عدل الداي ورحمته ليست في صالحـــه •

ومع ذلك فان الداي محمد باشا عرف عنه انه اقل جميع دايات الجزائر ظلما واستبدادا •

كتب عن الداي حسن باشا انه كان يعيش دوما في خوف ورعب من الأغتيال • وانا اذكر هنا ان الداي حسن باشا قد خلف الداي محمد باشا لدى وفاة الأخير في سنة 1791 •

اراد حسن باشا ان يغير قميصه عقب اغتيال احد مساعديه فعمد الى قميص كان قد أحضره من تركيا منذ مدة طويلة، وبالتالي ضيق الفتحة، ولبسه• ولما حاول خلعه لم يتمكن من اخراج راسه منه • وعلى الفور استولى عليه الرعب معتقدا انهم وضعوا كيسا حول عنقه تمهيدا لقتله ، فأخرج « يتجانه » من غمده واتجه الى العبد الامريكي الذي كان في الغرفة واوشك أن يقتله لولا أن الاخير

تمكن من الخلاص والهرب مثل بقية من كان حاضرا هناك ، ولما عاد اليه هدوءه أدرك انه لا يوجد أي خطر يهدد حياته وتخلص من القميص الذي أوشك ان يتسبب في مذبحة •

وذات مرة كان أحد حاشيته مصابا بمرض المشي وهو نائـم ، فسمعه الداي واصيب بهلع شديد واستدعى حرسه الذين سارعوا الى ايقاظ الرجل النائم ، ثم عادوا الى الداي ليهدءوا من روعه قائلين ان ما بلغ اسماعه هو حركة غير عادية للقطط (التي كان القصر ممتلئا بها) •

وبعد هذا الحادث ببضعة ليالي ، خشي نفس الشخص أن تعتريه نوبة اخرى من المشي اثناء النوم ويتقابل مع الداي وهو في تلك الحالة ، فعرض القضية على رفيق له واتفقا أن يربطا ساقيهما برباط واحد• وفي منتصف الليل، ازعج الداي واستيقظ من نومه وأخذ يصيح ويستدعي الحرس والحاشية • وقد استيقظ الرجلان مذعورين ونسيا أن رجليهما مربوطتان ونهضا استعدادا لتلقي الاوامر وهما فـي هـذه الحالة ، ولكنهما اضطربا وارتطما برجـل ثالث كـان مسرعا ورميا به على باب غرفة نوم الداي الذي انفتح على مصراعيه ووقـع الرجل على الأرض •

وهذه الحركة وحدها كانت كافية لافزاع الداي الذي استل خنجره وأندفع الى الباب ، ولولا الظلام الدامس الذي تستر المذنبون بجناحه وهربوا ، لوقعت ضحايا للحادث • وأما الشخصان المربوطان أحدهم بالآخر ، فقد نزلا الدرج وحلا رباطهما قبل ان يصل الخدم بالمصباح •

وعلى ضوء المصباح ، شرح رجال الحاشية القضيـة بحذافيرهـا للداي وسكن روعه ، ومع ذلك ، فان الرجلين المذنبين لم ينجوا من العقاب حيث جلدا في اليوم التالي •

كانت حياة العبيد والخدم كلها قلق وبؤس ، وفي كل لحظة قد يتعرض احدهم للجلد أو للأشغال الشاقة والتكبيل بالسلاسل أو للموت ، ونحن يجب أن نتذكر أن الداي يملك السلطة الضرورية لتنفيذ تهديده وحكمه على شخص مهما كان الذنب الذي اقترفه تافها •

والعبيد المسيحيون الذين يعيشون في الاجنحة التي يسكنها الخازنداران يتعرضون لنفس الاهانات التي يتعرض لها العبيد الذين يسهرون على خدمـة الداي ، وكثيرا ما يجلدون لاتفه الامور ، مثـل التحـدث بصـوت مرتفـع ،

والمماطلة في الخدمة ، أو لخروجهم من غرفهم بعد وقت معين ، او للتحدث الى الطباخين أو للعبيد الذين يعملون في الحديقة ، أو لغير ذلك من الاسباب ٠

كثيرا ما سمعت المسيحيين الذين اعتنقوا الاسلام يتحدثون الى العبيد المسيحيين بغطرسة ، ومتى أعوزتهم الحجة ، انهالوا على مخاطبتهم بالضرب والوعيد بدون رحمة ولا شفقة ٠

والطباخون يقومون باعمال اشق ويكسبون أقل من غيرهم من العبيد ، ولكنهم يتمتعون بحرية أكثر ، ومتى كان رئيس الطباخين رجلا طيبا ، مثل الذي كان يشغل هذا المكان اثناء اقامتي في القصر فان وضعيته تكون مريحة أكثر من غيره ٠

لم يحدث أي شيء ذو بال اثناء الشهرين اللذين كنت أعمل خلالهما في الحديقة ، فقد كنا نرعى الحيوانات الوحشية بالتناوب ونقوم بغير ذلك من الواجبات التي نؤمر بالقيام بها بدون تذمر ، ومع ذلك ، فقد كان الخازندار يشتمنا على الاقل مرة أو مرتين في اليوم حينما ياتي للوضوء ، بل ان البعض منا جلدوا بدون أي ذنب ارتكبوه بل لمجرد نزوة عابرة ٠

ولما كنت أحسن الفرنسية والاسبانية ، فقد كنت اشغل وقت فراغي بقراءة ما يقع في يدي من الكتب التي كتبت بهاتين اللغتين ، مستعيرا اياها من زملائي العبيد ٠ وكذلك كنت أقضي بعض الوقت في الكتابة وفي تعليم بعض زملائي الطرق العملية للملاحة البحرية ٠ وهذا النشاط كان موضع السخرية لدى الخازندارين اللذين أطلقا علي عدة ألقاب بقصد اهانتي ، مثل « المعلم » و « القسيس الزائف » الخ ، وهي القاب لم تلبث أن انتشرت في الطبقة السفلى من الخدم والعبيد المسيحيين وعلقت بي ولم يكن هناك مجال للتخلص منها الا بمحاولة الاحتجاج الذي كثيرا ما يؤدي الى جدل ونقاش ٠

وهكذا لم يمض وقت طويل حتى وجدت نفسي محاطا بكثير من الأعداء الذين كان على رأسهم الخازندار سيدي علي الذي ظل يضطهدني ويهينني طيلة مدة اقامتي في القصر ، قبل أن يطرده الداي حسن باشا من الجزائر ٠

وبعد مضي نحو شهرين من تكليفي بالعمل في حديقة القصر ، سمح للعبيد بالخروج الى المدينة بمناسبة عيد الاضحى الذي احتفل به في القصر بالمآدب والموسيقى ومباريات المصارعة والصواريخ والمفرقعات الرديئة الصنع والتي تشعل عند الباب الخارجي للقصر ٠

وفي صباح اليوم الأول من العيد ، رفع العلم التركي على القصر ورفع العلم الجزائري على التحصينات ، واطلقت مدافع التحصينات نيرانها ، والمدافع المسددة الى البحر قذائفها احتفالا بهذه المناسبة الوطنية .

وبعد مباريات المصارعة ، جاء كبار الموظفين والأعيان الى قاعة الاستقبال حيث كان الداي جالسا على العرش لتقبيل يده، بينما كان الخزنجي وخوجه بيت المال ووزير البحرية واقفين على يساره وبقية موظفي القصر من ذوي الرتب الأقل يقفون وراءهم .

وبعد هؤلاء جاء دور غيرهم ، ومن بينهم الجلاد ورئيس الزبالين ، ثم دور القناصل الذين « تشرفوا » هم ايضا بتقبل اليد ، وأخيرا ، حضر رئيس الكتاب وشيخ الطائفة اليهودية وسماسرة القصر وغيرهم ، وعقب حفلة الاستقبال ، استدعي الداي خمسة من العظماء لتناول طعام الغداء على مائدته في جناحه الخاص ، وانضم اليهم رئيس الطباخين .

وبانتهاء الغداء استأذن الضيوف وعاد كل واحد منهم الى منزله ، بينما قصد الداي الى جناح زوجته .

واليوم الثاني للعيد هو يوم عطلة العبيد . واليوم الثالث للعيد يحتفل به مثل اليوم الأول ، وذلك فيما عدا اطلاق الصواريخ والمدافع وفيما عدا معايدة القناصل .

وقناصل بريطانيا وفرنسا اللذان يتحرجان من الانتظار لاستقبال الداي لهما في اليوم الاول ، جرى كل منهما على القيام بالمعيادة في اليوم السابق للعيد ، وكلاهما لا يقبل يد الداي .

وفي اليوم الثاني من العيد سمح لنا باذن خاص بزيارة مواطنينا في القنصلية البريطانية التي تبعد نحو ثلاثة اميال عن المدينة وهناك ، وجدنا القبطان اوبراين ، وكلنا دهشة واستغراب ، يمسك بيده مجرفة ويعمل لغرس شجرة في حديقة القنصل ، ورأينا في نفس الوقت ستيفانز ملفوفا في معطف قديم كانت حكومة الايالة قد اعطته اياه ، وهو يقود بغلا محملا بالقاذورات التي تستعمل كسماد للاشجار . واما كوفين الذي يشكو من مرض السل ، فقد كان منهمكا في اعداد الغذاء للدجاج والخنازير .

لم نستطع منع دموعنا المنهمرة ازاء هذه الحالة المهينة التي اثرت في نفوسنا بصفة خاصة ، لان الذي الحق هذا الذل والهوان بقائد البارجة ، هو شخص مسيحي من النبلاء (القنصل البريطاني ينتمي الى نفس العقيدة ويتحدث نفس اللغة ومن نفس الأصل الذي ينتسب اليه اوبراين ، وقد كان من الممكن أن نتوقع منه شيئا من الرحمة والانسانية) •

لم تدم زيارتنا سوى وقت قصير وقد تقاسمنا مع مواطنينا المال الذي منح لنا في القصر بمناسبة العيد ثم عدنا ادراجنا الى المدينة حيث قمنا بزيارة لزملائنا في السجن واستلفنا بعض المال لنساعدهم به ثم رجعنا الى القصر بقلوب ملؤها الألم والحسرة •

وهناك في القصر سابقى عشرة أشهر كاملة قبل أن يؤذن لي بالخروج مرة ثانية الى المدينة ، وكان خروجي الى الميناء حيث أرسلت نتيجة لوصول بعض الشبان الهولنديين الذين اسروا على متن سفينة روسية أخذت غنيمة •

لم يكد يمر وقت يذكر بعد بداية عملي في الحديقة قبل ان يصبح اضطهاد الخازندار لي أمرا غير محتمل ، فقد منعني من القراءة والكتابة ولم أكن أقرا او أكتب الا خلسة ، كما حرم على التحدث الى أي واحد من مواطني الذين يعملون في أجنحة أخرى من القصر • وقد كان ذلك نتيجة لاقوال نقلت عني بأن الأسرى الذين يعتنقون الاسلام انما يقومون بذلك ويتركون دينهم لا عن اقتناع أو فهم للدين الاسلامي ، بل طمعا وتزلفا لأولياء الأمر الذين يحملونهم بنفاقهم على الاعتقاد بأنهم أدركوا أنهم على ضلال وعادوا الى الطريق المستقيم•

نقلت هذه الاقوال عني الى سيدي على وسيدي محمد (وكلاهما كان مسيحي ينتمي الى الكنيسة اليونانية واعتنق الاسلام) ولربما بلغتهما مع بعض الزيادات ، وبعد ذلك أصبحا الد أعدائي •

كان الحرمان الذي فرض علي (ولا سيما فيما يتعلق بالقراءة والكتابة) قد أحدث في نفسي أثرا عميقا ، ونظرا لأنني لم أعد أجد ما يشغل قواي العقلية، فقد أصبحت ضحية للملنخوليا ونهبا للانقباض والحزن العميق ، مما اضطرني في نهاية الامر الى ملازمة فراشي •

وعقب ذلك ، نقلت الى المستشفى حيث وجدت عناية طيبة من أحد الاطباء الاسبان ، مما جعلني استرد صحتي في وقت عاجل •

وفي غضون المدة التي اقمتها في المستشفى كان البرتغاليون والاسبان الذين يعملون فيه يلحون علي الحاحا كبيرا ويطلبون مني أن أغير عقيدتي واعود الى حضن العقيدة الصحيحة (الكاثوليكية) في الكنيسة • وهناك التقيت بشيخ يعمل في الحديقة مدة تسعة عشر عاما وكان قد عرف حياة أفضل • وهذا الشيخ أبدى اهتماما خاصا بمصير روحي في الآخرة • وقد عرض علي بكل سخاء أن يتحمل على عاتقه جميع ذنوبي أمام الله وان يضمن عفوه وغفرانه أي عن جميع سيئاتي في هذا العالم وفي العالم الآخر على السواء• ولكنه اضاف قائلا انني اذا مت في حالة الهرطقة الحالية ، فانني سأذهب مباشرة الى الجحيم حيث سينزل بي العذاب الأبدي •

كان حرص هؤلاء الناس على تغيير ديني لأعتنق المذهب الكاثوليكي بحيث انني لو اعلنت رغبتي في ذلك لجمعوا لي من المال ما يكفي لشراء خلاصي •
كانت قد مرت على أسري أربعة أشهر حينما سمعت ضجيجا عاليا في الحديقة ، ولما دفعني الفضول الى استجلاء حقيقة الأمر ، وجدت لدهشتي الكبيرة الخازندارين منهمكين في عملية للتسلية بضرب عبد برتغالي بالفلقة على قدميه ، وكان الرجل يصيح من الألم كالملسوع •

سألت عن السبب الذي استحق البرتغالي من أجله هذا العقاب ولكنني لم أتلق جوابا • وبدلا من الجواب هجم علي أربعة أشخاص أقوياء البنية واستحوذوا علي ثم قيدوا رجلي ويدي وشرعوا في نفس اللعبة مع رجلي وتلقيت ثمانية وعشرين ضربة أحدثت ألما لم أكن أتصور مثله من قبل وقد خرجت من هذه العملية بعدما تركت فيها أربعة من أظافر أصابع قدمي • وهذا كان أيضا مصير جميع زملائي الذين يعملون في الحديقة بدون استثناء ولا مراعاة للمرضى والمقعدين والمسنين منهم ، وكذلك ضرب بالفلقة رجل في الستين من العمر وأطفال لا تزيد أعمارهم عن عشر سنوات دون أن يعرف أحدهم ما هو الذنب الذي أرتكبه واستحق من أجله هذا العقاب •

وبعد مرور بضعة أيام على هذه العملية ، عرفنا اننا مدينون بهذه « الحفلة » لرئيس الجنائنيين ، وهو رجل مالطي • يبدو ان هذا الرجل قدم شكوى قال فيها اننا لا نخضع لأوامره بما فيه الكفاية وأننا نأكل من فواكه الحديقة المحفوظة لاستعمال الداي وحده ، كما وجه الينا تهما اخرى تافهة • ولما لم يجد أسماء المذنبين بيننا ، فقد رأى الخازندران أن في تعميم العقاب فائدة • وأما مسألة انزال العقاب بالابرياء الذين لم يرتكبوا ذنبا ، فهي مسألة تافهة ولا تستحق أن يتوقف عندها الخازنداران •

وبعد هذا الحادث جلدت مرتين اخريين اثناء اقامتي في قصر الداي ، مرة لانهم فاجئوني وأنا أكتب ، ومرة لانني كنت اتحدث مع اثنين من الامريكيين الذين كانوا يعملون في الجناح الاعلى ، وفي العملية الاخيرة شمل العقاب سبعة أو ثمانية اشخاص ٠

كان رفيقي ، وهو يافع بسيط من بين هؤلاء ، وقد ملأ الحادث نفسه الحساسية بالرعب وتاثر عقله بهذا العقاب بحيث كانت هذه هي الخطوة الاولى في طريق اصابته بالجنون ٠ وهذا الأمر سأتعرض له بالتفصيل فيما بعد ٠

لقد كان من المستحيل أن أتحمل كل ما كان يساورني من القلق وما كنت أتعرض له من الاهانة لولا ثقتي الكاملة في سخاء بلدي ولولا اعتقادي بانه سوف يفديني وينقذني من آلام العبودية وقد كان يبدو لي ان من المستحيل على بلد لم يكد يخرج من قيود الاستعباد والاستعمار ان يترك رجالا حاربوا من آجل استقلاله في أغلال العبودية في بلاد البربر في الوقت الذي يمكن فيه شراء حريتهم بفدية لا تتجاوز مبلغ 50000 دولار ٠

انني لا أجهل العقبات التي كانت تواجهها حكومتنا قبل اعتماد الدستور الحالي (الدستور الفيدرالي) ، ومع ذلك ، فان اعتماد سياسة لفدية المواطنين في الحال تبدو لي ضرورة واضحة ٠ وهذا التحليل أكد ثقتي وأملي على الرغم من معرفتي أن الخزينة الأمريكية كانت شبه فارغة في تلك الآونة ٠ وقد كنت من السذاجة بحيث اعتقدت أن الحكومة سوف تقوم باستلاف المبلغ المطلوب في الحال ، وانه اذا لم تفعل ، فسوف يقوم بعض المواطنين بجمع تبرعات لهذه الغاية ، ولكن هذا التحايل لم يكن يأخذ الى الاعتبار موقف « مستضيفي » الذي أقمت في كنفه عشر سنوات اذاقني خلالها من الهوان وذل العبودية ما يجعل حياة المسيحي كلها بؤسا وشقاء ٠ وأنا استطيع أن اؤكد أنه ما من طبقة من الناس أصابها الألم والعذاب في الثورة الأمريكية مثل ما أصاب الأمريكيين الذين أسرهم الجزائريون في سنة 1785 م ٠

كان تقدم سن الداي محمد باشا حائلا دون قيامه بزيارة جميع أجنحة القصر في أوقات متقاربة كما كان يفعل قبل ذلك ، فهو لم يعد يغشى الحمام في الحديقة سوى مرة في الشهر ، وهو يحضر دائما قبل طلوع الشمس ٠ ولما تخلص الخازندران من الخوف من تقديم العبيد شكاوي للداي ضد تعسفهما وطغيانهما امعنا في اضطهادهما وتعذيبهما للعبيد ، بحيث كان الواحد منهما لا ينزل الى الحديقة دون أن يحمل عصى في يده ، وقلما يخرج منها دون أن يستعملها في جسم احد العبيد التعساء ، وقد كنت انا الضحية المفضلة

لغضبهما وتعسفهما . كان لديهما مدفعان صغيران مصنوعان من النحاس وكانا يتسليان باطلاقهما على هدف معين ، ومتى فشل احدهما في اصابة الهدف ، فويل للعبد الذي يجده على مقربة منه ٠

ولاتمام تعذيبي ، كان الخازندار سيد محمد مولعا بالخيمياء التي تستهدف تحويل المعادن الى ذهب ، وقد عينني مساعدا له ٠ ولكنه لما سألني ذات مرة رأيي في هذا العلم اجبته صراحة بانه علم لا يستحق سوى السخرية والازدراء ٠ وقلت له في احدى المناسبات ان الأمبراطور الروماني كاليجولا كان اول من حاول تحويل الزرنيخ الى ذهب ، ولكنه تخلى عن هذه المحاولة في الوقت الملائم ، كما تخلى الكثيرون بعده عن محاولات مماثلة لكي يتجنبوا الأفلاس والخراب بالنظر الى أن تكاليف هذه العمليات تفوق ما قد تسفر عنه من الأرباح لو نجحت ٠ وقد ذكرت له عدة قصص في هذا السياق ولكن ملاحظاتي لم يكن لها أي تأثير على ميوله الصبيانية. فاستمر على معالجة كل قطعة معدنية تقع في يده وكان يوجه الي الحديث اثناء العمليات بكل ازدراء واحتقار ٠

وفي نهاية الأمر ، فهم أنني أعرف شيئا في هذا الفن ، فأخذ يخفف من قسوة معاملته وازدرائه لي ، قبل أن ينزل الى درجة التملق والمحاباة لكي يحملني على كشف اسرار الخيمياء له ، فتحول من عدو لدود الى صديق مؤقت ، محاولا بذلك اسكات ضميري ٠

ولكن الحقيقة هي أنني أحتقر هذا الرجل الذي استغل سلطته يوميا ليهينني بلا رحمة ولا انسانية بل ببساطة لانه يستطيع ذلك دون عقاب ٠

ومن الطريف أن سيدي علي (الخازندار الآخر) كان هو أيضا يرى أن فن الخيمياء لا يستحق سوى السخرية وأن حجر الفلاسفة أضحوكة كبيرة . وذات يوم نزل الى الحديقة وكان مزاجه رائقا ، فصاح :

« هل القس المزيف يعمل هو أيضا لصنع الذهب ؟ لو عرف الداي بهذا الأمر لما قبل فديته قبل أن يحول كل أداة للطبخ في القصر الى ذهب ابريز ! »٠

وقد أجبته قائلا انني ، يا سيدي ، أبعد ما أكون عن ادعاء أي علم بهذا الفن الرفيع ، وانني قرأت في بعض الكتب أن العرب هم الذين يفترض أنهم اخترعوا هذا الفن، وقد حذا حذوهم واقتفى أثرهم الفيلسوف الاسباني ريمون لاليوس وباراسيلوس وغيرهما من الاوروبيين ، ولكن العمليات والابحاث التي قاموا بها لم تسفر قط على نتيجة سوى

الرماد في الافــــران التـــي استعملوهـــا والندم والحسرة فــــي قلوبهم . وعدد الذين أفلسوا نتيجة لمارستهم لهذا العلم الطفيلي كثير بحيث اصبح الأن مهملا تماما · والمؤلفون الذين يكتبون عن حجر الفلاسفة أصبحوا عرضـــة لاسخرية بحيث انهم يعتبرون كانهم يحاولون تربيـــع الدائرة ، ان حجــر الفلاسفة قد استلفت نظر الفلاسفة والعلماء منذ أقدم العصور وقامت حوله حركة دائمة لا يستقر لها قرار ولكن بدون جدوى · ومع احترامــي لـــراي سيدي محمد المتفوق ، فهل من المعقول أن ينجح هو بالمساعدة التي يستخلصها من أوراق من الكتب العربية القديمة وببوتقة صغيرة وفرن صغير في مهمة فشل فيها العديد من العلماء والفلاسفة الذين كرسوا لها كل حياتهم ، وكانت تتوفر لديهم جميع الوسائل التي يسمح بها امتلاك ثروة طائلة ، وعرضوا أنفسهم للافلاس والخراب ؟

أجاب سيدي علي وهو يضحك قائلا :

« نعم ، ولكنهم لم يكونوا يملكون ما يملكه سيدي محمد من انــــواع السحر ! » ·

ـ « ذلك ممكن يا سيدي ، ولكن أسهل عليه أن يجعل مني بسحره مسلما طيبا من أن يحول ما في تلك البوتقة الى ذهب ابريز ! » ·

ـ « أنت أيها القسيس المزيف ، ولو أنك كافر عنيد ! انني أعرف ان جعلك مسلما طيبا أمر مستحيل ، لانه كتب عليك أن تكون نار جهنم مأواك أبد الآبدين » ·

وبعدما تفوه بهذه الكلمات ضرب البوتقة برجله وانصرف سيدي محمد مع سيدي علي الذي كان يضحك ضحكة عميقــة ، بينما كان سيــدي محمد يتمتم بكلمات باللغة التركية لم أفهم معناها ·

وطيلة المدة التي أقمتها بعد ذلك في قصر الداي ، لم يرد قط ذكر لحجر الفلاسفة في المحادثات كما أن معاملتي لم تزداد سوءا ولم تكن أفضل أو أسوأ من معاملة غيري من الأسرى ، ولكنه من الحق أن هذه المعاملة سيئة بما يكفي وبما يشفي غليل الخيميائي الأغريقي ·

لقد اقترب الآن الوقت الذي يوضع فيه حد لآلامي في القصر ولأفتـــح صفحة لأنواع جديدة من الاهانات ، فقد وصلت الى ميناء الجزائر سفينتان كبيرتان احداهما روسية والأخرى تابعة لملكة لوغورن ، كانت البـــوارج

الجزائرية قد اسرتهما وكان على متنهما عدد من الشبان الذين يفيضون جمالا وحيوية ، وقد اخذ اجملهم ، وهم ثمانية الى القصر بينما القي بالقبيح منهم في سجن للعبيد اسمه (بانبوبليك) ومن هناك سوف يحولون في اليوم التالي الى الاشغال الشاقة ، وقد كنت انا من بين الطبقة الاخيرة مع رفيقي الأمريكي الذي سبق ذكره ٠

ونظرا لأننا لم نرتكب اية جريمة او ذنب نستحق من اجله هذا العقاب ، فاننا لم نجرد من ملابسنا ، كما تقضي التقاليد بل سمح لنا بحمل جميع امتعتنا معنا ٠

وبهذا التحول في حياة العبودية تنتهي سنة منذ أن وقعت في الأسر ، ونظرا لأنني افتتح السنة الثانية بمناظر جديدة من الهوان والعذاب فانني اختتم هذا الفصل لاقدم تفاصيل ضافية في الفصل التالي عن مفاوضات المستر لامب مع حكومة الأيالة ، تلك المفاوضات التي كانت شديدة الضرر بالروح المعنوية في الأسرى من حيث انها كانت تغذي في نفوسهم أملا خداعا في الحصول على حريتهم سريعا وتحول دون بذل أصدقائهم مساعي لجمع المال لفديتهم ٠ وبتلويحه بأمل لا يوجد ما يسوغه للداي ، عرض شرف امريكا وكرامتها للخطر من حيث أنه جعل الداي والنبلاء في البلد يعتقدون أن حكومة الولايات المتحدة تتلاعب معهم ، وكذلك حالت تصرفاته دون وضع الحكومة الجزائرية ثقتها بصراحة في مفاوضات للسلام فيما بعد ، وذلك لأن الارتباط بالعهود والمواثيق بين الحكومات المتعاقدة يجب أن تسوده دائما روح من الثقة والرغبة المشتركة في تطبيق البنود التي يتم الاتفاق عليها ، ولا سيما حينما تكون المسافة التي تفصل بينهما شاسعة ، كما هي الحالة بين الولايات المتحدة ودول المغرب ٠

★ ★

★

الفصـــل الثالـــث

وصل المستر جون لامب (J. lamb)[.] سفير الولايات المتحدة المفوض والمستر راندال (Randal)[.] كاتبه الى الجزائر على متن سفينة اسبانية يقودها القبطان بازليني في يوم 25 من شهر مارس 1786 · كان جون لامب يحمل توصيات من الكونت ايكسبيلي سفير ملك اسبانيا ومن المسيو دو كيرسي القنصل العام لفرنسا ومن تاجر بريطاني كبير اسمه جون ولف كان على خبرة واسعة بشئون بلاد المغرب ويعرف جيدا أساليب المعاملات مع أيالة الجزائر ·

والجدير بالملاحظة أن السفير الأمريكي كان يحمل توصيات الى قناصل في الجزائر يمثلون دولا كانت مصالحها تتعارض تماما مع المصالح الأمريكية· والمرجح أن مصالح تلك الدول جميعا لا تلتقي الا عند نقطة واحدة ، وهي محاولة منع الولايات المتحدة من الحصول على معاهدة السلام مع دول المغرب·

فان فرنسا كانت منذ مدة طويلة تحتكر التجارة مع دول المغرب وقد أقامت عدة مصانع على شواطئ تلك البلاد · وكذلك تمكنت الشركة الأفريقية (الفرنسية) والغرفة التجارية في مرسيليا ووكلاء الحكومة الفرنسية بواسطة المناورات والمؤامرات من احباط مساعي عدد من السفراء الذين أرسلتهم قبل ذلك اسبانيا وحلفاؤها للتفاوض مع الجزائر ، فقد كانت غيرة أولئك جميعا شديدة ورغبتها قوية في المحافظة على الأمتيازات التي تتمتع بها ، وعلى الاحتكار الذي تراه غير قابل للتجزئة والذي يتناول عددا من المنتجات · وهي تدفع في مقابل ذلك مبالغ من المال للحكومة ومبالغ اخرى تقدمها الحكومة الفرنسية على سبيل الهدايا للداي ولحاشيته وللشخصيات الكبيرة مرة في السنة ·

والهدايا التي تقدم تشمل انواعا من اللحوم والفواكه المحفوظة والطازجة والمربى والمخللات وسمك الانشوفة والزيتون والكحول والمشروبات الروحية وغير المسكرة والكستناء والتفاح والاجاص وغير ذلك من المسليات التي يعرف الفرنسيون كيف يجعلون أنفسهم مقبولين لدى الغير بواسطتها ·

وهذه الهدايا تقدم عادة في شهر ديسمبر · وقد أصبح تقديم الهدايا عادة في الأعوام الأخيرة الى درجة انه متى تاخر وصولها قلق الذين يتلقونها وراحوا يطالبون بها كما يطالب الانسان بحق مشروع ثابت له · وستستمر مضايقة القنصل بهذه المطالب حتى تصل الهدايا الى اصحابها ويعود كل شيء الى طبيعته ·

ونحن نسوق هذا المثال لكي ندلل على الخطر الذي يتربص بكل من يحاول التجديد والخروج عن طريق العادة والتقاليد المتبعة · والى جانب الهدايا التي يقدمها القناصل للداي باسم حكوماتهم مرة في كل سنتين يحتاجون أيضا الى تقديم هدايا في مناسبات اخرى (حينما يرغب في الحصول - مثلا - على رخصة لشحن سفينة بالقمح) ·

ومتى قدم القنصل على سبيل الهدية ساعة أو صندوقا للسعوط ، فالمنتظر أن تكون هديته المقبلة على الأقل على نفس المستوى · وهكذا ارتفعت درجة بعد درجة مع مرور الزمن قيمة الهدايا التي كان يقدمها القناصل سنويا من مبالغ ليست ذات بال لتصبح باهضة التكاليف في الوقت الحاضر · والمفترض أن هذا التصاعد يعود الى جشع الحكومة الجزائرية ، ولكن سببه في الحقيقة يعود الى تنافس القناصل على الحظوة · ولهذا الاعتبار ، منعت الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية والحكومة الاسبانية قناصلها من ممارسة التجارة ، وأصبحت ، في مقابل ذلك ، تدفع لهم مرتبات ملائمة تسمح لهم بالمحافظة على كرامتهم بوصفهم ممثلين لدولهم · وحتى تقوم الولايات المتحدة بانتهاج نفس الخطة فستظل دائمة عرضة للاهانة وللغرامة·

وعلى ضوء هذه الاعتبارات كلها ، لا يمكن أن يفترض استعداد وكلاء الحكومة الفرنسية لمساعدة دولة تجارية نشيطة ومشاركتها تجارة البحر الأبيض المتوسط بالتاثير على مجرى مفاوضات السلام مع دول المغرب ، وذلك على الرغم من أن المعاهدة المعقودة بيننا وبين فرنسا تنص على ذلك · فان تقديم الوكيل أو القنصل الفرنسي لهذه المساعدة أمر من شانه أن يضر بمصالح الجماعة الفرنسية التي ينتمي هو اليها ·

والسفير الاسباني ليس في وسعه أن يقدم أية مساعدة للولايات المتحدة في هذا المجال حتى لو تجاهل مصالح بلده وحاول ذلك ، وحتى الآن كان يقف في وجه وكلاء فرنسا بالاسراف الذي كان يبذر به اموال ملك اسبانيا . والواقع أنه قام ببذل مجهود اكبر مما كان متوقعا منه من أجل تحرير الأسرى الأمريكيين ، ولكنه اصطدم في مساعيه بعقبة لا سبيل الى التغلب عليها ، وذلك أن الداي قد ألح على ضرورة قيام اسبانيا بتسليمه حصن وهران بعد ترميمه واعادته الى حالته السابقة ، وهو أمر لم يكن في استطاعة الأسبان القيام به ، كما أن البلاط الاسباني لا يمكنه أن يعير التفاته لمثل هذه المطالب ، وكان قد سبق منذ عدة سنوات أن رفض طلبا مماثلا تقدم به سلطان المغرب ويتعلق بمليلة وسبتة وغيرهما من المواقع العسكرية التي تحتلها اسبانيا على ساحل المغرب الأقصى .

فشل جون ولف في ترشيح نفسه لشغل منصب كل من قنصل اسبانيا وانجلترا في الجزائر ، وذلك على الرغم من انه يتمتع بجميع المؤهلات الضرورية لذلك ، كان ولف قد استقر في طرابلس الغرب حيث كان يزاول التجارة وتزوج بالآنسة أبلجاث ثم انتقل من طرابلس الى الجزائر في سنة 1779 ، حيث عين قائما باعمال القنصلية البريطانية التي كان منصب القنصل شاغرا فيها . ولكنه ، مثل كثير من ذوي الجدارة الذين اضطرتهم أعمالهم الى التغيب طويلا عن وطنهم لم يستطع أن يمارس نفوذا ويثير اهتماما كافيا لتعيينه في ذلك المنصب . وبدلا منه عين قنصلا لبريطانيا في الجزائر المستر لوجي الذي تولى مهام أعماله في سنة 1785 . واثر ذلك قامت بعض النزاعات بين الرجلين بحيث أصبح كل منهما يعتبر الآخر منافسا له. ومن جهته ، لم يدخر المستر لوجي وسعا في اهانة المستر ولف واسرته ، كلما استطاع أن يفعل ذلك ويفلت من العقاب .

وهذه الأحداث جعلت من المستر ولف شخصية تتمتع بالكفاءة لاستخدامه للتفاوض باسم الولايات المتحدة مع حكومة الأيالة بشأن فدية الأسرى الأمريكيين ، فهو يعرف تقاليد الحكومة الجزائرية وعاداتها واساليبها كما يعرف لغة البلد ويتمتع بحظوة لدى الداي ، وبالتالي ، فهو ليس في حاجة الى استخدام الوسائط .

ونظرا لأنه فشل في تعيينه قنصلا لاسبانيا وبريطانيا ، فقد كان من المرجح أن يرشح نفسه لتعيينه قنصلا للولايات المتحدة مكافأة له على الجهود التي يبذلها في مفاوضات السلام ، الأمر الذي كان من شانه أن يحفزه الى

مضاعفة جهوده في خدمة الولايات المتحدة ، ولا سيما وانه رجل لا يمكن ان تؤثر عليه مصالحه الشخصية أو المصالح القومية ، بل على العكس من ذلك ، فان مصالحه تتفق مع مصالحنا ٠

ولما كان على يقين من ان الحصول على معاهدة السلام مع الأيالة امر غير ممكن في الظروف الحاضرة ، فقد نصح المستر لامب أن يبذل قصارى جهده لفدية الأسرى في المرحلة الأولى ، في الوقت الذي يقوم فيه باستمالة رؤساء الأيالة لحملهم على التوسط لدى الداي للحصول على أفضل الشروط الممكنة على ضوء ميوله القوية لبريطانيا ، وهو هدف لا يمكن الحصول عليه الا بتقديم هدية مهمة للداي ، بالاضافة الى الهدايا التي تقدم لكبار الوسطاء ٠

ولكن المستر لامب لم يزود بالوسائل التي تسمح له بشراء تلك الهدايا في الحال ، وقد نصحه المستر ولف بانه سيكون من الحكمة أن يؤجل ابلاغ الداي بانه مفوض لاجراء محادثات بشأن الشروط التي يمكن عقد معاهـــدة السلم على أساسها ، وذلك حتى يعـود بالمـال الضــروري لفديـة الأسرى الأمريكيين ٠

ولكن الكونت ايكسبيلي والمسيو دو كيرسي (Du Kercey) كان لهما رأي آخر مؤداه أن الولايات المتحدة ليست في وضع يسمح لها بانفاق مبالغ كبيرة من المال لرشوة الوزارة الجزائرية كما صنعت اسبانيا من قبل ٠ ولذلك ، فقد نصحا المستر لامب بان يبلغ الداي خبر تفويضه في الحال ، حيث أن هذه الطريقة أقل تكاليف ، ولو أنها لا تضمن النجاح دائما ٠

وهكذا أخذ المستر لامب بنصيحتهما وترجاهما أن يقوما بمسعى لـــدى الداي ليطلبا اليه أن يسمح للمبعوث الأمريكي بتقديم أوراق اعتماده التـــي يحملها من حكومة الولايات المتحـدة الأمريكيـة ولاستقباله بوصفـه سفيرا مفوضا من قبلها لاجراء مفاوضات معه لعقد معاهدة السلام بين البلدين ٠ ولكنهما رفضا رفضا باتا القيـام بهـذا المسعـــى ، وهـو دليل قاطع علـى تصميمهما على (عدم) استخدام نفوذهما في صالحنا ٠ وبعد مناقشات ، قررا في نفس المساء ارسال مترجم القنصلية الفرنسية الى القصر (وقد لقن ما يقوله في هذه المناسبة مسبقا) لكي يقدم الى الداي طلب المبعوث الأمريكي٠

عاد المترجم ليخبر السفير الأمريكي بان سعادة الداي سوف يبلغه رده في ظرف بضعة أيام بعدما يدرس اقتراحه ويتأمل فيه ٠

ولما لم يتلق السفير الأمريكي اي رد من الداي في يوم 27 مارس ، ارسل مترجم القنصلية الفرنسية من جديد الى القصر لطلب رد من سعادة الداي بأن يمنحه مقابلة خاصة تسمح لـه بالتأكد مـن معرفـة الشروط التي يقبل سعادته على اساسها عقد معاهدة سلام بين الجزائر والولايات المتحدة ويتفق معـه على المبالغ المطـلوبة لفدية الاسرى الامريكيين الذين يوجدون في حوزة الجزائر حاليا ٠

وقد أجاب الداي قائلا انه توجد عقبات كثيرة لا بد من ازالتها قبل أن يتمكن من استقبال السفير الأمريكي للمباحثة معه في شأن معاهدة السلام ، ولكنه اذا كان السفير الأمريكي سيقتنع بالتفاوض مع أجل فدية الأســـرى الأمريكيين ، فسوف يتمكن من استقباله في ظرف بضعة أيام ٠

وفي غرة أبريل 1786 ، استقبل الداي المستر لامب الذي قدمه اليه المسيو دو كيرسي والمستر ولف ، وفي هذه المقابلة طلب المبعوث الأمريكي الى الداي ان يخبره ما هي المبالغ التي يفرضها لتحرير واحـد وعشرين مـن الأسرى الأمريكيين الذين يوجدون في حوزته ٠

وقد كان جواب الداي انه لا يعتبر الأمريكيين في مستوى أسرى البلاد التي هي في حالة حرب مع الجزائر ، ومن ثم ، فانه يتوقع أن تكون فديتهم اكبر ٠ وأما التفاصيل فسوف يقدمها اليه في المقابلة التـي سيمنحهـا أياه يوم الغـد ٠

وفي يوم 3 من نفس الشهر ، استقبل الداي المستر لامب وساله ما هو المبلغ الذي يريد عرضه لفدية مواطنيه ٠

وقد رد عليه الداي قائلا : « انـك تستطيـع تحريـر مواطنيك بمبلـغ 50000 دولار ، اذا كنت ترى ذلك ملائما ، ولكنه ليس أقل من هذا المبلغ ٠ فانا غير تواق الى التخلص منهم ، لأن العمل كثير في البحرية ويحتاج اليهم ٠ انهم احسن وافضل ملاحيـن لدينـا ، والسجن يحتفـظ بكثير مـن الخبـز والزيتون لاعالتهم » ٠

عقب المستر لامب على هذا التصريح بان المبلغ المقترح للفدية باهظ جدا وانه يمثل ضعفي المبالغ التي دفعتها أية دولة لفدية ابنائها الذين يوجدون في نفس الوضعية ٠

وكان جواب الداي : « انت حر في أن تتركهم هنا » ٠

واثر ذلك ، وعد السفير الأمريكي بان يقدم رده لسعادته في المقابلة التالية واستأذن للخروج ·

وفي يوم 5 من الشهر قصد المستر لامب الى القصر واثناء مقابلة مع الداي ، عرض أن يدفع مبلغ 30000 دولار لفدية الأسرى الأمريكيين ·

ولكن هذا العرض أغضب الداي الذي شعر أن السفير الأمريكي يفترض انه خليق بالدخول في مساومات كانه يهودي ، ولذلك رد عليه قائلا :

« سوف أسلب الخزينة حقوقها لو تنازلت عن هذا المبلغ بدولار واحد · ولكنه نظرا لأنني استطيع أن أتصرف في حقوقي ، فانني اتنازل عن نسبة 10% التي تؤل الي من هذا المبلغ · ولكنه اذا كان هذا العرض غير مرض لك . فانني أرغب الا يضايقني أحد بعد الآن في هذا الموضوع · فأنا قد سبق لي أن قلت لك ان لدينا كثيرا من الخبز والزيتون لاعالتهم » ·

وعد السفير الأمريكي بان يرد على طلب الداي في غضون بضعة ايام ·

وفي يوم 7 من الشهر استقبل الداي المستر لامب ، ولما لاحظ عناد الداي وتصلبه في موقفه ، وافق على دفع المبلغ الذي حدده الأخير لفدية الأسرى ، ولكنه أوضح أنه نظرا لبعد المسافة بين الجزائر والولايات المتحدة ، فانه لا يستطيع أن يعد بدفع المبلغ في ظرف أقل من أربعة أشهر بعد عودته الى بلده·

وقد أجابه الداي قائلا انه « كلما أسرع في دفع المبلغ ، كان حصوله على أسراه أسرع » ·

خرج المستر لامب من القصر واتجه الى منزل القنصل الفرنسي حيث وجه اليه الداي ترجمانه بعد وقت قصير ليستدعيه للحضور الى القصر ·

سار السفير الأمريكي مباشرة الى القصر واستقبله الداي الذي ساله عما اذا كان راضيا كل الرضى عن الاتفاق الذي توصل اليه معه ·

وقد رد السفير قائلا : « لو كانت شروط الاتفاق أقل شدة ، لكانت غبطتي اكبر ، ومع ذلك ، فأنا قد صادقت على الاتفاق وآمل أن سعادتك سوف تكون على استعداد لان تنصت ، نتيجة لذلك، باذن صاغية لاقتراحات الولايات المتحدة لعقد معاهدة السلام عقب عودتي بالمبالغ المطلوبة »

فكان جواب الداي : « اعقد صلحا مع والدك ، ملك انجلترا ، ثم عد الي لاعقد معاهدة سلام معك » .

وبعد ذلك ، أمر الداي عثمان خوجة (الكاتب الأول) بان يسجل في دفاتر الدولة أن الولايات المتحدة الأمريكية قد وافقت على دفع مبلغ 48300 دولارا اسبانيا لفدية 21 أسيرا أمريكيا وأن السفير الامريكي قد وعد بان يعود حاملا معه المبلغ في ظرف أربعة أشهر ، بعد رحيله عن الجزائر .

ودع السفير لامب الداي وعاد أدراجه الى القنصلية الفرنسية . وقد ظل الاتفاق حديث الساعة عدة أيام بعد ذلك .

وأما الاسرى الامريكيون فقد انتعشت روحهم المعنوية وقرروا أن يلوذوا بالصبر والتحمل مدة أربعة أشهر اخرى في قيود العبودية .

وفيما يتعلق بالحصول على معاهدة السلام ، لم تكن تبدو في الافق بارقة أمل في الوقت الحاضر . ومع ذلك ، فان المستر ولف قد صمم على أن يحاول بجميع الوسائل التي يمكن تبريرها لتمهيد الطريق لعقد معاهدة بمجرد عودة المستر لامب الى الجزائر . وكذلك نصح السفير الامريكي أن يقوم بزيارة المدير العام للبحرية قبل سفره حيث انه يتمتع بنفوذ قوي لدى الداي ، وأن يحاول الحصول على مساعيه لفائدة قضيتنا .

ولهذه الغاية قام المستر لامب بزيارة مدير البحرية في منزله وقدمه له القبطان بازليني . وهذه المقابلة لم ير أحد من الشخصيات التي حمل توصيات اليها الاشتراك فيها .

ترجى السفير المدير العام للبحرية أن يتوسط لدى الداي لصالح الولايات المتحدة ، فكان جوابه أن أمريكا قد اختارت وقتا غير ملائم للمطالبة بعقد السلم ، حيث أن اسبانيا لم تنته قضيتها بعد مع الايالة ، وأن رعايا هذا البلد لا يزالون في قيد الاسر ، وأن الانسان لا يستطيع أن يتكهن أي منعطف قد تسير فيه هذه القضية قبل أن تسوى نهائيا ، وأن الحكومة الجزائرية تسير على قاعدة ثابتة وهي أنها لا تدخل أبدا في مفاوضات مع دولتين في وقت واحد .

وقال انه ، بالاضافة الى الأسباب المتقدمة توجد لدى الداي أسباب خاصة تحمله على عدم الاعتراف بصلاحياته للتفاوض في الوقت الحاضر .

واما فيما يخصه هو شخصيا ، فان لديه ميولا طيبة للولايات المتحدة ، ولكن السفير الامريكي لا يمكن ان يخفى عليه انه من غير اللائم ، ومن غير المجدي أن يتدخل في القضية بعد الرد السلبي القاطع الذي تلقاه من الداي .

وهكذا غادر المبعوث الأمريكي لامب الجزائر دون ان يبحث عن اية وساطة اخرى في القضية ، وترك الأسرى وكلهم امل في ان يعود ، وهو يحمل معه اموال فديتهم ، في ظرف اربعة اشهر . ولكن خيال هؤلاء المساكين لم يمكنه أن يتصور قط انهم سوف يبقون في قيد العبودية ، لا اشهرا معدودة، بل عشر سنوات كاملة ، بعد ما رهن شرف بلادهم .

لم تكن لدي في هذا الوقت معلومات عمن اعطى التفويض للمستر لامب لاجراء مفاوضات مع الداي ، بل لم أكن على يقين من انه يحمل اي تفويض على الاطلاق ، ولكنني كنت أعلم انه عقد اتفاقا مع الداي لم تصادق عليه الحكومة الأمريكية أبدا ، وقد كانت نتائج ذلك أن الحكومة الجزائرية لم تكن تولي أية ثقة لكل من تحدث بالنيابة عن الولايات المتحدة .

هذه حقيقة ، والحقيقة الاخرى هي اننا بقينا ما يقرب عن أحد عشر عاما في افضع أنواع الذل والعبودية .

وفي فترة لاحقة علمت أن المستر لامب قد تلقى تفويضه من المستر جيفرصون والمستر ادمز ، وقد تيح لي أن أقرأ أوراق اعتمادهما له (سنة 1787)

فلو قدر للمستر لامب أن يكون رجلا في مستوى مسئولياته ويتمتع بالكفاءة الضرورية لما كان في امكانه مع ذلك ان ينجز شيئا ذا بال من مهمته في الظروف التي جاء فيها الى الجزائر . ولكن هذه ليست هي الحالة . فان الرجل شبه عامي ، وهو سوقي الذوق والسلوك بصورة لا يمكن تخيلها ، وهو امر لم يعط فكرة مشرفة عن الحكومة التي قال أنه يمثلها . والانطباعات التي خلفها وراءه في الجزائر لم تكن في صالحه هو ، ولا في صالح مواطنيه الأسرى.

وفي هذا السياق يجدر بنا أن نلاحظ أن الفكرة التي كانت تتعلق بها الحكومة الأمريكية والتي مؤداها ان فدية الأسرى سيكون عاملا في حصول الولايات المتحدة على معاهدة السلام ، فكرة خاطئة من أساسها ، وذلك لأن دول المغرب انما تحتفظ بالأسرى بقصد أن يكون في استطاعتها فرض ما تراه من الشروط للسلم على البلاد التي تعترف بان أولئك الأسرى من مواطنيها أو من رعاياها وتطالب بتحريرهم .

ولكن حالتنا نحن الاسرى الامريكيين في الجزائر تختلف عن ذلك ، حيث انه لم توضع في هذه المفاوضات ولا في غضون اية مفاوضات لاحقة اية عقبة في طريق تحريرنا ، وذلك بغض النظر عن الشروط التي ستجري مفاوضات على أساسها لعقد معاهدة للسلام · ومن ثم ، فان حريتنا كانت تتوقف في المرتبة الأولى على توفر الذكاء في حكومتنا وفي ممثليها ، وهو أمر يمكن افتراض وجوده ، ولكنه لم يكن ليخطر ببالي لحظة واحدة أن حكومتنا يمكنها أن تترك رجالا من ابنائها في قيد العبودية أكثر من احدى عشرة سنة بدون أن تزودهم حتى بالطعام الضروري لسد الرمق ، هذا اذا أعوزتها الوسائل للقيام بأكثر من ذلك ، وعلى الرغم من أن حكومتنا كانت فقيرة ، فقد كان في امكانها بسهولة أن تقوم بجمع تبرعات من الشعب لفديتنا · ويجب أن يكون معلوما أن شحنة واحدة من الطباق تبيعها سفينة أمريكية في فرنسا أو انجلترا ، أو هولندا يكفي ريعها لفديتنا من الأسر والعبودية ·

ونتيجة لقيام صاحب الجلالة ، ملك بريطانيا بارسال اسطوله للعمل في المحيط الأطلسي لمنع سفن القرصنة من الطواف في عرضه ، ونتيجة لارسال الداي لجزء مهم من اسطوله لمساعدة سلطان تركيا في حربه ضد الروس في البحر الأسود ، لم تقع أية محاولة للاعتداء على سفن الدول التي ترتبط بمعاهدات مع الجزائر ، كما انه لم تجر أية مفاوضات (من أجل فدية الأسرى الأمريكيين) الا بعد مضي بضع سنوات ·

والمحاولة الأولى في هذا الصدد هي التي قام بها كل من « بشارة » و « دانينو » وكلاهما تاجر يهودي ، من أجل التأكد من المبلغ المطلوب لفدية بقية الأسرى الأمريكيين الذين نجو من الوباء · وقد قاما بهذه الخطوة في سنة 1790 م ، ولم يخل مسعاهما من بعض الصعوبات ، كما سنرى في الصفحات التالية ·

وفي هذه الأثناء ، أواصل سرد الأحداث التي تتصل بمعاملتنا عقب رحيل المستر لامب ، حتى استئناف المفاوضات المشار اليها والتي أسفرت عن نفس النتيجة التي أسفرت عنها مفاوضات لامب ·

★ ★

الفصـــــل الرابـــع

كانت قد مرت ثلاثة أشهر على رحيل لامب عن الجزائـر حينما وصـل الأسرى المسيحيون (الهولنديون) ، وتسبب وصولهم في طردنا من القصر ٠ وقد كان املنا قويا في أن تتم فديتنا بسرعة ، ولو أنه يجب ان أعترف في هذا المقام بأن الامل الذي كان يساورني في هذا السياق كان أقل من أمل كثير من زملائي في الأسر ٠ لم نسمع شيئا من أخبار لامب منذ سفره ، وقد تخيلت أنه بعد مرور ثلاثة أشهر ، كان يمكنه أن يقوم باتصال بالأيالة ليبلغها فيه نتيجة المساعي التي يبذلها ، وبالنظر الى أنه طلب الى حكومة الأيالة أيضا اجراء مفاوضات لعقد معاهدة السلام ، فقد استنتجت انه مضطر ، بطبيعة الحال ، الى تقديم نتيجة مساعيه في الجزائر الى الكونجرس ، قبل اتخاذ أية خطوة اخرى بشأن فديتنا ، وبالتالي ، فقد قدرت أنه لا يمكن توقع فديتنا في أقـل من تسعة اشهر بعد رحيل لامب عن الجزائر ٠

ومع ذلك ، فقد شعرت بغبطة لان اترك حديقة القصر في تلك الآونـة ، فانا لم اكن اتخيل وجود حالة أكثر ذلا ومهانة من حالتي ٠

كنت مقتنعا بان شرف بلدنا معلق على فديتنا ، وان موعد فديتنا لا يمكن أن يتاجل اكثر من سنة ، على اكبر تقدير ٠ وهكذا قررت في نهاية الأمر أن اتحمل الأشغال الشاقة التي يرافقها الجوع والعـري وجميـع الوان البـؤس والشقاء ، واختار عذاب الجسم على عذاب الروح الذي كنت أعانيه في القصر٠

وفي نفس الوقت كانت رغبتي قوية في تغيير وضعيتي على أمل أن أتمكن من تحسين حالتي والحصول على بعض الوسائل التي تمكنني من اسعـاف زملائي من المواطنين الذين يرزحون معي في قيـود العبوديـة ، بحيث انني أعتبرت اخراجي من قصر الداي أكبر نعمة وأفضل بركة أنالها في هذه الظروف٠

وفي أمسية يوم 29 يوليو 1786 ، ابلغ رئيس الموظفين المسيحيين فـي الأيالة الأسرى الذين يعملون في الحديقة انه تلقى أوامر بأن ينقل ثمانية منهم الى سجن « بيلك » (Belique). حيث أن الداي يعتقد ان من الملائم احـلال الأسرى الجدد محلهم ٠

وتبعا لذلك ، فقد اختير من بين الأسرى الذين يعملون في الحديقة اثنان من البرتغاليين وأربعة من الاسبان واثنان من الأمريكيين ، انا ورفيق لي في الأسر ، وأمروا بالرحيل فورا •

فأما أمتعتي فقد كانت لا تملأ سلة صغيرة وهي عبارة عن غطاءين وبعض الكتب وبعض الأوراق وأربع دولارات من الذهب وقطعتين من « سكوين » الجزائري من ذهب ، كان ذلك هو كل ما أملكه في هذه الدنيا •

غادرنا قصر الداي دون أسف لاننا كنا نجهل الحالة التي نتجه اليها والمصير الذي ينتظرنا ، ولكننا لم نلبث أن رأينا أوهامنا تتبدد ، وأنا اعترف شخصيا بكل سذاجة انني جدت الفرق كبيرا بين السجن والأعمال الشاقة التي نمارسها فيه ، والحاله التي كنت فيها في القصر ، على الرغم من كل ما كنت الاقيه من الهوان في حديقته ، ولكن طبيعة الانسان هكذا اجبلت ، فهو لا يزال يستنكر النعمة التي يعيش فيها حتى تزول وتحل النقمة محلها ، وعند ذلك يبدأ في المقارنة بين حالته السابقة وحالته الجديدة ويقدر قيمة ما فقده •

اغتبطنا لاننا تخلصنا من اهانة العناية بالحيوانات المفترسة والسهر على نظام الحديقة ومن استبداد الخازندار ، ولكننا لم ندرك أننا نحاول أن نحتمي من الرمضاء بالنار وأننا الآن مقبلون على الجحيم نفسه ، الجحيم الذي يقف على رأسه الرايس ابراهيم وأعوانه من الزبانية •••

يتلقى الأسير طعامه وشرابه وموضع نومه في القصر وأما كسوته وحوائج نظافته فهو يتلقاها مرة واحدة لدى نزوله في القصر ، وبعد ذلك يتحتم عليه أن يسهر على نفسه بنفسه ، ويستعين بما يجمعه القهوجي على العناية بشئونه •

والتقليد المتبع في الايالة ، هو أنه حينما يحظى الباي أو الخليفة أو القايد أو الشيخ أو سفير دولة أجنبية أو قنصل بمقابلة الداي وتقدم اليه القهوة التقليدية ، يترك على صحن فنجان القهوة قطعة من النقود الذهبية ، تكون في مستوى مرتبة الزائر الذي نال شرف شرب القهوة من الداي •

وهذه المبالغ يجمعها القهوجي ويضعها في صندوق مغلق محفوظ في منزل الداي الخاص • ويقوم سعادة الداي باضافة مبلغ من ماله الخاص الى محتوى الصندوق ، ثم يوزع ريع هذه العملية مرتين في السنة على الأسرى طبقا لرغبات الداي ، وتبلغ حصة الاسير من هذا الدخل حوالي ثلاثة دولارات في

السنة أو اقل ، ولكنها قلما تنزل عن دولارين اثنين ، وهو مبلغ ، على كل حال، يكفي لمواجهة تكاليف حاجيات الأسير ولتقديم مساعدة لزملائه الذين يعملون في الأشغال الشاقة في السجن ، وهذه السجون توجد منها ثلاثة سوف نصف كل واحد منها في الوقت الملائم ٠

واما القهوجي ، فالى جانب حصته التي يحصل عليها من هذه العملية ينال منحا من الباي والخليفة بعد الحاج في الطلب عندما يزور احدهما الخزنجي أو رئيس الطباخين وقلما يرجع الواحد منهم خائبا بعدما يريق ماء وجهه ٠

وكذلك كان يسمح لعدد من الأسرى أن يلاحقوا هؤلاء العظماء على درج القصر بحجة تحيتهم وليقبلوا أيديهم لكي يحصلوا منهم على قطعة من النقود، وبعدما تسقط القطعة في يد الواحد منهم ويتمعنها ويكتشف أنها أقل مما كان يتوقع (وهي قلما تكون في مستوى المتوقع !) يطلق لسانه في شتم تلك الشخصيات ويستنكر شح يدها وبخلها ٠

كان صالح باي ، باي قسنطينة ، ذات يوم يخرج من القصر ومعه حاشية كبيرة حينما اعترض طريقه خادم عربي في القصر ينتمي الى بلدة قسنطينة يطلب اليه « البقشيش » ٠ وصالح باي كان مشهورا بكرمه وسخائه ، ولكن نقوده نفذت مع صبره في هذه المرة٠ ولذلك ، فقد رمى بقطعة نقود الى القسنطيني قائلا: « خذ ! سوف ابتز مثلها من مواطنيك كما تبتزها أنت مني ! فانا انما حضرت الى الجزائر لارد على شكاوى شيوخ قسنطينة الذين يزعمون امام الداي انني ارهقهم بالضرائب التي هي من واجبي جبايتها لكي أدفع المبالغ المستحقة علي الى الداي ، ولو قام هؤلاء الشيوخ بزيارة الجزائر ثلاث مرات وعرفوا ما يجبى من الضرائب فيها لتعجبوا من اعتدالي ورضوا بحالهم ولما حسدوني على ما أتمتع به من الاحترام والتقدير لدى سكان قسنطينة ، وهي مكانة كلفتني عدة آلاف ٠ ولكنه اذا كان الداي راضيا ، فانني أشعر بالغبطة ولا يهمني غير ذاك ٠ وليحفظ الله جل جلاله حياة الداي محمد ، ويطيل عهده وسعادته والسلام الذي يسود البلد في الداخل ، فهو محبوب من رعاياه ويخشى أعداؤه جانبه » ٠

وكذلك يوجد بعض المسيحيون الذين يتمتعون بحق تقليدي في أن يقدموا تحياتهم واحترامهم للباي وللخليفة ، وفي مقدمة هؤلاء رئيس الخدم في قصر الداي الذي يحمل قفطانا وسجل الشرف من الداي الى الذين خلع عليهم ، فهؤلاء كثيرا ما يتلقون مكافاة من الباي تبلغ نحو 200 من الدولارات ، ومن

الخليفة نصف هذا المبلغ ، وكذلك يستخلص رئيس الموظفين المسيحيين (وهو مسيحي) هو وأعوانه كثيرا من ثروتهم التي جمعت بطـرق غير مشروعـة ، ويبتزونها من بيوت النبلاء والكبار التي يزورونها ، بل أن هؤلاء لا يتورعون عن فرض غرامات على القبائل العربية وعلى اليهود وعلى غير هؤلاء من الطوائف التي وضعتها العناية الآلهية تحت رحمتهم ، وهم يقومون بهذه العمليات المخزية بجشع نادر وبدون أدنى وخز للضمير ، وهم في كل ذلك انما يأخذون المثل مـن المعاملة التي يتلقونها في الجزائر حيث يعيشون في خوف دائم من أن يعجزوا عن ارضاء طمع الداي وجشعه هو وغيره من العظماء حينما يعودون الى الجزائر بعدما يقومون بجمع الضرائب المذكورة (وهي عملية يقومون بها ثلاث مرات في السنة) ·

لدى وصولنا الى سجن « بيلك » وجدنا في استقبالنا مدير السـجن ، الرايس ابراهيم الذي كان مجرد قائم بالاعمال ، ولكنه نظرا لسنه ولانه يعاني من مرض ، فقد ثبت في هذا المنصب ، وأما مدير السجن فقد مات في وباء ولم يعين أحد في مكانه · انني سأذكره دائما في هذا المنصب طول حياتي ، فقد بقي فيه طالما بقيت في السجن ·

كان الرايس ابراهيم في هذه الفترة أيضا حارسا للطوافة التي تقـــوم بتنظيف الميناء ، وقد كان من المعروف لدى الجميع ان هذا السجن لم يعرف قط حارسا أشد قسوة منه ·

كان الرايس قد عاد مؤخرا من مالطة حيث قضى 14 سنة فـي الأسـر · ونظرا لأنه عومل معاملة قاسية على ظهر السفينة المالطية « جالير » ، فقد قرر أن ينتقم لنفسه من الأسرى الذين هم تحت عهدته ويصب مثل اللعنات والأهانات التي تلقاها من المالطيين على هؤلاء الرجال الابرياء الذين لا ينتمون الى نفس الأمة ، حيث انه لا يوجد من بينهم مالطي واحد تحت أوامره ، ولو انه كان يوجد في ذلك الوقت اثنان أو ثلاثة اسرى مالطيين في الايالة كانت قد أسرتهم نفس السفينة التي أسرتني وهم على ظهر سفينة برتغالية ·

ان الاستقبال الذي لقيناه من هذا الطاغية يعطي القاريء فكرة عن شخصيته وعن أبعاد الفضائع التي تنطوي عليها حالتنا ·

كان الرايس ابراهيم يجلس عند الباب الخارجي على مقربة من المشنقة لدى وصولنا . وعند المدخل كان يقف حارسو السجن في صفين ، وجميعهم

مسلحون بالعصي والحبال الغليظة وغير ذلك من الاسلحة العدوانية • واما الحرس من الجنود ، فقد كانوا مسلحين باليتجانات (سلاح بين الخنجر والسيف) وبالمسدسات • واما حيطان الباب الخارجي ، فقد كانت مزينة بالهراوات وبحبال الشنق والسلاسل والاصفاد والقيود ، والكل يبعث في النفس القشعريرة وشعور البؤس والقنوط ، من النظرة الاولى •

بدا الرايس ابراهيم حفلة استقباله بقوله :

ـ حسن ، أيها السادة : واذا ، فانتم لم تكونوا راضين عن حالتكم في القصر ، وقد فضلتم رفقتي على صحبة الخازندارين • انكم جميعا في صحة جيدة ، وملابسكم من النوع الفاخر الذي لا يليق بالعبيد • سوف أعطيكم شيئا لتسلية أنفسكم يوم الغد ، في « باب الوادي » ، هناك سوف أريكم كيف كان المالطيون يعاملونني ، هيا بنا ، يا « سبيرو » ضع قيودا ثقيلة في أرجل هؤلاء السادة ، وغدا ايقظهم في الصباح الباكر واحضرهم الي عند الباب الخارجي للبحرية » •

وهنا تدخل رئيس المستخدمين في القصر وأخبره أننا لم نرتكب أية خطيئة ، وأن الخازندار أمره أن يبعث بنا الى البحرية ، وقد أجاب الرايس ابراهيم قائلا :

« لا حرج عليك سوف يرسلون الى البحرية ، ولكنه ابتداءا من هذه اللحظة ساوجههم حيث أشاء • انهم لم يتعلموا بعد معنى العبودية ، وقد حان الأوان لكي يأخذوا دروسا في الموضوع ، وأنا لم أنس بعد معاملة المسيحيين لي حينما كنت عبدا)) • ،

وقد أجبته قائلا انني أمريكي وسيكون من الصعب علي تحمل العذاب من أجل الظلم والأذى الذي تلقيته من المالطيين الذين تقع جزيرتهم على مسافة 6000 ميل من بلدي والذين ينتمون كذلك الى عقيدة دينية غير عقيدتي ، وقد كانت عقيدتهم تحثهم منذ أقدم العهود على اعتبار المسلمين اعداء لهم ، وأما امريكا ، فانها ، على الأرجح ، لم ترقط مسلما واحدا ، ونحن لم ندخل قط في حرب مع أمة اسلامية •

أجابني الرايس ابراهيم ، وهو يبرم شاربه الطويل ، قائلا :

ـ هذا صحيح ، ولكنكم مسيحيون • واذا لم تلحقوا اذى بمسلم فليس ذلك عن قلة رغبة أو ضعف ارادة ، بل بسبب عدم امتلاككم القوة الكافية • ولو قدر لكم أن تاسروا احدى سفننا ، فكيف تعاملون رجالنا ؟ •

– ان ذلك يتوقف على الطريقة التي تعاملون بها المواطنين الامريكيين الذين هم في حوزتكم الآن · ويمكنك ان تتاكد ، يا سيدي ، بان امريكا سوف تنتقم لمواطنيها العاثري الخط والذين يعاملون بقسوة لا يستحقونها ·

رد علي الرايس ابراهيم بقوله :

– « أيها العبد : انني غير متعود على الاستماع الى حجج الكفار ، وانت ثرثار ، اذا اعتبرنا أنك صغير السن · انسحب في الحال ، وفي المستقبل التزم الصمت والطاعة » ·

وفي هذه الأثناء ، كان جميع زملائي قد قبلوا يد هذا الطاغية · وهكذا ادخلنا الى ساحة السجن حيث تركنا ننتقل حيث نشاء ونحن مكبلين بالأغلال التي تزن نحو 20 أوقية ، فوق رسغ القدم ، وقد أخبرني السجان بان هـــذه الاغلال قد تبدل بقيود أخف من الحديد يوم الغد بدفع « سكوين » واحد من كل واحد منا الى نائب مدير السجن و 12 « ماصون » اليه هو في مقابل اتعابه وثمنـــا للقيـــد ·

كان اشمئزازي قد بلغ حده الأقصى لهذه المعاملة ، فلم أجبه بشيء · وأما زميلي الأمريكي فانه لم يفهم ما قاله ·

وبمجرد انتهاء حفل الاستقبال طلب من كل واحد منا أن يقدم لموظـــف السجن المختص اسمه وأمرنا بأن نكون على استعداد للمسير في وقت مبكـــر صباح الغد الى بوابة البحرية ·

وفي نفس اللحظة ارتفع صوت السجان في صرخة مدوية بالتركيـــة : « كابي كابار ! » ومعناه : « يغلق الباب الخارجي » ·

وعندئذ رأينا فوجا من الأتراك والعرب واليهود يمشون ثملين نصف عراة، لأنهم باعوا ثيابهم الواحد بعد الواحد لصاحب الحانة التي خرجوا منها (وهو مسيحي) في مقابل الكحول . كان بعضهم يغني والبعض الآخر يصيح ملء حنجرته بل ان بعضهم قد استل سيفه وهم يشتمون ويقسمون أنهم سيقتلون أول شخص يصادفهم في الطريق ويتعرض لهم ، وأما الباقي فقد ساروا في هدوء وسلام والتحق كل منهم بزنزنته ، واذا كانوا من الجنود اتجهوا الـــى ثكناتهـــم ·

واثر ذلك ، اغلق باب السجن الخارجي لليل وسمع ضجيج سلسلة ثقيلة وهي تجر عبر الباب الخارجي من الداخل ، بينما اغلق الباب الداخلي بالمزلاج والقفل ، وهكذا أصبح السجن الآن تحت سيطرة المسيحيين الذين يحمل كل واحد منهم رتبة « عريف » العسكرية ، وهم من الجنود الاسبان الذين هربوا من حامية وهران حيث كانوا يعيشون مبعدين من وطنهم ، اما لجرائم القتل أو للسرقة ، وهم مشهورون في الايالة كلها بشدتهم وقسوتهم · وهـؤلاء العرفاء يملكون حانة يبيعون فيها الكحول التي يستوردونها معفية من التعرفة الجمركية · وقد جروا على ملاحظة الأسرى المسيحيين الذين يكسبون المال ، او على وشك كسب المال · ومتى كان هؤلاء لا يترددون على حانتهم تعرضوا لا اضطهادهم ، بالنظر الى أن جميع الاسرى يقعون تحت اوامرهم بالليل ، ومتى قدموا تقريرا في الصباح عن احد الأسرى في غير صالحه ، كان ذلك معناه جلد الأسير بشدة ووضعه في السلاسل عدة أسابيع ·

وهؤلاء الاسبان يملكون السلطة لوضع السلاسل في عنق وفي أرجل اي اسير لا يرضون عنه طوال الليل ، ويربطونه الى حجر أو عرصة من عرصات السجن · وفي النهار يستطيعون أن يضطهدوا أي واحد من الأسرى دون ان يتعرضوا لاي نوع من العقاب ، اثناء العمل ، ويكلفونه بالقيام بأقذر واشق الأعمـال ·

وهكذا يكون من الحكمة المحافظة على علاقات طيبة بقدر الامكان مع هؤلاء الأوغاد ، والقيام برشوتهم بين الحين والحين ، الأمر الذي يكون من نتائجه عادة كف اذاهم ، بل هم قد يعفون العبد الذي ينال رضاهم من العمل أحيانا لعدة أسابيع متوالية ·

وهم يقومون بتلقي البضائع المسروقة ويتقاسمون ريعها مع نائب مديـر السجن ، ومتى افتضح أمرهم لفقوا التهمة لأحد الأسرى ممن وضعوا اعينهم عليه . وبينما يقع الأسير البريء تحت وطاة العقاب ينجوا المذنب ليتمتع بثمرة جريمته · وضحايا السرقات قد يكونون من العرب او من المسيحيين أو مـن الأتراك واليهود · على انه يحدث أن يلقى القبض على احـد السـراق ويعاقب بشدة ، اذا لم يصالحوا نائب مدير السجن عن طريق العرفاء الاسبان ·

من الضروري ان نلاحظ أن مرتكبي هذه السرقات هم عادة مـن الجنـود الاسبان الهاربين من وهران ، وهؤلاء يطلق عليهم هنا اسم « كانروس » (أي الغنم) ، حيث انهم يقعون في الاسر كما تقصد الشاة الى المذبح ، بدون وعي ، وهم في الحقيقة ليسوا اسرى ، ولكنهم يضعون أنفسهم في قيـد العبوديـة طوعا واختيارا ·

وهؤلاء لا يستخدمون في قصور الشخصيات الكبيرة ومنازل الأثرياء ولا يعينون موظفين في الايالة ، على ان عددهم قل في الازمنة الاخيرة واصبحوا يستاجرون للخدمة في المنازل . وبينما كان الناس يتجنبونهم في الماضي اصبح البعض لا يرون باسا في الاختلاط بهم في الوقت الحاضر ، وكذلك اصبح مثلا شائعا بين المسلمين حين يتحدثون عن شخص سيء السلوك ان يقولوا عنه « انه يتصرف كاي كونرو من وهران » ، والمسلمون يعتقدون بحق انهم يستطيعون ارتكاب اية جريمة .

وفي هذا السجن يحبس جميع المجرمين وكثيرا ما يقيد بالاغلال والسلاسل اربعون او خمسون مجرما ويربطون كل اثنين في سلسلة واحدة . وجلجلة السلاسل تزيد من فضاعة هذا السجن وراء كل تصور . والشتم والسب الذي ترتفع به حناجر المسجونين تجعل منه جحيما لا سبيل الى تخيل ما هو افضع منه ، وفيما يلي اقدم وصفا لهذا البؤس البشري .

سجن « بيلك » مستطيل الشكل يبلغ طوله 140 قدما ، وعرضه 60 قدما ويتكون من ثلاثة طوابق ، وربما بلغ ارتفاع المبنى نحو 50 قدما . وجميع الشقق مبنية على أقواس وليس لها نوافذ اذا استثنينا فتحات بقضبان من حديد في كل واحدة من الشقق العليا وانما يدخل اليها الضوء والهواء من الأبواب ، واما الطابق الأرضي فلا توجد فيه تلك الفتحات وقد حول الى حانات يديرها مسيحيون يدفعون ايجارها كما يدفعون ثمنا مرتفعا للحصول على رخصة لبيع الخمور والماكولات فيها .

وهذه الحانات لا ينفذ اليها الضوء في النهار وانما تضاء بالمصابيح ، ومتى اكتظت بالاتراك والمسيحيين والعرب واليهود في بعض الأحيان ، وساد اللغط فيها بين السكارى (وهذه هي الحالة خصوصا ، يوم الجمعة الذي هو يوم الراحة من العمل للمسجونين) فان المنظر من أبشع واشنع ما يمكن ان يتصوره العقل البشري . واذا اضفت الى المنظر ضجيجا يعلو من آلة تسمى « طربوكه » (الدربوكه) واخرى تسمى « السنيطارة » واحيانا قيثارة تركية وفي بعض الحالات آلة ايطالية تسمى « مندولين » وقيثارة اسبانية والصراخ المتعالي بمختلف اللغات ، دون أن تكون بين هذه الآلات كلها أية رابطة ، ودخان الطباق الذي يحول دون رؤية الأشياء ، والخصومات الناجمة عن رفض بعض المستهلكين ، دفع ثمن مشروباتهم ، أدركت بسهولة ان هذه الامكنة قطعة من الجحيم لا يمكن أن يكون لها مثيل في العالم . والخصومات هنا كثيرا ما تتحول

الى معارك يشتد فيها الضرب ، وليس من النادر ان تقع فيها جرائم القتل . ولكن جريمة القتل تتسبب في ان يفقد صاحب الحانة ملكيته وتستولي الحكومة في الحال على الحانة بينما يرسل مالكها الى الأعمال الشاقة ، على ان رشوة نائب مدير السجن الذي يقدم تقريرا عن الحادث قد تؤدي الى التخفيف من عقاب صاحب الحانة .

انه لمن المستحيل ان يتخيل الانسان أو يعتقد ما يروى له عن جشع العرفاء الاسبان وحراس السجن ، والطرق التي يبتزون بها المال القليل الذي يكسبه الأسير البائس بمهارته أو معرفته أو مما يمده به اصدقاؤه على سبيل العون والمساعدة .

ففي جميع السجون يشاهد الانسان باعة متجولين من مختلف الفئات يتجولون بالليل ويعرضون بضائعهم . وهكذا يتعاقب الاسكافيون والخياطون والنجارون وصانعو البراميل والنشارون والبائعون بالتجزئة وكل منهم يعرض خدماته وبضائعه ، وكلهم من السجناء .

كانت السلطات قد سمحت لبعض العبيد من هذه الفئة ، قبل أن يقل عدد العبيد في الايالة بان يمارسوا اعمالهم في مقابل دفع دولار واحد في الشهر ، بالاضافة الى الرشوة التي يقدمونها لحراس السجن ، وهم يقضون معظم امسياتهم في حانات العرفاء ، ولكنه في الآونة الأخيرة أصبح من الصعب الحصول على رخصة لهذه الغاية كما انه لا تقبل السلطات ضمانات أحد بشأن سلوكهم فيما عدا قناصل الدول المسيحية وكبار التجّار .

كان من الممكن في السابق الحصول على هذه المزية باستخدام نفوذ الجنايني الذين يعملون في حديقة القصر ، ولكنه وقعت كثيرا من حوادث سوء السلوك بحيث أن المسيحيين الاحرار لم يعد يمكنهم تقديم ضمانات عن هؤلاء العبيد أو عن العبيد الذين يعملون في منازل الشخصيات الكبيرة ، بل وحتى عن العبيد الذين يعملون في منازلهم .

يحيط بالطابق الثاني والثالث من مبنى هذا السجن ممر واسع يمكن الدخول منه الى غرف طويلة ضيقة ، وهي الغرف التي ينام فيها العبيد . انهم ينامون في اطارات مربعة يقع الواحد منها فوق الآخر في أربعة طوابق ، انهم نصف عراة واسمالهم تعشش فيها كتل من القمل والبراغث ولا يملكون من الفراش سوى غطاء قديم يلفون به أنفسهم في منتصف الشتاء . وأما الذين

يملكون المال منهم ، فينامون في الحانات او في صناديق صغيرة تسمى غرفا بنيت على طول الممر المذكور ، ويدفعون للايالة ايجارا لها مقداره ما يتراوح بين 12 و 54 « ماسون » شهريا ·

وقبل أن تقوم كل من اسبانيا ونابلي بفدية اسراها في سنة 1787 ، وقبل وباء الطاعون الذي حصد عددا كبيرا من ارواح العديد من العبيد والأسرى· كانوا مضطرين الى النوم في اي مكان يجدون فوقه سقفا ، بما في ذلك الممر المذكور ، وذلك في الشتاء والصيف على السواء ·

وفي وسط السجن ، او قريبا من الوسط تقع بئر يستخرج منها المـــاء، وصهريج يمتد على طول السجن تقريبا ، كان في الماضي يزود بماء المطر الذي يتساقط من سطح السجن ، ولكنه أصبح الآن يزود بالماء من قنوات الماء التي تخترق المدينة والتي ساصفها فيما بعد ·

ويعلو مبنى السجن كله سطح يصعد اليه من السجن من منفذين ، وقد كان يمكن أن يوفر مكانا ملائما لرياضة الأسرى لو كان يسمح لهم بالصعود اليه ، على أن ذلك محرم عليهم البتة · فان احد المنفذين يقع في شقة رئيـــس موظفي السجن ، وأما المنفذ الآخر ، فيحمل مفتاحه رئيس العرافين الاسبان ، وبالتالي ، لا يسمح لاحد بالصعود الى السطح ، فيما عدا الاشخاص الذين يتمتعون بالحظوة لدى هذين الشخصين · ونظرا للاختلاف الكبير الملحوظ بين شخصيات العرافين ، فهم قلما يستعملون السطح ، ولذلك يبقى الشخص الوحيد الذي يتمتع بحق استعماله هـــو رئيـــس الموظفيـــن وأصدقاؤه الذين لا تروقهم هذه الفئة من الاسبان ·

وشقة رئيس الموظفين تتكون من غرفتين جميلتين ومطبخ، والمنفذ الذي يفضي منها الى السطح يزيد من سعتها ومن جمالها · ونظرا لانها تحتوي على اربع نوافذ ، فهي يدخل اليها الهواء والشمس، وهي خالية من الروائح الكريهـــة التي تنبعث من كل مكان غي السجن ·

نظرا لانه يوجد سجنان آخران في مدينـــة الجزائـــر ، فسوف أقـــوم بوصفهما حتى امكن القاريء من اخذ فكرة شاملة عن نظام السجون في الجزائر في هذا العهد ويقارن بين حالة سجن وحالة الآخر ·

الى جانب السجن المذكور ، يوجد سجن « جاليرا » (أو سجن المجدفين) وقد سمي بهذا الاسم لانه كان ينزل فيه في السابق العبيد الذين يجدفون في

السفن الجزائرية . وعندما اعيد بناؤه احتفظ بتلك التسمية ، وذلك لان جماعتين من نابلي قد هربتا بسفينتين تابعتين لذلك البلد والتجأ افرادهما الى الجزائر وكانوا أول من نزل بهذا السجن في سنة 1750 .

وهذا السجن مبني على أساس نفس التصميم الذي بني عليه السجن الاول ، ولكنه لا يحتوي الا على طابقين وليس له نفس الطول . وأما الحانات، فهي في نفس الموقع ، والغرف المستطيلة في السجنين متشابهة ، ولكنه يوجد فوق السطح صفان من الغرف الصغيرة يقع أحدهما فوق الآخر يسكنها الأسرى الذين يستطيعون دفع ايجارها . وهذه الغرف هي التي تجعل الطبقة الموسرة ، من العبيد تفضل في هذا السجن على السجنين الآخرين .

ولكن المضايقة الكبرى في هذا السجن ناجمة عن الاحتفاظ فيه باسود ونمور تنبعث من أقفاصها رائحة كريهة ، وذلك بالاضافة الى الرائحة التي تنبعث من المستشفى المجاور الذي يتصل بالسجن بممر ، مما يجعل الجو في هذا السجن ، ولا سيما في الصيف ، لا يطاق ويبلغ المرء فيه درجة الاختناق .

ولقد رأيت بعيني ما لا يقل عن 27 أسدا ونمرا احتفظ بهم في نفس الوقت في هذا السجن ويدفع تكاليف العناية بها وتغذيتها المسيحيون الذين يملكون حانات .

ومما يزيد من دقة الحالة أن هذه الحيوانات المفترسة يحدث كثيرا أن تخرج من أقفاصها وتتهجم على المسجونين وقد قتلت فعلا عددا من العبيد الذين لم يكونوا يجرءون على قتلها حتى وهم في حالة الدفاع عن النفس اذ انه متى اتضحت وحشية أسد أو نمر ، يقتضي الأمر استصدار اذن من الداي نفسه ليبعث باحد حراسه لكي يجهز عليه بالرصاص ثم تنقل جثته خارج السجن .

وفضلات هذه الحيونات توفر غذاء شهيا لحشود الفئران ، وهي أكبر الفئران التي رأيتها في حياتي ، وهذه الفئران بدورها ، كثيرا ما يستعملها بعض العبيد المساكين لدفع غائلة الجوع الذي ينهش احشاءهم . وكذلك يأكل بعض العبيد القطط بحكم الضرورة . وقد سألت أسيرا فرنسيا ذات يوم ماذا سيصنع بالقطع الذي سلخه ، فاجابني قائلا :

« يتحتم على المرء ن يسد الرمق » .

وفي فترة وباء الطاعون كان عدد الذين اصيبوا بالعدوى من نـزلاء هذا السجن أكبر ممن قتل في غيره من السجون ، وذلك بسبب اتصاله المباشر بالمستشفى .

وأما سجن سيدي حموده ، فهو اصغر السجون الثلاثة ، ولكنه يحتوي على جميع انواع البؤس والشقاء المشتركة بين السجنين الآخرين وبناؤه غير منتظم الشكل ، حيث انه يتكون من ثلاثة أو رابعة منازل قديمة تربط بينها ممرات . والسجن يأخذ اسمه من مالك بنايته السابق .

وهكذا ، وبعد هذا الوصف للسجون الثلاثة ، اضيف أن مجموع نزلائها من العبيد يبلغ نحو ثلاثة آلاف شخص من البؤساء الذين زجوا فيها نتيجة للسياسة التي تنتهجها الدول التجارية التي لا تكتفي بما تبديه من الكبرياء والغرطسة ، بل هي تغذي أيضا جشعها ، وتعمل لخلق ذريعة للدول المغربية التي تمارس القرصنة وتشجع الأخيرة على ضرب مصالح كل دولة تريد الحصول على نصيب من التجارة في البحر الأبيض المتوسط وتشارك في أرباحهم ، وذلك بدفعها ضرائب مهينة مخلة بالشرف للقراصنة وبدفع فدية على الأسرى من مواطنيها . فلو قامت تلك الدول بارساء بارجتين حربيتين فقط في هذه المنطقة لمدة خمس سنوات ، لاصبحت دول المغرب لا تتمتع الا بالاحتقار الذي استحقته جمهورية"لوقا" (luca) الصغيرة ، واذا أضفنا الى مثل هذا الاجراء العسكري استعمال تلك الدول ما لديها من نفوذ لدى الباب العالي ، فسنرى هذه الدول تنهار بسرعة . والشقاق الذي ستثيره مثل هذه الاجراءات في صفوف الجيش والبحرية التي ستبقى في حالة كسل وخمول، من شأنه أن يفتح باب النجاح ، لثورة سكان المدينة والعرب الذين يعيشون خارجها في الريف. واذا أمكن للدول الاوروبية أن تقنع السلطان بالا يسمح بجمع جنود من تركيا تحت لوائه ليرسلوا للعمل في الجزائر ، فستكون الجزائر أول من يحس بأثر هذا الاجراء وتنال الاستقلال ، وتأتي بعدها كل من تونس وطرابلس التي ستحاول حتما تغيير حكومتها ، تغييرا ينجم عنه تغيير في الاتجاه السياسي وعندئذ يتحرر العالم من خطر هؤلاء القراصنة الذين كانوا منذ اقدم العصور يتهجمون على السفن الاجنبية ويسرونها ويستبعدوا رعايا ومواطنين البلدان الاوروبية .

ولكن اتحاد الدول الأوروبية لهذه الغاية أمر أدخل في باب لعلّ وليت، أكثر مما يدخل في حيز التوقعات الممكنة ، وذلك لانه لم تقع حرب واحدة خلال مدة القرن الأخير بين احدى الدول الأوروبية والدول التي تمارس القرصنة الا

نتيجة لايعاز وتحريض من دولة تجارية اوروبيــة اخــرى منافسة لهـا وتريد القضاء على تجارتها · وفشل العمليات التي قام بها الأسطول الاسباني عدة مرات ضد الجزائر يمكن عزوه الى المشورة والمساعدة التي تقدمها فرنسا دائما وباستمرار الى الجزائر ، ولا سيما عن طريق غرفة التجارية في مرسيليا ، تلك الغرفة التي تحتكر أهم فروع التجارة واعظمها قيمة في جميع بلدان البربر ·

والآن احول انتباهي من جديد الى سجون الجزائر ·

فبينما كنت اتامل في فضائع حالتي في السجن ، تلقيت دعوة من رئيس الموظفين المسيحيين في قصر الداي بأن اقيم في شقته حتى يتاح لي الوقت لادبر اموري ، وقد كنت شاكرا له هذا الفضل حقا وقبلت هذه الدعوة بدون تردد ، ولكنني مع ذلك لم اكن قادرا على الاستمتاع بكرمه وسخائه ، فقد كان خيالي ملتهبا بتأثير ما رأيته الى درجة أوشكت معها على الجنون ·

استلقيت على الصفة في شقته ولكنني لم انم الا قليلا حيث كنت انتظر اضواء الفجر والنهار الذي يتقرر فيه مصيري ·

وعلى الساعة الثالثة صباحا ارتفعت صرخة من رئتين ضخمتين للسجان وشقت عتمة الصبح لتصل الى اذني : « انهضوا » ! « انهضوا أيها النائمون، فقد اقترب النهار » ·

وبعد ذلك بلحظات ، أضاف قائلا :

« الرحيل ، ايها النائمون ، وكل الى عمله اليومي » ·

وعند هذا النداء سرنا جميعا في طريق ضيقة في اتجاه باب البحرية· كان ذلك هو الوقت الذي تفتح فيه أبواب المدينة ، وكان تدفق الجمال والبغال والحمير والعمال تدفقا عظيما بحيث كان من الصعب التقدم في سيرنا ·

كانت الحيوانات مشحونة بالمواد الغذائية التي ستعرض في الســـوق وترسل الى القصور ومنازل الأغنياء · وفي هذه الاثناء أخذ العبيد الجيـــاع يسرقون كل ما وقع تحت ايديهم،ووقع هرج ومرج لا اجد الكلمات الملائمـــة لوصفه ، وقد تعالت أصوات العرب الذين يرافقون الحيوانات بالسبب والشتم وبعبارات مثل : « ايها المسيحيون الكلاب ، أيها الكفار الذين لا يؤمنون بشيء، سوف تجلدون حتى الموت » ·

واستمر سيرنا في تلك الطريق حتى تخلصنا منها ومما فيها لدى منعرج يتجه الى المرفأ حين امكننا ان نسير بسهولة حتى باب البحرية حيث رتبنا في صفوف يتقدمها حرس السجن الذين جلسوا على مقعد من الآجر وضع خصيصا لهذه الغاية · وهناك انتظرنا نحو ربع ساعة حتى خرج « فيكلهارش » و « بيليك » و « باش قبطان » وغيرهم من الضباط ، وفي اثرهم الحرس · وتقضي التقاليد المتبعة ان يقف العبيد حاسري الرأس بمجرد ظهور « فيكلهارش » وان يظلوا كذلك حتى يبتعد مسافة محترمة ·

اخذنا رئيس الموظفين المسيحيين في قصر الداي الى نائب مدير السجن الذي قدمنا الى « فيكلهارش » الذي سأل الموظف عدة اسئلة عنا وتلقى عنها جوابا لصالحنا ، وبعد ذلك أمرنا بان يتجه كل واحد منها الى عمله ·

أرسلت أنا ورفيقي الى مشغل للنجارة · وعلى الفور وضعت تحت اشراف شاب اسباني وسيم من برشلونة لتلقي التدريب ، كان هذا الشاب طالبا في الكلية الحربية في اسبانيا ولارتكابه عملا مخالفا للنظام ، أرسل الى حامية وهران الاسبانية ، وقد هرب من وهران رغبة في استعادة حريته ، ولكن عرب وهران أسروه وحبسوه وباعوه عبدا لباي معسكر الذي اصطحبه مع آخرين الى الجزائر ليقدمهم كجزء من الضريبة التي يقدمها ثلاث مرات في السنة الى الداي · وهذه الضريبة سنعود الى الحديث عنها حينما نعالج موضوع دخل الداي العمومي ، لانه أتيح لي معرفة تفاصيلها عن كثب ·

كان هذا الرجل يائسا من أن تقوم اسبانيا بدفع فديته ، وقد انكره أقاربه، وكذلك عكف على تعلم صناعة النجارة التي وضع فيها لدى وصوله الى الجزائر ، بحيث أصبح يعتبر مشغله الآن أحسن مشغل للنجارة في الايالة كلها ، وهو يقوم بالاعمال خارج المشغل في منازل الشخصيات الكبيرة وأصبح يتمتع بحظوة كبيرة ·

كنت دائما ارافقه اثناء خرجاته خلال الشهور الثمانية التي قضيتها في مشغله ، ونظرا لانني أعرف اللغات الفرنسية والاسبانية والبرتغالية جيدا نسبيا ، فقد اتيحت لي فرصة لأن أجمع كثيرا من المعلومات عن الجزائر ولأن ادرس عادات وتقاليد البلد الذي جعلت مني العناية الآلهية أحد رعاياه ·

كنت خلال الفترة التي عملت فيها في المدينة أو في البحرية أتلقى وجبة جيدة من الطعام في اليوم تدفع الايالة ثمنها وذلك عدا حصتي من الطعام المشترك الذي يقدم لجميع العبيد ·

ولو كان عملي محصورا في مشغل النجارة فقط لما كان من حقي أن اتشكى من شغل شاق ، ولكن الحالة لم تكن كذلك ، لأنه كلما وجد حمل ثقيل للنقل ، او وصلت سفن للدول الصديقة تحمل هدايا للداي ويحتاج الأمر الى انزالها الى الارض ، وكلما تطلب الامر ثقل الموازنة أو انزال شحنات من البنادق والذخيرة من سفن القرصنة أو اعادة شحنها (وهو عمل تحتاج اليه كل سفينة تحط او تقلع) ، دعي المتدربون في مشاغل الميناء للقيام بها . وهم يقومون أيضا بنقل البضائع من المخازن ويدعون للعمل في التحصينات ، بل وقد يرسلون على الطوافة لكي يقوموا بتنظيف الميناء من الوحل والأحجار ، ولنقل الحجارة لالقائها وراء حاجز لمنع الامواج من القفز عليه في حالة العواصف .

وفي هذه الفترة تم بناء مخزن هائل للعتاد الحربي ، غير بعيد من وزارة البحرية وحدائقها ، على مسافة نحو ميل من باب الوادي ، يتسع لجميع الزوارق الحربية التي تملكها الايالة . بنى هذا المخزن على أقواس ، وقد استعمل المتدربون لنقل التراب الذي يحفر من موقع البناء . وفي يوم الجمعة ، وهو يوم عطلة عند المسلمين ، كان يرسل أفواج من العبيد من البحرية للقيام بهذا العمل الذي كان أشق من كل العمل الذي نقوم به في غضون الاسبوع .

ليتخيل القارىء منظر ألف من هؤلاء العبيد البؤساء نصف عراة وبدون قبعة وحفاة يروحون ويغدون حاملين على أكتافهم أثقال التراب تحت أشعة الشمس المحرقة التي تحمل جلود بعضهم أثرها محلقي الرؤس والعرق يتصبب من اجسامهم ، ويعملون حتى الساعة الخامسة أو السادسة مساء بدون توقف. ويضاف الى ذلك ان هؤلاء البؤساء لا يتلقى الواحد منهم سوى رغيفين من الخبز الأسود صغيرين في اليوم ، لا يزيد وزن الواحد منهما عن 7 أوقيات (الأوقية نحو 3،5 جرام) وبشيء قليل من الفول أو الفاصوليا ، وفي كثير من الأحيان بدون قطرة من الزيت . وأما في يوم الجمعة فهم لا يتلقون سوى رغيف واحد لا يزيد وزنه عن 12 أوقية ، والخبز يوزع في ايام العمل بطريقة عشوائية حيث أنه يعجن في اليوم السابق ويمر بايدي كثيرة ويحدث كثيرا أن تسرق كميات منه أو تختفي بطريقة أو أخرى . ولكنه في ايام العمل يعطي الأسير كمية من البرغل ممزوجا بكمية من السمن الكريه الرائحة ، وهو أسوأ من الشحم الحيواني ، وأما درجة نظافته ، فيكفي أن أقول انه كثيرا ما عثر فيه على الفئران والجرذان وغير ذلك من الحشرات والحيوانات ، ومع ذلك فقد رأيت المئات من هؤلاء البؤساء اثناء مدة أسري يجلسون حول مائدة ليلتهموا هذا البرغل الذي أغليت فيه الحيوانات المذكورة بشراهة وكأنه يتناول حساء السلحفاة أو نوعا من الكعك الرفيع .

والسمن المستعمل لطبخ هذا البرغل هو في العادة بقايا السمن الذي يستهلكه الجنود في الثكنات والذي يمثل جزءا من الضرائب التي تدفعها تونس سنويا لايالة الجزائر • وهو بالطبع ، أسوأ قسم من ذلك السمن ، فهو يبقى عدة سنوات في قعر « الزير » والزير بدون غطاء ، وقد كان هذا السمن الذي لا يقبل أحد تناوله ، اذا وجد شيئا آخر ، يوزع على الطباخين مجانا وهم يقدمونه مع غذاء الكلاب أو العرب الشحاذين ، ولكنه الان يطبخ به البرغل مباشرة •

كان التراب الذي يحفر من تحت المخزن يوضع فوقه ليكون سطحا ، ولكن ثقل هذا التراب أدى الى سقوط سقف المخزن مرتين أو ثلاثا ، وفي كل مرة يدعى جميع الأشخاص المتوفرين لنقل ذلك التراب من جديد وللمساعدة في ترميم سقف المخزن ، وهكذا ، فان عطلة يوم الجمعة قد الغيت ، وحتى العبيد الذين يتلقون اجرا شهريا يدعون للعمل ، وذلك فيما عدا العبيد الذين يعملون في منازل بعض القناصل •

بني هذا المخزن تحت اشراف بناء يوناني يدعى" ديميتريوس" ولما انتهى العمل من هذا البناء تبين أنه لا يصلح للغرض الذي بني له أكثر مما يصلح أي اصطبل عادي • وبالاضافة الى المسافة التي تفصله عن البحر ، يتحتم نقل الزوارق الحربية اليه ، ونظرا لان الاقواس التي يقوم عليها يتداخل بعضها في البعض الآخر ، فان الزوارق التي ينقلها العبيد اليه لاصلاحها ترتطم بالاقواس مرات وتخرج من ذلك المستوى وهي في حالة أسوأ كثيرا مما كانت عليه قبل اصلاحها ، ومتى ظهرت سفن مسلحة للاعداء في الأفق بصورة مفاجئة ، تكون هذه الزوارق عديمة الفائدة كلية •

ومنذ ذلك الوقت أصبح الجزائريون يضعون زوارقهم الحربية في خندق جاف غير بعيد من أسوار المدينة ، ومن هناك يستطيعون اطلاقها للعمليات الحربية في وقت قصير جدا ، وهي على أهبة الاستعداد لخوض البحر في كل لحظة •

وفي مقابل ذلك ، يحتاج الأمر الى ثلاثة أو أربعة أيام لتركيب المدافع ولاعداد القوة النارية الكافية لمواجهة قوة العدو التي قد تظهر عند الشاطئ أو في الخليج • وبالنظر الى أن الزوارق الحربية الجزائرية غير مزودة باشرعة ومفتوحة ، على غرار ((اللنشات)) الاسبانية ، فهي ، من السهل تحطيمها • وهي انما تصلح للدفاع وليس للهجوم وتكون فعالة متى كانت تعمل تحت حماية المدفعية الكبيرة القوة والكثيرة القطع •

وما دمت قد شرعت في وصف البحرية الجزائرية ، فينبغي أن أواصل هذا الوصف لاقدم تقريرا عن قوة الجزائر البحرية في الوقت الحاضر ، وهو سنة 1786 وأن اصف البحرية وميناء مدينة الجزائر بتحصيناته ومراسيه ومخازنه ومعامله ومرافقه ، وهذا الوصف سيشمل ايضا موقع مدينة الجزائر ، الى حد ما .

* * *

الفصـــــل الخامـــس

وصـــف مدينـة الجـزائـر

بنيت مدينة الجزائر على منحدر هضبة مرتفعة ، ومن القصبة التي هي أعلى أطراف المدينة ، يمتد بنيانها حتى الجزيرة التي تشكل جزءا من المرفأ ، والتي أخذت منه المدينة اسمها ، وهذا الامتداد يشكل زاوية على نحو 35 درجة.

تقع هذه الجزيرة على مسافة فورلنغ (220 ياردة) من البحرية وترتبط باليابسة بممر معبد بالحجر هو من عمل العبيد خلال فترة تمتد على أكثر من قرنين من الزمن ، وهذا الممر يشكل حاجزا للبحر من الشمال وهو أعلى كثيرا من الحاجز الجنوبي الشرقي الذي يمتد قريبا من المرفأ ، وهو لا يزال أرضا على غرار مرفأ جنوه ، ولوغورن وغيرهما من المرافىء الواقعة على البحر الابيض المتوسط ، ويضرب فيه المد بضعة أقدام .

وعلى هذه الطريق السفلى تقع عدة مخازن ومستودعات ذات أقواس ، يخزن فيها الخشب وغير ذلك من لوازم بناء السفن وعلى حافاته بعض المدافع القديمة التي ترسو عندها السفن الحربية الصغيرة التي تحمل صفا واحدا من المدافع وسفن التجار المسيحيين ، وفي نهاية هذا الممر ، قرب الجزيرة ، يقع « كشك » يجلس فيه الأميرال قبطان الميناء وربابنة السفن يوميا في شكل محكمة الاميرالية ، وقد كانت احكامها في الماضي بدون استئناف ، ولكن وزير البحربة اصبح يتدخل كثيرا في هذه الاحكام في السنوات الاخيرة بحيث اصبحت الآن خاضعة للداي نفسه مثل جميع الاحكام الاخرى في هذه الايام ، بواسطة وزارته التي استحوذت على جميع مقاليد السلطة في البلد وتتخذ القرارات وتنفذها باسم الداي الذي هو الآن رجل عجوز ومقعد وقد ترك في جهل تام بكل ما يتصل بشئون الايالة الداخلية ، وكل وزير يحكم في ادارته الخاصة حسب رأيه وحسب ما يراه ملائما ..

وفي النهاية الأخرى للممر تقع الأبواب الخارجية لوزارة البحرية، وابوابها قوية • وكلا البابين الخارجي والداخلي يقع في زاوية مستقيمة بالنسبة الى الآخر بحيث لو سقطت قذيفة مدفع لما اصابتهما معا •

وبين البابين يوجد مقعد لحارس الباب ولعدد من الجنود الذين يجلسون هناك في النهار فقط • وبعد الباب الداخلي يقع مبنى الجمارك ، حيث يجلس خوجة مع عدد من الكتاب والأعوان ويستخلص الضريبة الجمركية على الصادرات • وأما الضرائب الجمركية على الواردات من البضائع الجافة ، فهي تجبى في قصر الداي ، ويقوم بهذه المهمة أحد كتاب الدولة • وعند باب البحرية الخارجي نصبت بطارية تتكون من عدة قطع من المدافع المتوسطة الحجم وقطعة واحدة كبيرة جدا ، وهي في الحقيقة للمظهر أكثر منها للاستعمال ، والكل تسيطر على المر المؤدي الى الجزيرة، وعلى مقربة من « الكشك » تقع قطعة مدفعية تستعمل للانذار (زنة قنبلتها ستة ارطال) وذلك لالفات النظر الى حادث وقع بالليل ، كانفلات سفينة حربية من مرساها الخ ، ويطلق بناء على أوامر قبطان الميناء الذي ينام دائما في البحرية حينما يكون الجو رديئا وفي فصل الصيف ، وهو لا يقضي الليل في منزله في هذا الفصل الا ليلة الثلاثاء وليلة الجمعة •

والسبب في اطلاق هذا المدفع هو ابلاغ الداي بوقوع الحادث الذي يجعل من الضروري ارسال مفاتيح بوابة البحرية التى يحتفظ بها في قصره منذ اغلاقها في الليل حتى فتحها في الصباح ، ولارسال العبيد من السجن الى موقع الحادث ليقوموا بما يتطلب الموقف منهم القيام به •

وقريبا من « الكشك » يقع مسجد صغير جميل بناه السيد علي حينما كان وزيرا للبحرية ، يقوم على أعمدة ومفروش بالمرمر الذي استجلب من جنوه ، وغير بعيد من المسجد يوجد مقهى يقصده للاستراحة فيه الربابنة وضباط السفن الحربية •

وعلى يمين المسجد يقع الفنار الذي بناه الاسبان أيام كانوا يحتلون الجزيرة ولكن هذا المبنى قد جدد وزيد فيه كثيرا ، وتحرس هذا البرج في الوقت الحاضر ثلاثة صفوف من المدافع تبلغ زنة قنابل أكبرها 36 رطلا ، على أن الصف الأعلى منها قلما يركب ، والفنار تتوجه حجرة ضوء مضاءة بالزيت ، وهي تبقى مضاءة طول الوقت مادامت السفن الحربية تتجول في عرض البحر ، ولكنها لا تضاء بعناية في أوقات اخرى ، وفي الوقت الذي كانت فيه الحرب قائمة بين الجزائر واسبانيا ، وعندما تكون السفن الحربية رابضة في المرسى لا يضاء الفنار اطلاقا •

وتحت بـرج الفنار يوجد سرداب تحت الارض كان يستعمل مستودعا للبارود ، ولكن مخزن البارود نقل اثناء مدة اسري الى القصبة ولم تبقى في هذا السرداب سوى كمية صغيرة للاستعمال الاني ٠

وفي هذا البرج ايضا صهريج كبير للماء العذب ، كما يوجد فيه مخزن لكمية كبيرة من القذائف المدفعية من مختلف الأحجام ، ترمي هنـاك بـدون ترتيب ، ومن هناك تنقل الى اماكن اخرى لايداعها والى بطاريات المدفعيات ، وعند راس المر تقع بطارية جديدة تتكون من صفين من المدافع لم تكن قد ركبت بعد عندما غادرت الجزائر ، واسفل الصفين لا يرتفع على مستوى البحر الا ببضعة اقدام ، وهذا الرأس من الصعب المرور عليه في حالة هبوب رياح قوية من الشمال الغربي في اتجاه الشرق حيث تعلو الامواج تلك التحصينات ، ولكنه في حالة الصحو تكون هذه البطارية بموقعها الممتاز قوية خطيرة الشأن٠

والمسجد المذكور يتصل بواسطة غرفة صغيرة تنطلق منها درج بالمخزن الذي يحتوي على جميع لوازم السفن ، وهي تقع تحت اشراف وزارة البحرية وتحت مسئولية محافظ المخازن في الايالة كلها، بمساعدة خوجة تركي وموظف مسيحي وما يتراوح بين ستة وثمانية من العبيد المسيحيين يختارون لكفاءتهم من بين الأوروبيين الذين يؤسرون في البحر ٠ وأما الاسبان الذين يهربون من حامية وهران فلم تكن السلطات تقبل احدا منهم حتى وقت متاخر حين قل عدد الأسرى الأوروبيين ٠

وقبل أن يصبح هذا المكان مخزنا ومستودعا بحريا ، كان قاعة لاستراحة المدير العام للبحرية (intendent Général) وقد فرش بفراش فخم وهو عبارة عـن سجاد وزود بالوسائد المغطاة بقماش رفيع من القطيفة مطرز الحواشي موضوعة على اريكة مغطاة بجلود الغنم ومزودة ببطانية رفيعة حمراء اللون ، وغطاء من الحرير يشمل الأريكة كلها ، الأريكة التي يستعملها للاستراحة او لغفوة قصيرة وقت القيلولة . والى جانب هذه الاريكة الى اليسار يوجد مقعد مفروش ببذخ اقل وضعت عليه سجادة يستعمله الزوار الذين يحضرون لتقديـم تحياتهـم واحترامهم للمدير العام ، او لفيلهارش ، حيث تقدم اليهم القهوة ٠ وكذلـك يستقبل هناك الاصدقاء الخواص حيث يقـدم اليهـم القهوجـي النرجيلة . والقهوجي هو رئيس العبيد في هذه الادارة ، وذلك فيما عدا الموظف او الكاتب الذي يتولى مسك الدفاتر ، وهو ليس له عمل آخر سواه ٠

وعلى يمين الأريكة وضعت صفة معدة لجلوس نائب مدير سجن «بيلك» والخوجة التركي ، وهناك ايضا مكان صغير حيث يجلس بعض العبيد المسنين

الذين يشتغلون بصنع صحون وسلل من الحبال القديمة ، وفي هــذا المكــان ايضا يحتجز مؤقتا الأشخاص الذين يرتكبون جرائم في السجن ليلا ، أو اثناء العمل بالنهار • ومتى كانت هذه الجرائم كبيرة ، ارسل مرتكبوها الى سجن قصر الداي ، الداي الذي يصدر الاحكام عليهم • وأما الجنح فيعاقب مرتكبوها في الحال في عين المكان : يلقى المذنب ووجهه الى الارض ثم تركب رجلاه على عمود طوله يتراوح بين ستة وثمانية أقدام ثم تربطان بحبل ويمسك بهما رجلان وهما في اتجاه عمودي بحيث تبدو أخامصهما ، في الوقت الذي يربط فيه رأسه وتقيد يداه ويجلس أحد حرس السجن علــى كتفــه لضمان عــدم حركته ، ثم يأخذ كل من نائب مدير السجن واثنين من مساعديه عصا في يده ويشرعون في الضرب بالتنــاوب حتى يستوفــوا ما يتراوح بيــن خمــس وخمسمائــة جلــدة •

وعقب ذلك ، اما أن يوضع المذنب في السلاسل ، أو يرسل للعمل أو الى المستشفى حيث يعالج ، وذلك طبقا لما تقتضيه الظروف •

يقع مشغل السلل (ج• سلة) الذي يعمل فيه العبيــد وراء السجــن ، وبجانبه يقع صندوق كبير يوضع فيه خبز العبيد الذين يقومون باستعراض أمامه بانتظام في الصباح وعند الظهر بمحضر الفيكلهارش ، في خضوع وخنوع وقلانسهم في أيديهم ، متى كانت لدى أحدهم قلنسوة ، ليتلقى كل واحد منهم رغيفا صغيرا أسود ، ثم يتحركون في طابور أمام رئيسهم في العمل وذلك في صمت تام كما لو كانوا بكما •

وعلى مسافة قصيرة يقع المنزل الذي يغلى فيه القار ، ثم تأتي بعد ذلك « السقيفة » ، وهو المكان الذي ينزل فيه الناس من جميع أنــواع القــوارب والسفن الحربية التي تقدم الى المدينة • وهنــاك يحيي العمــداء البحريــون (Commodores) الفيكــلهارش، قبــل أن يتجهــوا الى المدينة لمقابلة الداي أو لزيارة كل واحد منهم قنصلية بلده •

واذا لم يغادر قارب أو سفينة مرساها ، أمرت بانزال أشرعتها وأخذت مجادفها الى الأرض ووضعت تحت حراسة أحد الضباط البحريين الذي يراقب السفينة احتياطا لئلا يستولي عليها بعض العبيد أو يلتجيء اليها في محاولة الهرب من الاسر ، ومع ذلك ، فان العبيد يوضعون في السلاسل كلما أرست في الميناء سفينة حربية تابعة لبريطانية أو لفرنسا ، فــان هذين البلديــن يرفضان باصرار اعادة أي عبد يسعفه الحظ بالالتجاء الى احدى سفنهما ويطلب

الحماية تحت علمهما • وأما البلدان الاخرى فقد تنازلت عن هذا الحق مفضلة العار لتجنب المشاكل مع السلطات الجزائرية ، وقد أصبحت موضع ازدراء واحتقار من الاتراك والعرب على السواء •

يتلقى المدير العام للبحرية في الصباح وجبة خفيفة من زوجته متى كان متزوجا ، ويشاركه فيها ، عادة ، نائب مدير السجن والخوجه التركي • وبين الساعة العاشرة والحادية عشرة تصله أطباق من النحاس المطلي جيدا بالقصدير، مغطاة باطباق اخرى ، مليئة باللحم المحمر والمغلي ولحم الطيور ، والكسكسي الذي يطبخ عادة بدجاج مقطوع الاطراف ، وفي كل يوم يحضر صحن كبير من الشربة مع كوز كبير من اللبن من قصر الداي ، ونفس الكمية أو أكثر ، من منزله الخاص ، ويضاف الى ذلك كمية كبيرة من أجود أنواع السمك الذي يقدمه اليه صيادو السمك هدية ، ولكن الفيكلهارش يدفع ثمنه بسخاء ، ويتولى طبخه العبيد الذين يعملون في السقيفة • وهذه المأكولات بالاضافة الى خبز من النوع الممتاز ، هي التي تشكل الغذاء اليومي الذي يدعى اليه الأميرال وقبطان الميناء والرايس المحظوظ ، وغير هؤلاء من الاصدقاء الذين تأتي بهم الصدفة . ومتى تجاوز عدد الضيوف خمسة أو ستة ، تنازل الخوجه التركي عن مقعده للغريب ويأكل هو بعد ما ينتهون من الغذاء ، برفقة الموظف المسيحي والكتاب العرب ورئيس الصيادين ، وبعض الاخصائيين الميكانيكيين الذين لا يعدمون سببا يحملهم على المجيء الى ذلك المكان في وقت الغداء بالضبط ، وذلك على الرغم من انهم لا يدعون كثيرا للغداء ، هذا اذا استثنينا رئيس بنائي السفن ورئيس صانعي الاشرعة • والامر كله يتوقف على ارادة المدير العام في الوقت الحاضر • فان المسيحيين الذين يعملون في السقيفة يقصدون الى هناك لتناول الغداء ، وهم في العادة قلما يفوتهم الحصول على حصة الاسد ، بل وقلما يرجعون دون أن يدخروا بعض قطع المأكولات اللذيذة ، لانهم يجدون على المائدة أكثر مما يستطيعون أكله •

نسيت أن أضيف أن فواكه الموسم ترسل الى هذه المائدة من قصر الداي ومن منزل المدير العام معا ، وتؤكل كما نتناول نحن الحلوى بعد الطعام •

والآن أصف طريقة تقديم الغداء للفيلكهارش ، وألاحظ أولا أن الفرق الوحيد بين منازل الأغنياء وغيرهم هو أن هؤلاء يتناولون الطعام في غرف جميلة ويستعملون نوعا من المنضدة ذات ثمانية أرجل مصنوعة من أرفع أنواع الخشب ومطعما بالصدف وترس السلحفاة يبلغ ارتفاعه نحو ثماني عشرة بوصة يضعون عليها « السفرة » وهي عبارة عن صينية كبيرة مصنوعة من النحاس

المقصدر ، يوضع عليها الطعام ·وبدلا من الجلوس على مقاعد وثيرة يجلسون متربعين على السجاد ، متى كانوا من درجة واحدة · واما الدس يتناولون الطعام مع الداي ، فهم مضطرون الى ان يركعوا ثم يجلسوا على سيقانهم ويتناولوا الطعام في هذا الوضع غير المريح ·

ونفس القاعدة تراعي في منازل الكبار حين يكون الفرق كبيرا بين المضيف وضيوفه ، اللهم الا اذا اذن رب المنزل لهم بأن ياخذوا راحتهم ·

والخبز يكسر قطعا صغيرة ويوضع أمام كل واحد من الضيوف مع الملعقة. واللحم يقطع دائما شرائح قبل أن يطبخ · والطيور تطبخ عادة بكاملها وعندما تقدم للاكل تكون مطبوخة وناضجة بحيث تقطع أطرافها بسهولة ، ومن ثم ، فان الجزائريين لا يحتاجون الى استعمال السكاكين والفرش للاكل ·

والمنضطدة تغطى بقطعة من الموسلين تكون أطرافها مطرزة في كثير من الأحيان ويبلغ طولها عدة ياردات وتلف حول المنضدة بحيث لا تسقط أطرافها على الارض، وبعدما يتم تجهيز كل شي على هذا المنوال يرسل في طلب الضيوف الذين يغسلون أيديهم قبل الشروع في الأكل · وبعد ذلك تؤخذ المقاعد وتوضع بجنب الباب ويجلس الجماعة ويسدل ستار دونهم ثم يقوم خادم مسيحي وعلى كتفه منديل نظيف بوضع الصحون على المنضدة ، صحنا بعد صحن أمام كل واحد من الضيوف ، وينتظر الجميع حتى يبدأ رب الدار ، ثم يقوم كل واحد منهم برفع طعامه بواسطة معلقة الى صحنه ، وأما اللحم ، فيأخذه بيده ، يبدأ الجماعة أكلهم بالشربة ويعقبه اللحم المحمر ، ثم السمك ، متى كانت قائمة الطعام تشتمل على سمك ، ويأتي الكسكس الذي هو الصحن الرئيسي في الأخير وبه تختم المائدة · وعقبه تنظف المنضدة ثم توضع عليها الفواكه ·

يتناولون الشربة بمعلقة مصنوعة من ترس السلحفاة ويدها من العاج مزين بالعنبر والمرجان · وأما المعالق الصغيرة ، فهي مصنوعة من نفس المادة أو من خشب ثمين وتزين وتزخرف حسب ثروة مالكها ·· وهي تحضر من المشرق وتقدم هدايا أو تكون بضائع للتبادل التجاري ·

وعندما يشرب رب الدار أو ينتهي من طعامه يتمنى له الجميع صحة طيبة بقولهم « صحة عليك ! » ، ثم يشكر الله ثلاث مرات ثم ينهض من مقعده ويقف الضيوف معه ويتجه الجميع لغسل أيديهم ·

وعندئذ تحمل الصحون والمنضدة ويرفع الستار المنسدل وتعود الأمور الى النظام الذي كانت عليه من قبل ·

ياخذ الفيكلهارش مكانه ويجلس الضيوف على مقاعدهم لتقـدم اليهـم القهوة واحيانا الغليون ايضا حينما يكون المضيف مدخنا . وعقب ذلك ينهـض الجميع الواحد بعد الآخر حسب مراتبهم ويقبل يد الفيكلهارش ثم ينصرفون ، وبذلك تنتهي المأدبة .

لقد توسعت في ايراد هذه التفاصيل بسبب طابعها العام حيث انه لا توجد فوارق بين منزل وآخر اذا استثنينا الطبقة الفقيرة من العرب الذيـن يشاهد الكثير منهم جالسين في الشارع يأكلون الكسكس بايديهم في سلطانية صغيرة ، ولا يستعملون الملعقة أبدا وهم في حالة يرثى لها من الوساخة ، ويلاحظ أن سكان المدينة من اليهود هم أنظف جميع فئات السكان وأكثرهم امتناعا عن تناول الخمر . على أن هذه الفضيلة لا ترجع الى التمسك بالمبادىء ، بل الى التقتير والبخل ، ومتى دعى يهودي الى بيت كبير يأكل بشراهة ويتناول ما نعتبره نحن كميات ضخمة من الطعام . وهم في العادة يبررون هذه الشراهة قائلين انهم ياكلون اكثر من عادتهم نظرا لجودة الطعام الممتاز ، ثم يمدحون المضيف قائلين انه لم يكن ليدعوهم الى مائدته لو لم يكن راضيا عنهم .

في الطريق الى السقيفة تقع ورش صناعة النحاس ومشاغل النجـــارة واحواض بناء السفن ، والحدادين الخ ، وفي ورش الحدادة وحدها يعمل نيف وستون من المسيحيين ، ولقد رأيت بعيني أطباء وقساوسة وممثلين وتجـار وغير ذلك من الشخصيات الثقافية من الاسرى ينفخون منفاخ الحداد ويبكون في صوت واحد حظهم العاثر .

من هذه النقطة حتى نهاية المرسى ، ترى ثلاثة أبراج ، وهي :

١ - برج سردينيا .

٢ - برج « كورديلييروس »

٣ - برج « البوانت » (Point) أو الرأس - سمّي بذلك لموقعه .

وهذه التحصينات تشكل سلسلة تتكون من صفين من المدافع الثقيلة ، معظمها من النحاس الأحمر ، بعضها تعتبر من أجمل قطع المدفعية في العالم . ونظرا لان هذه الأبراج تقع في نصف دائرة ، فان الخط البحري الذي يمتد من الكشك حتى الرأس ، يمكن اعتباره واجهة من التحصينات المتصلة ، ستكون قادرة اذا احتفظت بحسن النظام ، على صد قوة بحرية كبيرة . ولكنه نظرا لان

جميع الأبراج لا تملك خطا اماميا من الألغام والمواقع المحصنة ، فان الدفاع الوحيد الذي يمكن أن يقوم به الجنود عنها ، هو اطلاق نيران المدافع والبنادق من فتحات في أسوارها •

ورجال المدفعية الثقيلة والخفيفة لا يملكون علما ولا تدريبا ، كما ان الجنود الذين يقعون تحت أوامرهم من الأتراك والكرغليين والعرب تنقصهم الطاعة والنظام ، وضباطهم يجهلون التكتيك العسكري الحديث مثلهم • وقد تعود الجنود أن يروا المسيحيين الأسرى يقومون بجل الأعمال التي يجب أن يقوموا بها هم أنفسهم (في الصيانة) • ولكن المسيحيين يبعدون في حالة الحرب عن المدينة ويرسلون الى الأرياف • وفي هذه الحالة سوف يجدون أنفسهم غرباء عن المدافع والبنادق التي يكلفون باستعمالها • فلو أصيبت قطعة مدفعية بخلل نتيجة لأعمال العدو لوجدوا من الصعب عليهم اصلاحها واعادة تركيبها ، وذلك على الرغم من أنهم لا يقلون ذكاء عن اعدائهم ، ويضاف الى هذه الاعتبارات ان معظم الابراج والحصون مبنية بحجر هش ولا تتمتع أسوارها بالمتانة الضرورية ، وقد يحدث انهيارها من الخسائر في الأرواح بين المدافعين ما لا يقل عما تحدثه قذائف الاعداء من الضحايا •

وعلى الرغم مما يقال من أن سقوف هذه الابراج تتمتع بمناعة ضد القنابل، فان مجموع هذه الاعتبارات يحملني على الاعتقاد بان كتيبة واحدة تقاتل بالطرق الحربية الحديثة ويحميها اسطول مصمم ، خليقة بأن تقضي ، وفي وقت قصير ، على جميع هذه التحصينات في المرحللة الاولى قبل ن تدمر مدينة الجزائر كلها ، اذا رفضت حكومة البلد الاستسلام للمهاجمين في مرحلة تالية •

وفي الزاوية الشمالية للبحرية يوجد مدفع ضخم مركب على عربة وضع عند أحد الأقواس لا يبدو أن له اية فائدة عدا كونه يشغل ذلك الفراغ، وهذا المدفع الذي احضر من القسطنطينية يبلغ قطر فوهته 20 بوصة وطوله 21 قدما ، وهو مطوق بالحديد ، من المفروض أن يطلق قذائف من المرمر ، ولكنه لم يستعمل قط •

وعلى مسافة نحو فرلنغ يقع باب البحر أو باب صيادي السمك وذلك في الجنوب الغربي من المرفأ ، وقد وضعت تحصينات للدفاع عن هذا الباب تتكون من صفين من المدافع التي تسيطر أيضا على مدخل الميناء والطريق التي تمر أمامه •

وأمام البوابة يقع حوض يقـوم فيـه الأفـراد ببناء قـوارب الصيـد والفليوطات الصغيرة وبعض السفن التي تسير بالمجادف ، بل والسفن الحربية ايضا . والسفن الحربية تصنع لحساب الحكومة .

وفي حوض بناء السفن التابع للبحرية ، وهو طويل الشكل، توجد بارجة وسفينة حربية شراعية ذات صاريتين وغليوطة وأربعون زورقـا حربيـا ، وهذا أكبر عدد رأيته في حياتي للسفن التي يجري بناؤها واصلاحها في نفس الوقت ، والحوض ممتلىء بحيث لم يعد يوجد فيه مكان لسفينة واحدة أخرى .

وعلى الرغم من وجود كميات كبيرة مـن الأجهـزة والمعـدات في مخازن البحرية ، فان هذه الكميات ليست من الضخامة في الدرجة التي يتصورها البعض ، وأكثرها غير صالحة للاستعمال بسبب فسادها نتيجة للرطوبـة المنتشرة في المخازن ، وكذلك يسرق العبيد كثيرا من المعدات ويبيعونـها فـي المدينة لملاكي السفن التجارية من الخواص .

لقد أتيح لي أن أعرف أن كابلات ذات قطر واسع بيعت كلها بهذه الطريقة وفي وضح النهار ، ونظرا لان شحنة كبيرة كهذه لا يمكن أن تخرج من المخازن بدون علم الحراس ومحافظي المخازن ، فانه ليس من باب كيل التهم جزافا أن نفترض ن بعض هؤلاء يأخذون حصتهم من ريع المبيعات التي تخرج بهذه الصورة ، فأن أشرعة وأنابيب والواحا لبناء السفن وسلات مملوءة بالمسامير واعمال الحديد وجرات من الزيت وبراميل من اللبارود قـد سرقت بهذه الطريقة ومرت بالميناء بحجة انها تتجه الى مصلحة حكومية في داخل المدينة و خارجها. وهكذا ، وبهذه الطريقة يعوض بعض الاسرى لانفسهم فقد حريتهم ويجنون هم وبعض الحرس المال لشراء أسلحه نارية مزينة بالفضة والملابس الفاخرة .

يمتد المرفا على مسافة 200 قامة (Fathom = 6 أقدام) طولا ومائة قامة عرضا . وعمق فـم الخليج عند المرفا هو ٧ قامة ويقل العمق كلما اقترب البحر من الشاطىء .

توجد طوافتان تقومان بسحب السفن الى الميناء كما تقومان أيضا بتنظيف قاع البحر عند المرسى من الوحل والاحجار ، وهذا العمل الاخير الذي يعتبـر وسخا وغير مريح انما يقوم به العبيد ، وهاتان الطوافتان كثيرا ما توجهان الى راس بيسكادو ، في العادة يوم الجمعة (وهو اليوم المقرر لراحة العبيد الذين يقيمون بالسجن) لشحن احجار كبيرة الحجم يبلغ وزن الواحدة منها أحيانا عدة أطنان ، وذلك لالقائها وراء حاجز البحر لمنع الامواج من الطغيان عليه في أوقات العواصف ونقل الحجارة ورميها يمثل عملا شاقا للغاية .

بما أنني أنوي تقديم فكرة للقارىء عن قوة الجزائر البحرية خلال بضع سنوات ، فقد تراءى لي أن أعرض صورة تسهل عليه فهمه للموضوع عن تجهيز السفن الحربية للخروج وعن طريقة عملها وكيف تعود من القرصنة ٠

عندما تكون السفن الحربية راسية في الميناء ، تجرد من جميع أجهزتها ومعداتها ، وحتى ثقل الموازنة الذي يتكون من الأحجار والرمل ينزع من ظهر كل سفينة ويوضع في المخزن التابع لها (وكل سفينة لها مخزن لا تستعمله سفينة اخرى غيرها) بحيث لا يبقى على ظهر السفينة سوى السارية والخشبة التي تشد الى السارية لتثبيت الأشرعة ٠ والسفينة ترسو بالرأس والمؤخرة ٠ والسفن الصغيرة تشد حبالها غير بعيد من السفن الحربية الكبيرة التي ترسو عند الجزيرة غير بعيد من منزل للقار ومجموعة من المخازن الحديثة البناء ، وهي كلها غير مستعملة ٠

وأما السفن التجارية التابعة لمختلف الدول ، فهي أيضا ترسو بنفس الطريقة في وصف واحد في الموقع الذي يكون فيه الماء اضحل ما في المرفأ ، وأما البوارج والسفن الكبيرة التي تنقل هدايا مختلف الدول الى الداي ، فهي ترسو عند فم الميناء ٠ ومدخل الميناء تحرسه باستمرار سفينتان كبيرتان تسيـــران بالمجادف وعلى متن كل واحدة منهما واحد وعشرون بحارا ، والمهمة المحـــددة لهاتين السفينتين هي بالضبط منع العبيد من محاولة الفرار بالسفن أو بقوارب الصيد ٠ ولهذا السبب بعينه ، تمنع قوارب الصيد من الدخول الى المرفأ ٠

وهاتان السفينتان لا بد وأن تكونا أول فريسة لأي اسطول أجنبي يحاول تدمير السفن الحربية الجزائرية ٠ ولكنه نظرا لان أية محاولة من هذا القبيل لم تقع ، فان رجالهما أبعد ما يكونون عن اليقظة المطلوبة ، ولو وقع عليهما أي هجوم أجنبي لما كان في وسعهما القيام بأية مقاومة جدية ٠

حينما يصدر الداي أمرا بتجهيز الأسطول للخروج ، يفرض حظر مغـادرة السفن التجارية للميناء ويحبس العبيد حتى الغسق (منعا لمحاولات التسلل للهروب) ، ويعين لكل سفينة حربية خبير في معاينة الأشرعة واصلاحهـــا ويعمل تحت أوامره ثلاثة من البحارة أو أكثر في الوقت الذي تهيأ فيه السفن للابحار ، وبعدما تنفتح أشرعتها وتسد الحزوز في قيعانها ، يأتي مرابط ليقرأ الفاتحة ويدعو للسفينة أن تحقق نجاحا في عملياتها ضد أعداء الدين الاسلامي الذي هو الدين الحقيقي ٠

وهذا الاحتفال الديني ضروري لخروج السفينة الحربية ، لان البحارة المسلمين لا يقبلون الخروج الى عرض البحر اذا اهمل تنظيمه ٠

واثر ذلك ، يقوم العبيد بوضع ثقل الموازنة والذخيرة والمئونة وجميع لوازم الرحيل على متن السفينة ، والمواد الغذائية التي تشحن عليها تشمل « البيسكويت » والخل والزيتون ، وبعض السمن القديم والمحمصة ، والبرغل بالكميات الكافية لضمان توفير وجبة ساخنة من الطعام للبحارة مرة في الاسبوع ، ذلك كل ما تسمح قوانين الأيالة بتزويد السفن الحربية به من المواد الغذائية وبكميات لا تتجاوز ما يستهلك في مدة أربعين يوما ٠ ولكن الذين يريدون أن يتزودوا بأكثر من ذلك وبانواع اخرى من الأغذية يمكنهم ذلك ، ومن ثم ، فان مؤخرة السفينة تكون عادة مملوءة بالجرات والسلات المليئة بنوع أو آخر من الأطعمة ٠ وهكذا تظل السفينة مشحونة باشياء مبعثرة هنا وهناك وكلها مما يستهلكه البحارة ، لمدة عدة أيام عقب رحيلها في عمليات القرصنة ٠

وبراميل المياه الفارغة التي تؤخذ من السفينة عند رسوها تعاد اليها عند الرحيل مليئة وقد عبأها العبيد من عين عذبة المياه تقع قريبا من البحرية ٠ على أن العبيد الذين يملئون تلك البراميل لا يأخذون بعين الاعتبار عامل النظافة ، حيث انهم لا يتناولون منها شيئا ، وهذا هو السبب في أن ماء الشرب الذي تتزود به السفن الحربية يفسد بعد بضعة أيام من بداية رحلتها ٠

واخيرا يقوم العبيد بتثبيت الأشرعة ثم يرفع العلم الجزائري ، ثم علم الداي ثم اعلام كبار شيوخ الطرق ، والى جانب هذه الاعلام ترفع أيضا أعلام الدول التي هي في حرب مع الجزائر ، وعلم الدولة التي خرج الأسطول للبحث عن سفنها ، على شراع السارية الأولى ولكن بصفة معكوسة فيكون أعلاها اسفلها ، وذلك للسخرية والازدراء ولاهانة تلك الاعلام ، وعقب ذلك ، تطلق المدافع عدة طلقات ايذانا بأن الاسطول على أستعداد للرحيل واعلانا للبحارة بان يلتحق كل واحد منهم بسفينته ٠

معظم رجال « الطايفة » من الأتراك ، والجنود والضباط خليط من العرب والأتراك الكراغلة (جمع كرغلي) ، والفئة الأخيرة قلما تبلغ نسبتها ثلث مجموع البحارة ٠

والبحارة يزودون انفسهم باسلحة على نفقتهم الخاصة ، وهي تتكون من «ياتجان» وبندقية ومسدس ، وبعض الضباط يملكون بندقية «بلوندربوس»(1) ، يستولون عليـه أو هي مما يعود اليهم من الغنائم التي ياخذونها من سفن البلدان المسيحية ٠

ويشرف على شئون السفينة مجلس يتكون من الرايس وعدد من الضباط وآغا وخوجه ، يعينهم الداي ويملكون حق الموت والحياة ما دامت السفينـة في عرض البحر ، ولكنهم قلما يؤكدون سلطتهم الى حد أبعد من الجلد والسجن، بسبب تخوفهم من نتائج عقاب أشد من ذلك لدى وصولهم الى الميناء ٠

والذين يمكن أن يطلق عليهم اسم البحـارة يتكونون مـن اولئـك الذين خرجوا من قبل في جولات مع الأسطول ، وبعد عودتهم الى البر يمارسون مختلف المهن ، ويكون من بينهم الخياط والاسكافي والحلاق الخ ، والباقي ، عبارة عن خليط ممن ينتمون الى طبقة منحطة من سكان المدن ومن العرب الذين يسكنون الأرياف ، وهؤلاء يصعدون الى متن السفن عندما تكون جاهزة للاقلاع بواسطة القوة ، فيجرهم الجلاد قسرا الى المرفا وكانهم قطيع من الغنم دون أن ياخذوا معهم شيئا من الزاد أو المتاع سوى ما على ظهورهم من الأسمال ٠

ومتى تمت تعبئة السفينة بالبحارة والضباط ، جلس ضابـط وفي يـده سلطانية من خشب مليئة بالفول في طرف السفينة وجلس ضابط آخر فـي الطرف الآخر وفي يده سلطانية فارغة ، وعندئذ يؤمر أفراد طاقم السفينة بأن يأخذ كل واحد منهم حبة من الفول من السلطانية المليئة ليضعها في السلطانية الفارغة ويدور في طريقه بالسارية الرئيسية ، وبعد ذلك تعد حبات الفول في السلطانية الأخيرة ويتاكد الرئس بما اذا كان عدد الطاقم كاملا ٠ ولكنه اذا تجاوز العدد 500 بحارا وهو العدد المطلوب في سفينة حربية ، أخذ الشيوخ وذوو العاهات وأعيدوا الى البر ٠

وعند ذلك يحل العبيد سلاسل الرسو ويسير قبطان الميناء ومساعدوه في مقدمة السفينة ويرشدونها حتى تخرج من الميناء وتدخل في عرض البحر ، ولدى مرورها بقبة أحد الأولياء تطلق عدة طلقات بالمدافع للتحية ثم تختفي ٠

وفي المرسى يقوم العبيد المسيحيون بجمع السلاسل والحبال التابعـة للسفينة المقلعة ويضعونها في المخزن في انتظار عودتها ٠

---

(1) بندقية قديمة واسعة الفم وتطلق عدة طلقات متوالية على غرار الرشاشة ٠

ولدى عودة السفينة بغنيمة بعد جولتها ، تشرع في اطلاق المدافع بمجرد ما تصبح على مرأى من المدينة ، وهي تحمل عدة أعلام ورايات ترفرف في الهواء ، وفي مقدمتها علم الدولة ، التي أسرت سفينتها وهو مقلوب عاليه سافله ٠

يخرج قبطان الميناء ومعه مساعدوه وعدد من العبيد في زورق لاستقبال السفينة العائدة ولارشادها الى المرفأ حيث ترسو كما كانت قبل اقلاعها ٠

تعقب عودة السفينة مظاهرات ويسود جو من السرور والحبور على قدر عدد الاسرى وقيمة الغنائم التي عادت بها ٠ ومتى عادت السفينة خائبة وبدون أية غنائم لا تطلق المدافع ولا تنتظم مظاهرات ولا يسود الصخب المعتاد ، بل تبدو على وجه كل واحد علامات الحزن وخيبة الأمل ٠ وفي هذه الحالة يكون ربانها عرضة لانزال درجته ، بل وأكثر من ذلك ، كثيرا ما يجلد ويسجن ويعزل من القيادة كلية ، وتكون العقوبة كبيرة خصوصا متى تشكت « الطايفة » منه أو وقعت حوادث عدم طاعة الاوامر التي يعطيها الداي شخصيا على أساس المعلومات السرية التي يقدمها اليه اليهود الذين يمدونه بالمعلومات بانتظام عن جميع الدول التي توجد في حالة حرب مع الجزائر ، مما يتجمع لديهم من السفن التي تتردد على الموانىء الايطالية ومرسيليا وغير ذلك من الموانىء الواقعة على البحر الابيض المتوسط ٠

وحينما تعود السفينة بأسرى ضمن غنائمها ، يقصد رئيس الموظفين المسيحي الذي يعمل في قصر الداي الى الميناء ويصعد على متن السفينة فور وصولها ويقودهم الى البحرية أولا ، ومن هناك الى قصر الداي حيث يقدم تقريرا في الموضوع الى الداي ٠

يسمح للأسرى بالاقامة في القصر ليلة كاملة ، وفي صباح يوم الغد الباكر يقدمون الى الداي بواسطة رئيس الموظفين المذكور والذي يختار من بينهم من هم صالحون للعمل في القصر بينما يرسل الباقي الى سجن « بيلك »٠ وفي نفس الوقت تسجل اسماؤهم وأسماء البلدان الذين ينتمون اليها في سجل الايالة المعد خصيصا لذاك والذي يحفظ في مكتب رئيس الموظفين المسيحيين الذي هو الجهاز الذي يشرف على الأسرى المسيحيين في جميع انحاء الأيالة ٠

وبعد ذلك ، يسلمهم الى نائب رئيس السجن الذي يرسلهم في اليوم التالي للاشغال ، بعدما يستعرضهم رئيس الموظفين أمام المدير العام للبحرية ٠

وبينما ترسو السفينة العائدة من الطواف يرسل القبطانات المسيحيون ومساعدوهم وعدد من العبيد ليطووا الاشرعة ، وفي نفس الوقت يغادر البحارة

كلهم ، باستثناء المضيفين ،في الحال السفينة حاملين امتعتهم وما بقي من زادهم ، بينما يعمد العبيد الى رفع اجهزتها لخزنها حتى ياتي موعد رحلتها القادمة •

ان عدد البحارة الذين يرافقون السفينة كبير ، كما سبق ان ذكرنا ، ولكنه لا يحمل السلاح منهم أكثر من نصفهم ، وهؤلاء البحارة سوف لا تتاح لهم الفرصة بعد نزولهم الى البر لرؤية السفينة التي طافوا بها حتى رحلتها القادمة ، وهم بعد لا يعملون دائما على متن نفس السفينة • ولهذا الاعتبار يمكن أن نتصور قلة خبرة هؤلاء البحارة وضآلة معرفتهم بسفينتهم والاضطراب والفوضى التي تسود على متن السفن خلال الايام الاولى التي تعقب اقلاعها من الميناء •

ان هؤلاء البحارة يدركون ان نيران مدافع السفن المسيحية اقوى من نيران مدافعهم وأكثر احكاما ، ولهذا السبب ، فهم حريصون على محاولة القفز الى سفينة الاعداء والسيطرة عليها بعد الطلقات الاولى للمدافع مباشرة . وعلى الرغم من أنهم أقل خبرة بفن الملاحة وتسديد نيران المدافع من البحارة المسيحيين ، فان البحارة الجزائريين أكثر شجاعة ونشاطا وجرأة من البحارة الأوروبيين •

أنهم يعتقدون انه ما من أحد يستطيع أن يقف في وجه تهورهم، وهم متأكدون من انتصارهم متى وضعوا أقدامهم على ظهر سفينة العدو ، ولهذا السبب يجب الحذر من امتطائهم سفينتك ، وكاعداء يجب الا تقلل من خطرهم•

وبعدما وصفت التحصينات التي تحيط بميناء الجزائر ، سأعمد الآن الى وصف جميع التحصينات التي تحيط بالمدينة وذلك بما ينبغي من التفصيل والتدقيق ، وابدأ بالقصبة وقصر ملوك العرب القديم الذي بني في أعالي المدينة والذي يمثل الزاوية الغربية للمدينة • انه بناء مثمن الاضطلاع ويحتوي على عدد كبير من الاجنحة ، وأكبر هذه ا جنحة قد حول الان الى مستودع للبارود •

تقول رواية يجمع عليها العرب انه حينما اغتال عروج بربروس « انتمي » (ابن التومي) آخر ملوكهم في سنة 1516 ، بقيت أمواله في القصر ، وقيمة هذه الأموال غير معروفة ، وقد تكون قليلة أو كثيرة ، بل ولربما لم يكن يوجد شيء منها على الاطلاق ، وهو الأرجح • وقد وضع عند باب القصر حرس على راسهم آغا ، تقليدا للمعمول به في قصر الداي ، وقد أصبح يربى فيه الطاووس وغير ذلك من الطيور كما احتفظ على جميع مظاهر التشريف لهذا القصر كما لو كان قصرا ملكيا حقيقيا •

وهذ ه المكانة التي يتمتع بها القصر منحت له رعايه من الاتراك لشعور سكان الايالة من العرب الذين لا يزالون متمسكين بولائهم لاسر ملوكهم السابقين ، وهم على استعداد في كل وقت للتخلص من ربقة الاتراك لو اتيحت لهم فرصة معقولة للنجاح ٠

ان زوايا سور القصبة تحتوي على فتحات منتظمة وراءها عدة قطع من المدافع ركبت للدفاع عن المدينة ٠

لمدينة الجزائر خمسة أبواب ، وهي : باب الصيادين وهو باب البحرية الذي سبق ذكره ، وباب الشمال ، أو باب الوادي ، والباب الواقع في الزاوية الجنوبية الغربية من المدينة (باب جديد) والباب الجنوبي ، أو باب عزون ، وكل باب يحميه حصن ياوي عدة قطع من المدافع مركبة فيه كما توجد مدافع في طريقه ٠

وللباب الجديد ساحة نصبت فيها بطارية من المدافع ، وتربط بين القصر، الحصن ، والقصبة ويشرف على باب الوادي وباب عزون معا ٠ وفي هذه الطرق توجد هنا وهناك متارس وفتحات في الاسوار للاسلحة الصغيرة لاستعمالها في حالة الغزو ولكنها تحتاج الى الاصلاح والترميم ٠

وأما الخندق الذي كان يحيط بالمدينة سابقا ، فيما عدا مواقع صغيرة عند الباب الشمالي والباب الجنوبي ، والذي هو قليل الفائدة على كل حال لصد غزو أجنبي ، فقد أصبح الآن مهملا كلية ومليئا بالقاذورات والاوساخ التي تخرج من القصبة ومن باب عزون ومن باب الوادي ، وهو يمتد منحدرا على نصف ميل وتسيطر عليه المدافع المنصوبة في حصن الأمبراطور ٠

وأما ضواحي مدينة الجزائر في الجنوب وفي الشرق ، فانني لا استطيع وصفها بافضل مما سجلته في مذكراتي التي أقتبس منها الفقرة التالية :

« صدرت الاوامر لجماعة من العبيد بان تستعد للسير ساعتين قبل طلوع النهار لمسافة عدة أميال لكي تحصد السمار لصنع شمعة الاسد وطلبت الاذن لي بمرافقتهم ، وفي الساعة المحددة سرنا على ظهر البغال وخرجنا من باب عزون ، ومررنا على عدة بطاريات من المدافع المنصبة على رأس الخليج ، حتى وصلنا الى وادي الحراش الذي يبعد بحوالي أربعة اميال عن المدينة وقطعناه ، على جسر مبني بالحجر ، وهو جسر حسن البنيان في الأصل ، ولكنه ترك في حالة تهدم يرثى لها ، وعند الجسر راينا لوحة من المرمر مكتوبة باللغة التركية ولكنه لم يتمكن أحد من أفراد جماعتنا من قراءتها ٠

ومن هناك سرنا حتى وصلنا الى مستنقع صغير ومررنا به ثم واصلنا سيرنا في طريق حسنة نوعا ما تتجه في خط مواز لجبال الأطلس ، وقطعنا النهر مرة اخرى في اتجاهنا الى الجنوب ، وبعد مسيرة نحو فرسخين وصلنا الى مكان كثير الماء يشبه مستنقعا توجد فيه أشجار التين ، الذي نضج واصبح جافا بفعل الشمس الشديدة الحرارة .

وبينما كانت الجماعة تحصد السمار وتشحنه على البغال ، قمت انا بجولة على بغلي استغرقت نحو ساعتين في البلد شاهدت خلالهما عددا من رجال « القبائل » (البربر) ، أو الجبليين ، وهم قوم مسالمون كما نتصور اي جنس من المزارعين الهادئين ، وقد واصلت جولتي حتى رأيت النهر يتخذ اتجاها جنوبيا تقريبا ، عند رأس تمندفست ، وهو الرأس الشمالي الشرقي لخليج الجزائر ، ولكنه هنا يتجه الى الشمال الغربي .

وهنا تتشعب الطريق شعبتين تؤدي احداهما الى قسنطينة والاخرى الى المدية ، وعند مفترق الطرق شاهدت اسرة عربية تغسل الثياب عند عين ثرة وقد كانت من الكرم بحيث قدمت الي بعض الكمثري وعددا من التفاحات التي لم تكن قد نضجت بعد ، ولكي أرد الجميل بالجميل ، قدمت اليها بدوري مبلغ « ماصون » وهو ما يساوي 15 سنتا ، وقد كانت تبدو على افرادها الغبطة والسرور حينما تلقت هديتي ، كان أكبر ابناء العائلة بنتا يبلغ عمرها نحو 11 سنة ، وقد مسكت بعنان بغلي حينما نزلت عليه . كانت البنت صبوحة الوجه وجميلة ، وقد كان جميع أفراد العائلة يلبسون ثيابا من الصوف يسمونها « الحايك » مشدودة عند الكتف وتنزل مسترخية لتغطي الجسم كله مربوطة بحزام من نفس القماش .

ان ضواحي مدينة الجزائر تشبه ، اذا استثنينا تلك البساتين التي تملكها بعض الشخصيات والتي هي محاطة باسوار ، تلك المستعمرات الأولى التي اقيمت في أمريكا ، وهي تنتج جميع أنواع الفواكه التي تنتجها بلاد البربر وبكثرة ، والمنطقة كلها مزروعة وتوجد فيها موزعة هنا وهناك أشجار التين والرمان والنخيل وكذلك ينبت فيها دون أن يغرس نبات النعناع والمريمية والكزبر .

عدت الى حيث تركت الجماعة من نفس الطريق التي سلكتها في الذهاب، وفي طريق عودتنا عن طريق المستنقع وجدنا عددا كبيرا من الاشخاص يتخلصون من الدام الزائد بالعلقة ، ومعظمهم في داخل المستنقع . وبعضهم كان يحتفظ على 81 علقة معلقة بجسمه في نفس الوقت .

وقد سلكت الطريق الموازية للبحر وتركت بقية الجماعة لتسير في نفس الطريق التي جئنا بها . والمنطقة التي مررت بها منطقة قاحلة اكثر ما فيها الرمال ولا شيء يستحق الملاحظة ، كما انه لم يقع حادث يستحق الذكر قبل أن يتخذ رأس تمندفست الاتجاه الشمالي ، هناك تل رملي مرتفع يسد الطريق كلية بين رأس الجون والضاحية ، وهو يمثل حاجزا طبيعيا بطول امتداده ضد أي غزو يتجه الى المدينة .

وبين هذا التل ورأس تمندفست توجد بطارية من المدافع ، وعلى الراس نفسه يقع حصن ترابط فيه حامية تركية بصفة دائمة .

وعلى مسافة ميلين من التل في اتجاه المدينة توجد بطارية اخرى من سبعة مدافع زنة قذيفتها ١٢ رطلا . وهنا يمتد الخندق الذي تخلوا عنه في سنة 1775 ، حينما نزل الاسبان في هذه المنطقة بقيادة الجنرال رايلـي (O. Reily) وقد كان المكلف بالقيادة لهذا الجيش هو « بيدرو كاستيجون » (Pedr Castigon)

وهذا الخندق تمتد آثاره حتى مسافة نحو ميلين من المدينة . على أن هذا الخط الدفاعي يندثر بسرعة ، وقد وضعت للدفاع عنه بين البطارية المذكورة والمينة ، نحو ٦٠ قطعة مدفعية كانت حيما رأيتها كلها مفككة وفي حالة يرثى لها من الاهمال ومركباتها كلها مودعة في مخازن بنيت خصيصا لها عند كل بطارية ، حيث تطلى هي والمدافع بالقار مرة في السنة ، وهذه العملية التي يقوم بها العبيد هي كل ما تجده من العناية والصيانة ، ومن ثم ، فلا غرو أن يكون عدد من القطع التي شاهدتها في حالة تفتت تام .

وهذا الجون تحميه أيضا مدفعية حصن الامبراطور (سمي كذلك لانه اقيم بناء على اوامر الامبراطور شارل الخامس اثناء حملته الفاشلة في سنة 1541 م) . وهذه المدفعية من شأنها أن تجعل نزول قوات بحرية أجنبية في الجزائر عملية في منتهى الخطورة ، لو احتفظ بتلك المدفعية في حالة جيدة ونظام . والاستيلاء على هذا الحصن هو أيضا من اشق الامور ، حيث انه مزود بجسر قابل للرفع ، على أن معظم قطع مدفعيته توجد الان في حالة تفكك ، والحامية الوحيدة التي ترابط فيه عبارة عن عائلة تركية ... تقيم فيه لتحرس مستودعا وضع تفيه كمية من البارود .

ان الجزائريين يشعرون بأمن تام ومناعة من الغزو الاجنبي بحيث انهم اهملوا تحصين تل يسميه المسيحيون « بيلفدير » يشرف على المدينة مباشرة في الجنوب الغربي يمكن الدفاع منه على قصر الامبراطور . وهذا الموقع سيكون ، بدون شك ، اول موقع يستولي عليه جيش اجنبي يغزو البلاد .

ومن هذا التل ، تبدو مدينة الجزائر بتحصيناتها البحرية وميناءها وسفنها ومناراتها وضواحيها وهو منظر من اجمل واروع ما تقع عليه العين في العالم كله ، ولو اتيح لهذا البلد نظام للحكم كفوء يعمل لرخاء شعبه ويشجع الزراعة والفنون والصناعة لاصبح بدون شك ، في ظرف بضع سنوات قطعة من جنة الخلد .

ولو وجدت على راسه حكومة رشيدة لتحول من معقل للقراصنة وقطاع الطريق كما هي الحال الآن الى امة تجارية كبيرة ولاصبحت من بين البلدان الصناعية المتقدمة .

ولكن الدول الاوروبية الغيورة على مصالحها والتي تتخوف من منافسة الجزائر لن تسمح لهذا الشعب ولبلده بان يصبح بلدا صناعيا تجاريا، الا اذا أخضعته لسيطرتها كلية .

نابليون بونابرت لم يقم على راس جيش تعداده مائة الف مقاتل ليحتل مواقع في بلاد البربر ، فلو فعل لامكنه ان يخضع كل هذه البلاد من سلى حتى درنه في ظرف أقل من سنة واحدة .

يبعد باب الوادي عن بستان حسن باشا الذي ترسو عند سوره زوارق حربية بحوالي ميل انجليزي واحد (ميل : 1760 ياردة) في اتجاه الشمال الغربي ، وهذا المستودع لم يعد يستعمل اثناء اقامتي في الجزائر للزوارق الحربية حيث أنه أصبح عبارة عن شاطىء رملي جاف وخندقا موازيا لسور المدينة .

وعلى مسافة فورلنغ من باب الوادي يقع حصن « سيد عكوليت » (Sidi Acoleet) (1) وهو مبني بشكل اكثر انتظاما من أي حصن آخر . وهو يحتوي على نفق يخرج منه لمسافة قصيرة استعمل وقتا ما مستودعا للبارود ، ولكنه نظرا لوقوعه قريبا من الشاطىء ، فقد اكتشف انه يحتوي على درجة قوية من الرطوبة ، وبالتالي ، لا يصلح للغرض الذي يستعمل له ، وهكذا نقلت كميات البارود التي كانت مخزونة فيه الى القصبة .

---

(1) كذا في الاصل . لا اعرف حصنا بهذا الاسم ولكنني ارجح ان يكون تحريفا لحصن « ستي تاقليلت » (معناه بالبربرية « السيدة الفقيرة ») الذي يسمى ايضا ببرج علي ، وفي بعض الاحيان برج 24 ساعة،بناه الباشا علي فيما بين 1568_1569م . لحماية المدينة القديمة التي كانت تقع غير بعيد من باب الوادي .

وهذا الحصن مع حصن اخر يسمى « برج النجمة » (1) بسبب بنيانه الذي يتكون من خمس زوايا حادة ، ويسيطر على الجانب الغربي من الخليج ويمكنه أن يعرقل بصورة جدية العدو الذي يحاول انزال قواته في هذه المنطقة ، ولكنه نظرا لان المدافع ومركباتها كلها تقريبا فاسدة ، وكل حاميته تنحصر في أسرة تركية واحدة ، فانه من الممكن الاستيلاء عليه بسهولة ، بهجوم عادي أو مفاجيء.

وحصن الامبراطور(2) يشرف على حصن النجمة كما يحمي الخليج في المنطقة الشرقية ·

ويمين باب الوادي وبستان الداي تقع مقبرة يوارى التراب فيها الاتراك والعرب على السواء ، وفيها تقع قبور الدايات السبع الذين انتخبوا وشغلوا كرسي الحكم ثم اغتيلوا · وهذه القبور المرتفعة البنيان تبدو بوضوح للمسافر من البحر ·

وقريبا من البحر تقع المقبرة التي يوارى فيها المسيحيون جميعا مهما كانت مراتبهم ، يدفنون في الرمل على مسافة بضع ياردات من البحر في وقت المد ، وهذا هو المكان الوحيد المسموح بدفن المسيحيين فيه ·

واما اليهود فلديهم عدة مقابر اشترى أرضها أجدادهم باسعار باهظة ، لا يزال ابناء هذه الطائفة يسددون أقساطها حتى اليوم ·

والمسيحيون مسموح لهم بدفن موتاهم بدون مقابل ·
ان الارض التي تمتد بين بستان الداي وراس بيسكادو على مسافة أربعة أميال ، من أجمل ما تقع عليه العين ·

والشاطيء هو الآخر محمي بعدة بطاريات من المدافع التي لا فائدة منها اطلاقا ، حيث ان الشاطيء تحميه الطبيعة بالصخور والمنحدرات التي تمنع

---

(1) Star Castle في الاصل ، وهو ترجمة لاسمه العربي · وهذا البرج يسمى ايضا برج الطاجارة · بناه محمد باشا في الجهة العليا من القصبة · وقد ظل هذا الحصن مهملا مدة طويلة حيث اغفل الدايات المتعاقبون ترميمه معتقدين ان حصن الامبراطور يغني عنه في الدفاع البري عن المدينة ·

(2) يقع حصن الامبراطور الى الجنوب الشرقي من حصن النجمة ، فوق ربوة الصابون · وهو يسمى ايضا حصن « بوليلة » تخليدا لذكرى شارل الخامس الذي اقام فوق هذه الربوة ليلة 26 اكتوبر 1541 م قبل أن يمنى بهزيمته الكبرى ، وينسحب من الجزائر· وقد بناه حسن باشا الذى شرع في بنائه في سنة 1545 م على مسافة 1700 متر من القصبة العليا ، ثم زاد فيه وعززه حسن فيتريانو في سنة 1580م ·

بطريقة فعالة اية سفينة من انزال جنود عندها . بل انه يوجد خطر كبير لاية سفينة تقترب من الشاطىء نتيجة للمدافع الكثيرة التي تحمي الشاطىء ، وذلك حتى لو كان هناك ما يسوغ هذا الاقتراب .

والآن ، وبعد وصف تحصينات الدفاع عن مدينة الجزائر ، إرى ان هـذا هو المكان الملائم لتقديم تقرير عن قوات الجزائر البحرية ، ابتداء من وقـت وقوعي في الأسر ، حتى عودة الاسطول الجزائري الذي بعثه الداي لمساعدة الباب العالي في الحرب (الحرب مع اليونان) ، وأنا قد سبـق لي أن وصفت الطريقة التي تجهز بها السفن الحربيه الجزائرية .

الفصـــل الســادس

مقتطفات من يومياتي

في 17 من شهر يوليو 1789 ، نتيجة للحرب القائمة بين الامبراطورية العثمانية وامبراطورية روسيا ، وجه الداي خمس سفن حربية كبيرة الى القسطنطينية ، بقيادة الحاج سليمان قبطان ميناء الجزائر سابقا ، وذلك لكي تنضم الى اسطول السلطان وتستخدم في الحرب ضد روسيا ٠

احداها سفينة ثلاثية الصواري مسلحة باربع وثلاثين مدفعا ، وشطية مسلحة بثمانية وعشرين مدفعا واخرى بستة وثلاثين مدفعا وثالثة مسلحة باثنين وعشرين مدفعا ٠ وسفينة من النوع المسمى « جافيك » (1) مسلحة باربعة عشر مدفعا ، وثلاث لومانات ، وأربعة عشر زورقا حربيا ويضاف الى ما تقدم أربعون زورقا أخرى غير صالحة للاستعمال ويقوم النجّارون باصلاحها ٠

ان القائمة المذكورة أعلاه ، هي كل الاسطول الجزائري الذي تخشاه كثير من الدول وتدفع ضرائب للجزائر من أجل تفاديه ٠

لا يوجد شيء كثير في الجزائر يمكنه أن يثير انتباه الأجنبي ، فشوارع المدينة ضيقة ومظلمة ، ولا سيما في حي اليهود ، والشوارع الحسنة هي الشوارع الرئيسية التي تؤدي من باب عزون الى باب الوادي ، مرورا بقصر الداي ، والشارع الذي ينطلق من قصر الداي الى باب البحرية (باب الديوانة) ويمر بالمسجد الكبير وبمقهى كبير ٠

وأما المباني العمومية ، فهي : قصر الداي والمسجد والمدارس وسجن العبيد الذي سبق لي وصفه ، وفيما يلي أصف المباني الاخرى ، وأبدأ وصفي بقصر الداي ٠

---

(1) Janeque، هي من نوع السفينة التي اسرت الكاتب ٠ المترجم ٠

يتكون قصر الداي من عدد من البنايات التي تم بناؤهـا فـــي مختلف الازمنة وتربط بين بناية واخرى دهاليز وشرفات خارجية وأقواس مفتوحة وبعض الابواب غير المنتظمة والتي وضعت دون مراعاة لقواعد الفن المعماري ، وهو يقف في مساحة من الارض تبلغ نحو الاكر (أكر = 4000 متر مربع) بما في ذلك حديقة الداي التي يحيط بها سورها الخاص أو سور البناية المجاورة ٠

ان وصف هذه المجموعة من البنايات التي لا ترتبط بنظام ، أمر صعـب للغاية ، ومع ذلك ، فسأحاوله ، وابدأ بالباب الخارجي للقصر ٠

في الطريق الى باب الوادي ، في وسط المدينة تقريبا ، يقع قصر الداي ، وعلى يسار السائر يقع باب القصر ٠ انه هو المدخل الوحيد للقصر ومنه تدخل جميع حيوانات النقل التابعة للقصر ، ومنه الدخول أيضا الى جناح الـداي والاجنحة التي يسكن فيها كبار رجال القصر ٠

وعلى جانبي باب القصر وفي مقابله توجد مقاعد النوبجية ، أو حرس القصر الذين يبلغ عددهم اثنين وثلاثين حارسا ، ولكنه قلما يكونون موجودين في هذا المكان كلهم ٠

وفي مقابل باب القصر تقع ساحة عمومية تغطيها دالية من العنب لا يتناول حبة منها اي مسلم ذي شعور حي ، وذلك لان المسيحيين الذين يرتكبون جرائم يستحقون القتل من اجلها انما تقطع رؤوسهم تحت هذه الدالية ٠

وعندما ترسل الرؤوس والآذان المقطوعة من الداخل ، تجمع تحت هـــذه الدالية حتى يقوم العرب واليهود بدفنها حينما يصدر الداي أمره بنقلها مـن الساحـة ٠

وحول هذه الساحة تقع مقرات الكيخيا ورئيـــس الاطبـاء وحـلاق الداي وضباط البوليس ومقر الجلاد أيضا ٠

وتغطي الباب شرفة يحيط بها سياج من القضبان المذهبة في وسطها أعمدة للعلم الوطني ولعلم الداي والعلم الاسلامي (؟) في يوم الجمعة وفي ايام الأعياد · وفي هذه الشرفة تجلس جوقة تعزف الموسيقى التركية ·

وفي مقابل العلم عين مبنية بالمرمر تجري دائما ومقاعد يجلس عليها كبار الشخصيات في كل مساء ، ما عدا يومي الثلاثاء والجمعة ، وهناك يتسامرون فترة من الزمن ويتلقون تحيات المارة والداخلين الى القصر ، والخارجين منه ·

وعند الباب توجد سلسلة معلقة لها مزية ووظيفة اخرى غير كونها تشد الباب ، وهي ان كل شخص اسيئت معاملته ، مهما كانت درجته الاجتماعية يأتي اليها ويمسك بها وينادي بـ « العدالة باسم الله » · وعندئذ يقدم أمام الداي في الحال ليسمع منه شكواه ويصدر حكمه في القضية بدون تاخير · ولكنه متى كان الخطأ من جانب المتشكي يتلقى عقابا بالجلد ·

ومن الباب الخارجي يجد الداخل الى اليسار بلاطا واسعا مفروشا بالرخام·

والشيء الذي يثير انتباه الداخل ، بصفة خاصة ، هو درج ضيق معتم لا تناسب بينه وبين بقية البناية ، منه ينزل ويصعد الداي الى جناحه ·

والسبب الوحيد لعدم ادخال تغيير على هذا الدرج ، هو انه في حالة وقوع انقلاب ـ وما أكثر ما يقع الانقلاب في القصر ـ يكون عدد الثوار الذين يصعدون هذا الدرج قليلا بحيث يكون في وسع الداي الدفاع عن نفسه مدة أطول مما لو كان الدرج واسعا ، ويحاط به حينئذ بسهولة ·

وحول البلاط ، على يسار الدرج ، غرفة يجلس فيها الكتاب العرب والشاوش · وهنا ترتفع الأرضية المفروشة بالمرمر نحو قدم واحد · وفي النهاية العليا تقع قاعة استقبال الداي ، وهي تشبه قاعة البحرية اللتي سبق وصفها ، بل ان جميع غرف استقبال العظماء مبنية بنفس الطريقة ·

وعلى يمين الداي يقع ديوان واسع حيث يجلس الخوجات الأربع أو وزراء الدولة · وهنا ايضا تحفظ وثائق الدولة ، وهي عبارة عن عدد صغير من كتب كبيرة الحجم واوراق لا يزيد مجموع حجمها عن ما قد يحتفظ به محام في الأرياف · وهذا الديوان ، مثل قاعة الداي تنتشر فيها عرصات من المرمر وتقع في وسط هذا الفضاء فوارة من المرمر ، وقد زينت بمرايا عديدة استجلبت من البندقية ·

والى اليمين تقع أبواب خزينة المال التي ينام على مراتب أمامها كل ليلة 32 « نوبجية » ، أو حرس الليل ٠

ومن هذا البلاط يخرج الزائر عن طريق قوس كبير يقع الى اليمين ويفضي الى الجزء الأسفل من القصر ، حيث تقع ورشة الحداد التي يعمل فيها عدد من الأسرى المسيحيين بدون انقطاع في بيطرة الجياد وفي غير ذلك من الأعمال الضرورية للقصر ٠ ومن هنا تنطلق مجموعة متواصلة من درجات سلم تفضي الى شرفة حيث يحتفظ بعدد من الأسرى المسيحيين الذين يستخدمون في تنظيف الاسلحة النارية ٠

وفي الدور الأرضي من القصر يقع المذبح ، وهنا توجد زريبة للغنم ، ومخزن حطب النار ٠ وهنا أتيح لي شخصيا أن اعد مائة وخمسين قطا في وقت واحد ، وكلها تنحدر من نسل قطة كانت محظية لداي سابق ٠ وعلى الرغم من الأكياس الكثيرة التي تملؤ بها هذه القطط في كل سنة لغرقها ، فان عددها يتزايد فيما يبدو ، باستمرار ٠

ولوصف بقية القصر ، يقتضي الأمر أن نعود بالقارىء الى درج السلم الضيق الذي يسلكه الداي ٠ يمر هذا الدرج بجانب غرفة ينام فيها المسئولون عن نظافة القصر وتودع فيها الفرش والمكانس وغير ذلك من اللوازم ٠ وهنا يقع دهليز نظيف مفروش بالآجر الصيني ويؤدي بعد مسافة طويلة الى مطبخ القصر ، وفي هذا الدهليز يوجد مقعد يجلس عليه الداي بعد الظهر في بعض الأحيان للفصل في القضايا القضائية ٠

ومن هذا المقعد يحدث كثيرا أن يتلقى القناصل المسيحيون اوامر الداي بأن يكتبوا الى حكوماتهم لتبعث اليه بالبضائع التي يطلبها ، مصحوبة بتهديد صريح بانها اذا لم تصل في وقت معين فان عقابا بالجلد أو السجن ينتظرهم٠

وفوق هذا الدهليز توجد قاعة اكثر جمالا وبذخا وبها كرسي العرش ، الذي قلما يستعمله الداي ، وفي هذا الكرسي يستقبل الداي سفراء الدول ويمنحهم مقابلات خاصة ٠ ومتى رأى الداي أن يسبغ شرفا خاصا على سفير السلطان العثماني اجلسه بجانبه على نفس الكرسي ٠ ولكن هذا قلما يحدث ، لان سفراء الباب العالي الذين يرسلون الى الجزائر نادرا ما يكونون في مزاج رائق حيث أن مهامهم في معظم الحالات تنحصر في المطالبة باعادة غنائم القرصنة التي أخذت من الرعايا اليونان أو من رعايا امبراطور المانيا او من مواطني جمهورية

« راجوزا » (1) ، وهي بلدان تسير سفنها بجواز سفر خاص من الباب العالي ينص على ضمانات خاصة من السلطان لحالة السلم القائمة بينها وبين دول المغرب • ومع ذلك فان هذه الدول كثيرا ما تقدم على أسر سفنها وتستبعد رعاياها •

وهذا الدهليز يوصل الى شقة العبيد والمخازن التي تستعمل لمختلف أغراض التدبير المنزلي ، توجد غرفة كبيرة حيث ياكل العبيد وينامون • وقبل هذه الغرفة يوجد دهليز يؤدي الى الغرفة التي تعد فيها القهوة للشخصيات الكبيرة • ومن هذا الطابق ينزل الزائر الى الحديقة التي يوجد في وسطها منزل صغير أنيق بني للداي الأسبق بباعلي الذي جاء بعده الداي محمد الذي كان يجلس على العرش حينما وقعت في الأسر ، وهو الآن يستعمل مخزنا للسجاد والأغطية الخ •• ، ومن هناك يمكنه أن ينزل عن طريق المطبخ المجهز للعبيد ، الى جهة الحديقة بواسطة ممر مغطى ومرصوف تمر به أنابيب يجري فيها ماء من أعذب وأجمل ما في العالم من المياه ، وهو الذي تروى به الحديقة •

وهنا يوجد فرن لا يستعمل الا لتسخين الماء لحمام الداي ومن هذا الفناء يدخل الزائر الى المنزل الذي في الحديقة والذي يعلوه طابقان ، والفناء مفروش بالمرمر ، وفي وسطه صهريج كبير بني ليتلقى الماء الذي يفيض من فوارة جميلة مبنية بالمرمر ، لري الحديقة ، وعند هذه الفوارة يتوضأ الخازنداران لتأدية الصلاة • وكذلك توجد حول هذا الممر والدهليز الذي فوقه عدد من الغرف الجميلة ، وكذلك حمام الداي الذي يستعمله كل يوم جمعة ، ويستعمله الخازنداران ورئيس الطباخين في أيام الاسبوع • وكذلك يسمح للعبيد بالاستحمام فيه حينما يكون غير مستعمل من طرف سادتهم •

وهذا الحمام لا يضاهي في السعة بعض حمامات المدينة . ولكنه نظرا لان الحمامات التركية كلها مبنية على طراز واحد ، فان وصف هذا الحمام يغني لاعطاء فكرة عن هذه الحمامات •

والدخول الى هذا الحمام يتم عن طريق غرفة صغيرة يفضي الى غرفة أصغر منها مؤثثة بصفة وأريكة وأغطية رفيعة ، وفيها يخلع الشخص الذي يريد أن يستحم ثيابه ، قبل أن يعرض جسمه لدرجة الحرارة المرتفعة في الحمام الذي بني على الفرن الذي سبق ذكره • ومن هذه الغرفة ياخذه ثلاثة رجال من

---

(1) Ragusa ـ دوبرفنيك (Dubrovnik) احدى مقاطعات يوغوسلافيا حاليا • كانت جمهورية اريستوقراطية من 1403 حتى 1809 ، وكانت ترتبط بعلاقات تجارية وثيقة مع الامبراطورية العثمانية عادت عليها بثروة طائلة •

المزابيين الذين تربوا على هذا العمل منذ طفولتهم ، تدريجيا حتى يتعود على الحرارة الشديدة • وذلك لانه اذا قصد شخص مباشرة الى الحمام ، ولا سيما اذا لم يكن قد سبق له ان استحم في حمام تركي ، بدون هذا الاعداد قد يصاب بما يشبه الاختناق •

وبعدما يقضي فترة يتصبب خلالها جسمه بالعرق يلف نفسه بعدد من المنشفات المصنوعة من القطن ويلبس قبقابا ثم يدخل الحمام الحقيقي ويجلس على مائدة مصنوعة من خشب الزان مرتفعة عن الأرض بنحو قدم واحد • وهناك يأتي اليه المدلكون الذين يقومون بعمليات على لحمه بركابهم ، في الوقت الذي يفرقعون فيه مفاصله كلها ، ثم يغسلونه بالصابون بواسطة قفاز حتى ترتفع رغوة الصابون • ومتى اقتنعوا بان مسام جسمه قد نظفت بما فيه الكفاية ، صبوا عليه الماء من دلوين من النحاس ، يحتوي احدها على ماء ساخن والثاني على ماء بارد ، ومتى تنظف المستحم تماما (وكانت لحيته قد حلقت من قبل) غطى بمنشفات جافة ثم اقتيد الى الغرفة التالية حيث يقف وقتا قصيرا كما فعل عند الدخول ، ثم يمضي الى الغرفة الأكبر المزودة بصفة وأريكة ، والتي كان خادم الداي المسيحي قد أعدها ، وهناك توضع عليه ملابس جافة ثم يغطى ويستريح مدة نصف ساعة ، وفي بعض الأحيان أكثر ، ثم تقدم اليه القهوة والنرجيلة اذا كان من المدخنين •

وأثر ذلك يكسيه الخدم بثياب جديدة من أخمص قدمه الى رأسه ، ويخلعون عليه برنوسا ويضعون القلمون على رأسه ثم يغادر الحمام ولا يكشف عن رأسه قبل أن ينتهي تساقط العرق من جسمه • وبهذه الطريقة أيضا يستحم الناس في الحمامات العمومية مهما كانت درجاتهم ومراتبهم الاجتماعية ، وبقطع النظر عن المبلغ الذي يدفعه الانسان للاستحمام •

والجندي قد يأخذ حماما ويدفع في مقابله ثلاث سنتات ، ولكن الاغلبية يدفعون أكثر من تسع سنتات •

وحمام الداي مفروش بالمرمر ومزين بآجر استورد من جنوه ، وتعلو مقبة فيها نوافذ صغيرة وثقوب تسمح بتسرب ضوء النهار والهواء• وجميع الحمامات في هذه الايالة ، بل وفي جميع بلاد المغرب بنيت على أساس نفس القواعد والمبادىء ، وهي كلها مزخرفة بدرجات متفاوتة • وحمامات زوجة الداي وزوجات الشخصيات الكبيرة فيما قيل لي ، أعجوبة في البذخ والترف • وطريقة السيدات الجزائريات من الطبقة العليا في الاستحمام ، تتفق مع الوصف الذي سجلته السيدة ماري ورتلى مونتاج (Lady Wartly Montagne) عن عادات الأتراك وسلوكهم •

حديقة القصر قليلة الاتساع ، لا تحتوي على شـــيء غير اشـــجار البرتقال ، والليمون ، والرمان ، وهي مغطاة بالدالية في كثير من جهاتها • انها محاطة بالأسوار وفيها أقفاص للحيوانات الوحشية : الأسود والنمور والظباء التي يحتفظ بها هنا حينما تكون صغيرة • ولكنها حينما تكبر وتصبح خطيرة ترسل الى عرائن في سجن « جاليرا » •

وأما المخازن التي تقع في الحديقة ، فهي تحتوي على كثير من الأشياء ، بما في ذلك ملابس العبيد وملابس الجند الجدد ، وأسلحة نارية ، وفيها غرفة ممتلئة بجلود الأسود والنمور • وكذلك يوجد منزل قديم متداع يعشش فيه الحمام الذي قيل انه ، مثل القطط ، ينحدر من زوج واحد ، وهو كثير العدد بصورة لا يمكن تصديقها • ومع ذلك ، ففي كل يوم ، صباحا ومساء يـوزع كيس كبير من القمح والشعير أمام قاعة العرش ، وفي لمح البصر ينزل الحمام أسرابا كبيرة ويأتي على آخر حبة من ذلك • وانا مقتنع بان كل هذا الحمام ليس مما يربى في قصر الداي ، ولكنه نظرا لان الحبوب توزع في وقت معين ، فان كل الحمام الذي يعيش في المناطق المجاورة يقصد الى مكان المائدة ليأخـذ نصيبه منها •

ومنظر هذا الجانب من القصر يدل على أن عددا من المنازل القديمة المجاورة قد ضمت اليه بعد تشييد المبنى الرئيسي • وبعض تلك المنازل قد هدمـــت والبعض الآخر ادخلت عليه تعديلات ، بينما تركت فئة ثالثة على حالها ، وهي متداعية وأقرب الى خرائب منها الى منازل ، ومـن المستحيل تقديـم وصف دقيق لوضعهـا •

ولنعد الى الدهليز الأعلى • على يمين درج السلم الذي ينحدر الى جناح الداي يقع جناح الخازندار الأول ، وهو عبارة عن غرفة جميلة واسعة مزخرفة بنقوش من الازهار وغيرها ، ومؤثثة بالسجاد الفاخر وبصفة مريحة وعدد من الصنادق ومنضدة مطعمة بالصدف وترس السلحفاة الخ •• ، وعلى الحائـــط تعلق الاسلحة النارية من البنادق والمسدسات والسيوف وكلها مركبة بالفضة والذهب ومعظمها مطعم بالمرجان •

ومن هناك تصعد الى جناح الداي ، وهو عبارة عن غرفة واحدة واسعة ، حيث يأكل الداي ويشرب وينام ، مثل الخازندار ، وهي لا تحتوي علـى شـيء مغاير لما في غرفة الخازندار ، عدا كون ما فيها من الاسلحـة والساعـات أكبر قيمة وأغلى ثمنا •

وامام هذه الغرفة يوجد مقعد يجلس عليه الداي في اوقات معينة ليستقبل القناصل والسفراء وغيرهم من المقربين اليه وممن تربطهم به علاقات خاصة ·

ووراء هذا المقعد ، في مقابل الغرفة توجد الغرف المخصصة للعبيد · وهنا تقع أيضا مرافق لاستعمال الداي الخصوصي ، وكلها مفروشة بالآجر والمرمر الفاخــــر ·

وهكذا ينتهي وصفي لقصر الداي في عهد محمد باشا ، ولكن حسن باشا أضاف الى هذه المباني عددا من الأجنحة الجميلة ، بل هو أضاف منزلا كاملا الى القصر القديم ، وسأصف هذا المنزل وصفا يمكن أن يعتبر نموذجيا لأعظــم المنازل في مدينة الجزائر ·

لقد انفق حسن باشا مبالغ طائلة لتشييد هذا المنزل الذي يتصل بالجناح الموصوف أعلاه ، وهو أكثر أجزاء القصر ارتفاعا · انه مبني بالحجر والطـوب المكوى الملصق بالاسمنت ، كما هي حالة معظم المنــازل الاخـرى ، وقــد كسي بالجص وبيض بالجبس من الخارج بحيث لا يرى الناظر اليه من الخارج سوى حيطان وبعض الفتحات في أعلى المنزل في شكل نوافذ · ومتى كانت الفتحة في أسفل المنزل واسعة بما يكفي لدخول شخص ولخروجه ، فهي محاطة بسياج حديدي قــوي ·

وشكل المنزل مربع ، والجزء الأسفل منه لا يستعمل الا قليلا ، ووظيفته الأولى هي أن يكون سندا ودعامة لطبقة الشقق الأنيقة العليا التي هي علــى مستوى جناح الداي الخاص الذي سبق وصفه ، وبلاطه مفروش بالمرمر ، مثل جميع غرفه ، والشرفة التي تدور حوله تقوم على أعمدة من الرخام تشبه فــي ترتيبها النظام الكورنثي ، ولو انها غير منتظمة ، والأبواب ومصاريع النوافذ التي تطل على الدهليز ، مصنوعة على الطراز القوطي ، وهي منقوشة ومدهونة، وحواشيها مزينة بالذهب البندقي ، وأما السقف فهو مزخرف بنقوش تمثــل نباتات وزهورا وعناقيد العنب وغير ذلك من الفواكه من مختلف الأنواع ، على الطراز التركي ، والفنانون من اليونان ، أرسلهم الباب العالي من القسطنطينية الى الداي لغرض تزويق هذه الغرف وزخرفتها وحده ·

والحيطان مطعمة حتى منتصفها بالآجر الرفيع الذي أحضر من جنوه ، وما فوق ذلك حتى السقف ، مزين بفتحات على شكل عيون برج الحمام تغطيهـــا نقوش مجصصة متثل باقات من الازهار ، وتغطيها من الجانب الخلفي قطع من الزجاج الملون بمختلف الألوان تتناسق مع لون الأزهار ، وهي تترك فــي النفس اثرا رائعا حينما تنعكس عليها اشعة الشمس ·

وأثاث المنزل يتكون من ارائك جميلة فخمة ، وارضية مغطاة بالسجاد الرائع المستورد من تركيا ٠ وهنا وهناك تنتشر صناديق جميلة الصنع مطعمة بالصدف وترس السلحفاة والمرجان ٠ وفي بعض درج هذه الصناديق عدد كبير من الساعات الفاخرة وصناديق السعوط المطعمة بالاحجار الكريمة ، والخواتم الثمينة وغير ذلك مما خف حمله وغلا ثمنه ٠ وعلى هذه الصناديق ساعات كبيرة وأدوات اخرى من ادوات التجميل ٠ وعلى حيطان الغرف علقت بنادق تركية ، وسيوف ذات حد واحد ، ويانجانات ، وغير ذلك من آلات الحرب ، وكلها مرصعة بالذهب والمرجان ، وذلك الى جانب عدد من المسدسات المرصعة بالاحجار الكريمة ، وهذه كلها ، وغيرها مما كان يتلقاه الداي على سبيل الهدية من الملوك ورؤساء الدول المسيحية التي ترتبط بعلاقات السلام مع الجزائر ٠

ومن بين هذه الأسلحة ، بندقية صيد جميلة ذات ماسورتين كانت ملكا للويس السادس عشر العاثر الحظ ، (قدمها الى الداي حسن باشا صديقي العزيز ، جويل بارلو (Joel Barlow) وكانت جزءا من الهدايا التي قدمتها الولايات المتحدة الى الداي ، عقب توقيع بلدنا معاهدة السلام مع الجزائر ٠

وفي هذا المنزل أيضا استودع الداي حسن كل أمواله السائلة والتي تبلغ اثناء اقامتي هناك ٢٠٠٠٠٠ « سكوين » وهو ما يساوي ٣٦٠٠٠٠ دولار، بالقيمة العادية للعملة الجزائرية ، ولكنه حينما يعقد الداي معاهدة سلام مع الدول المسيحية ويحدد المبلغ الذي تدفعه هذه الدولة بالعملة الجزائرية ، ترتفع قيمة هذه العملة بحيث تكون قيمة « السكوين » دولارين (اسباني) ٠

وبعد وصف قصر الداي ، بقدر ما أمكن وصف هذه الكتلة التي لا شكل لها من المباني ، أود أن أصف في الصفحات التالية المساجد والفنادق وخانات القوافل ، وغير ذلك من المباني العمومية ، ولا سيما ثكنات الجيش التركي ٠

يقع مسجد الداي في مقابل القصر تقريبا ٠ وفي هذا المسجد الجامع يؤدي الداي وحاشيته والشخصيات الكبيرة صلاة الجمعة ٠ انه مسجد صغير أنيق البناء ، وهو يتكون من قاعة كبيرة مغطاة بالحصير وبعض قطع السجاد القديم الصغيرة المفروشة لصلاة المسلمين ٠ والمسجد لا يحتوي على زخارف من أي نوع كان ، باستثناء آيات من القرآن منقوشة بالخط العربي على الحائط ٠ وفي المسجد سدة يقرأ منها القرآن ، ومنبر يقف عليه الامام ليقرأ خطبة في أيام معينة ٠ لا توجد في المسجد فوارة ، ومن ثم ، فان الداي وحاشيته يقصدونه

للصلاة ، مستعدين بالوضوء من قبل) • وأما الجامع الكبير ، فتوجد فيه ميضأة • وفيما عدا ذلك ، فهو مجهز ومبني على منوال الجامع الصغير الذي وصفته ، والجامع الكبير أوسع ومنارته أعلى كثيرا ، وهذه المنارة وغيرها من منارات المساجد تضاء في شهر رمضان بالليل ، فتشع ضوءا جميلا يبدو رائعا حينما يراه الرائي من بعيد ، توجد عدة كتابات على حيطان هذا المسجد لا يمكن قراءتها بالعين المجردة ولم يتمكن أحد من معرفة محتواها أو أصلها •

من المعلوم لدى الجميع أن المسلمين يخلعون أحذيتهم لدى دخولهم الى المسجد للصلاة ، وهم يتركون أحذيتهم في هذا المسجد خارج الباب • وكثيرا ما يحدث أن يقوم العبيد بدافع الحاجة أو الدناءة أو الضعة بسرقة عشرين أو ثلاثين زوجا من الأحذية في وقت واحد ، ويهربون تاركين المؤمنين المصلين يعودون الى منازلهم حفاة الأرجل • وهذا المسجد يتمتع بامتياز رفع العلم أولا، وقت الصلاة ، ثم تحذو حذوه المساجد الأخرى ، وهي كلها تشبه هذا الجامع فيما عدا ذلك •

يبلغ عدد المدارس العمومية في الجزائر أربعا ، وهي عبارة عن بنايات مربعة تحتوي على غرف صغيرة • يدرس الطلبة في هذه المدارس القراءة والكتابة والحساب ، ويجري التعليم في الهواء الطلق • والمعلمون ، عادة ، هم أئمة المساجد . وهم يتلقون منحه سنوية من الحكومة ، الى جانب الهبات والهدايا التي تصلهم في هذه المناسبات من أولياء امور التلامذة وأصدقائهم ، ومعظم هؤلاء من العرب ، وكثير من هؤلاء الطلبة يعيشون في أماكن تقع بعيدا عن المدينة •

والكتب التي تدرس في هذه المدارس ، هي القرآن والتفسير ، وهم يكتبون بأقلام مصنوعة من القصب ، على ألواح مربعة مصنوعة من الخشب تطلى بنوع من الصلصال الأبيض ، وبعدما يحفظ الطالب درسه تمحى اللوحة بغسلها بالماء ، وهكذا دواليك ، وهي طريقة اقتصادية للغاية ، بالنظر الى انهم لا يستهلكون الورق اطلاقا في عملية القراءة •

قد يبدو لنا انه من المستحيل أن يتعلم الطالب أن يكتب خطا جميلا بهذه الطريقة ، ولكنه مما يدعو الى الدهشة والتعجب انهم يكتبون خطا عربيا في غاية الجمال • ولقد أتيح لي أن أرى مصاحف مكتوبة بالخط العربي يشرف أعظم مكتبة في العالم أن تقوم بانجاز مثلها •

وغرف المدرسة التي اعدت لينام الطلبة فيها مفروشة بالحصر ، وأما الطعام الذي توفره المدرسة للطالب ، فهو طعام خشن جدا • ولولا موارد الصدقة

التي يقدمها المحسنون وأصدقاء الطلبة ، وهي شيء ضئيل ، لكان الطلبة يعيشون في فقر مدقع · والطلبة متقشفون بحكم الحاجة وليس على اساس المبدأ ·

وكذلك توجد بعض المدارس التي يتردد عليها الطلبة في النهار ، مثل ما هي الحالة عندنا ، ولكن أغلب الناس يعلمون أبناءهم في منازلهم ، ويقوم بهذا التعليم معلمون من رجال الدين ، كما هي الحالة في المدارس المذكورة ·

والمتعلمون متساوون هنا أكثر من أي مكان آخر في العالم من حيث ان مستوى التعليم ضعيف وكل ما يوفره من المقدرة لا يتجاوز القراءة والكتابة وقواعد الحساب العامة وحفظ سور من القرآن وبعض التفسير والتعليق عليه ، ومعلومات عن بعض المؤلفين الدينيين ·

وفي غضون المدة التي أقمتها في الجزائر لم يكن يوجد في الايالة كلها شخص واحد يستطيع أن يحسب ليستخرج وقت خسوف القمر أو كسوف الشمس · وأما بحارتهم فلم يكونوا يستطيعون أن يحسبوا أكثر من استخراج خط دائرة الزوال وارتفاع الشمس ، وهم يخططون اتجاه سفنهم مستعينين بخرائط بسيطة · والربان الذي كان يعتبر استاذا في الملاحة والذي عاش في قيد العبودية في اسبانيا عدة سنوات ، لم يكن يستطيع حساب الاطوال بواسطة رصد القمر ، أو حل أبسط المشكلات في الفلك ، سواء باللغارثم أو برسم الاجرام السماوية · ولكن هذا الشخص كان ذرب اللسان وكان يتمتع بذاكرة قوية ، كما كان يعرف جيدا كيف يستخدم كفاءات الربابنة المسيحيين ومساعديهم ، وسفن الشحن الكبيرةالتي كانت تحت قيادته ويستغل كل ذلك لفائدته ·

كم رجل في بلدنا يتمتع بالحظوة بنقل أخبارا كاذبة بوقاحة الى رجال السلطة وترتفع مكانتهم في الوقت الذي يلاقي فيه الاهمال رجال أشراف وذوي حكم صائب ؟

ولكننا نلاحظ ، مع الأسف أن هذه هي الحالة في المجتمعات البشرية كلها ، وما على الذين يعتقدون في سذاجة أن الفضيلة والأخلاق أقوى في بلدنا منها في أي مجتمع آخر ، الا أن يقرءوا الصحف لكي يقتنعوا بغير ذلك · لقد كنت أنا أعتقد ذلك وقتا ما ، ولكنني بعد دراستي لتاريخ الرومان عدلت عن هذا الاعتقاد · ولو وقعت ضحية للخداع في وقت مبكر لكان حظي من السعادة افضل فيما تلي من الأيام ·

توجد في مدينة الجزائر ست ثكنات عسكرية تركية ، وهي بنايات جميلة لها بلاط في الوسط وممرات ودهاليز وغرف ، وهي في حالة نظافة ممتازة. كل واحدة منها تقع تحت رعاية شخصية كبيرة كثير السخاء لنزلائها الأتراك، ولا سيما الحديثي التجنيد الذين يصلون من تركيا ·

وكل ثكنة تقع تحت حكم ضابط برتبة " أمباشي" وعدد من الضباط الذين هم تحت أوامره ، وشاوش يقوم بتنفيذ أوامره · وكذلك يعيش في الثكنة امام يؤدي الصلاة بالجنود في أوقات معلومة ·

والاتراك الذين يعيشون في الثكنات كلهم من العزاب ، وأبواب الثكنة الخارجية تغلق عند الغروب وتأخذ مفاتيحها الى قصر الداي حيث تودع بالليل في الوقت الذي تودع فيه مفاتيح المدينة · وتفتح أبواب المدينة وأبواب الثكنات في نفس الوقت في الصباح ·

وهذه الاجراءات تتخذ للحيلولة دون وقوع انقلابات واضطرابات ، وهي كثيرة الحدوث وتقع بالليل ، عادة ·

كانت هذه الثكنات مزدحمة بالنزلاء قبل انتشار وباء الطاعون في البلد في سنة 1786 ، ذلك الوباء الفضيع الذي حصد عددا كثيرا من الأرواح وترك متسعا من المكان للناجين من أظافر الموت ·

يوجد في المدينة عدد من الفنادق التي يقطن فيها بعض الأتراك المتزوجين والمتقاعدين ممن لا مال لهم ، ولكن الأتراك عادة يقطنون في منازلهم ويعتبرون مدنيين ، (حينما يكونون خارج الخدمة العسكرية المدنية ويخضعون للحكم المدني) · ويخصص لكل ثكنة عبد مسيحي واحد أو عبدان ليقوما بالسهر على نظافتها ، أي بكنسها وغسل ما يغسل منها ، مثل الدهاليز والبلاط ، كما يقومان بخدمات اخرى ·

توجد في المدينة ، حانات الى جانب تلك التي وصفناها عند الحديث عن السجن ، وقد كانت توجد في السابق حانات في كل ثكنة ، ولكنها في الأوقات الأخيرة منعت بسبب الكثير من اعمال الشغب والاضطرابات التي كانت تقع فيها · وقد عثر ذات مرة على عبد شنق عند باب احدى الثكنات ،عند باب البحر، فاغلقت حانة الثكنة على الفور وحرم بيع الكحول بعد ذلك في جميع الثكنات ·

ومن الحانات الموجودة في المدينة ، حانة « رفاجي » ، وهي ملك لرئيس الموظفين المسيحيين في قصر الداي ، و « الفونداريا » التي يملكها ديميتريوس، المهندس المعماري اليوناني •

وهاتان الحانتان لا تدفعان أية رسوم للايالة، لانهما منحتا لاصحابهما بحكم المناصب التي يشغلونها ، وهي تدر أموالا طائلة على أصحابها ، ولا سيما حينما يعود الاسطول بالغنائم وياسر سفنا محملة بمختلف أنواع الخمور والبراندي • وفي هذه الحالة تهبط اسعار العنب فجاة بصورة ملحوظة •••

وفي سياق الحديث عن الخمر ، تجدر الاشارة الى انه يوجد في حانة في مخازن البحرية برميل كبير قيل انه جرى منه الخمر كالسيل ، بفعل كرامة لاحد المرابطين ، وسال في الشوارع في سنة 1541 ، واندفع الى البحر ولون المياه المجاورة للشاطىء بلونه الأحمر القاني في الوقت الذي كانت فيه العاصفة تجتاح البحر الذي التهم الجزء الاعظم من اسطول شارل الخامس •

وهذه القصة يؤمن بها كثير من المسلمين ، وقد وضعوا أمام البرميل مصباحا من الزيت يضاء باستمرار • وكذلك يأتي الى البرميل العتيق عدد كبير من الزوار يحملون الشموع ويشعلونها كما يزينونه بالزهور ، تماما ، كما يصنع السوقة من البرتغاليين عند مذبح العذراء • وبالطبع ، فان صاحب الحانة المسيحي التي يوجد فيها البرميل ، يشجع الناس في اعتقادهم هذا ، ولم يكن له الا أن يشجع الناس في غيهم حيث انه هو الوحيد الذي يستفيد من هذه الخرافة التي تجر اليه عددا كبيرا من الزبائن الذين سيقصدون حانات اخرى لولا وجود البرميل الاسطوري فيها ، وهذه الحانة والمخازن المحيطة بها مكان بائس مظلم ولا تتوفر فيها بعض الراحة التي تتوفر في حانات اخرى •

وفيما عدا هاتين الحانتين توجد عدة حانات اخرى في المدينة لا تستحق احداها وصفا • ويتراوح مجموع الحانات الموجودة في المدينة ، بين 27 و 30 حانة ، بما في ذلك الحانات الموجودة في السجن ، وكلها انما يديرها عبيد مسيحيون يدفعون لحكومة الايالة رسوما كبيرة ، ويستخدمون عددا من العبيد يتراوح بين ٥٠ و ٩٠ ، وذلك بالاضافة الى ضعف هذا العدد من الاشخاص المنحطين الذين لا أخلاق لهم ممن يتعيشون من الرذيلة والذين سيموتون جوعا بدون هذا النشاط ، حيث أنه من المستحيل أن يبقوا على قيد الحياة اذا اعتمدوا على ما تمدهم به سلطات الايالة • وهكذا وفرت لهم العناية الآلهية التي تعمل أبدا لصالح أشخاص لا أخلاق ولا قيمة لهم ، موردا من الرذيلة والفساد لانقاذ حياة عدد من البؤساء منهم •

ليس هناك ما يثير الانتباه في هذه المدينة ، اما الطرق فهي ضيقة ومظلمة ، وهذه هي الحالة خصوصا في حي اليهود حيث يوجد مذبح الطائفة الذ يتتصاعد منه روائح كريهة لا تطاق ، وهذا المكان وحده يكفي لان ينبعث منه وباء الطاعون ، ولكن الذي حدث فعلا ، حينما ظهر وباء الطاعون في البلد ، كان عكس ذلك ، حيث ان عدد اليهود الذين ذهبوا ضحيته كان اقل من عدد المصابين في الاحياء الاخرى · والواقع ان حي اليهود كان آخر أحياء المدينة التي انتشر فيها الوباء ·

وفي الصفحات التالية سوف اقدم وصفا للمؤسسات الكاثوليكية التي انشأها الاسبان في المدينة ، وكذلك الدير الذي بناه الفرنسيون ، وهي مؤسسات خيرية تقدم خدمات جليلة للعبيد بصفة عامة ·

المستشفى عبارة عن مبنى كبير يقع في جوار سجن « جاليرا » وهو يغلق أبوابه كل ليلة في نفس الوقت الذي تغلق فيه أبواب السجن ، ويتصل المستشفى بالسجن بواسطة ممر وباب صغير ، ومن هذا الباب كان يؤخذ المصابون في السجن الى المستشفى اثناء فترة الوباء في الليل ، وقد ذهب عدد كبير من هؤلاء البؤساء الى القبر ، بعد أقل من اثنتي عشرة ساعة من دخولهم المستشفى ·

كان نظام مجاري المستشفى متصلا بنظام المجاري في السجن ، وإربما كان هذا هو السبب في أن نسبة الوفيات كانت أعلى في هذا السجن منها في السجون الأخرى أو في أي حي آخر من أحياء المدينة التي انتشر فيها الوباء ·

كان جميع العبيد المسيحيين من مختلف المذاهب ، البروتستانت والارثوذكس اليونان والكاثوليك يقبلون في المستشفى بدون مراعاة لعقائدهم وذلك بفضل تسامح رئيس الأطباء والصيدلي الذين كانت أمور المستشفى تحت ادارتهما ، وعلى الرغم من أنه لا يقدم فيه الا القليل من الكماليات ، فان الطعام فيه جيد وصحي ، والعناية الصحية جيدة بقدر الامكان وعلى مستوى ما تقدمه مؤسسات مماثلة ·

ومعظم المرضى يعالجون في قاعة واسعة وينامون على مرتبات محشوة بالصوف ومزودون بملاحف ووسائد ، وبغطاء من الصوف متى كان الجو باردا ، اذا لم يكن الواحد منهم يملك غطاء شخصيا · ومتى كان لدى المريض مرتبة شخصية سمح له باستعمالها ، وهذه المراتب توضع على لوح يرتفع على مستوى الارض بنحو ثلاثين بوصة ، ومركبة على أرجل من حديد ، وهي تزاح وتفرش من جديد حسب ما يتطلبه عدد المرضى ·

وفي وسط القاعة اقيم مذبح ترتل عنده الصلاة مرة في كل يوم ، وكذلك تقام في المساء صلوات ركن وترتل اناشيد دينية بمحضر من احد القساوسة ·

وكذلك توجد في المستشفى عدد من الغرف التي يوضع في كل واحدة منها واحد أو اثناء من المرضى ، وهؤلاء ، عادة ، هم من العبيد الذين يخدمون الداي ورجال الحاشية ، مراعاة لمكانة اسيادهم ·

والشقق التي يعيش فيها القساوسة منعزلة عن عنابر المرضى وبعيدة عن القاعة العمومية · وهذه الشقق حسنة التاثيث وللقساوسة كنيسة خاصة ، كما أن مطعمهم مزود بأحسن الماكولات · انهم طائفة من الرجال الصالحين ، وليس من شك ، في انهم يكونون أصلح مما هم لو اتيح لهم ان يتعاملوا مع طبقة أفضل من الناس ·

ومرة في الاسبوع يوزعون « ماصونا » واحدا لكل مريض من العبيد ، وربما وزعوا أكثر من ذلك متى وجدوا سعة في مالهم الذي يساهم في تقديمه القناصلة والتجار الأوروبيون ، وكذلك العبيد الذين تمكنوا من توفير بعض المال وكانت تدفعهم ميول لفعل الخير ·

وأما المال الضروري لتسيير المستشفى الذي هو مؤسسة انسانية حقا ، فان اسبانيا هي التي تقدمه من صندوق طائفة الكهنوت التي تعمل لفدية الأسرى ، ويشرف على نشاط هذه المؤسسة قسيس يعمل مديرا للادارة ويساعده ثلاثة أو أكثر من القساوسة الذين يتراسلون مع رئيس الطائفة في اسبانيا ، وهم مسئولون عن سلوكهم أمام الطائفة نفسها ·

ان هذا المستشفى يعتبر من أكبر المؤسسات الخيرية في العالم كله حيث انه يقدم رعايته لجميع المسيحيين الأسرى دون أن ياخذ الى الاعتبار عقائدهم وطوائفهم الدينية وقومياتهم · وأي مصير كان يواجه العبيد الذين وقعوا ضحايا لوباء الطاعون لولا وجود هذه المؤسسة التي تستقبلهم عندما ينهك قواهم المرض وتنهد صحتهم نتيجة للاعمال الشاقة ؟ يعود الفضل في هذا العمل الانساني الى هؤلاء القساوسة الذين يسمحون للعبيد الذين لم يصابوا بالمرض حقيقة ، وانما هم مصابون بالعياء والارهاق ، ليبقوا في المستشفى اسبوعا أو عشرة أيام ليستريحوا من عنائهم ويجددوا قواهم ·

ماذا كان يصنع الامريكيون البؤساء الذين أصيبوا بالوباء الذي ذهب ضحيته عدد كبير منهم اثناء مدة أسرنا ، لولا هذه المؤسسة ؟ لم يكن أمامهم من بديل سوى الموت المحقق في الشوارع أو في مقر اعمالهم أو في السجن ،

دون أن يجدوا شخصا واحدا يعنى بهم ويساندهم في لحظة النزع الأخيرة ، ثم يدفنون في حفرة مثل الكلاب • وفي هذا المستشفى ، على الاقل ، يوضعون (حتى افقرهم) في كفن ويحملون على نعش ويشترك في تشييع جنازتهم من يريد ذلك من مواطنيهم وأصدقائهم ويوارون التراب في حشمة وتستر •

أن أمريكيا واحدا لم يدفن بدون كفن ، وكثير منهم واجهت تكاليف كفنه من جيبي الخاص • ونظرا لوجود هذه المؤسسة ، فان سلطات الايالة لا تتحمل أية تكاليف لدفن العبيد المسيحيين ، (وهي انما تحتمل هذه المؤسسة بسبب ما تقدمه من الخدمات لهؤلاء العبيد الذين تنقذ كثيرا منهم من الموت كل سنة) • وهي تسمح لاثني عشر عبدا ، حينما يكون عدد العبيد في البلد كبيرا ، لكي يعنوا بالمرضى ويقوموا بالاعمال الضرورية في المستشفى بدون مقابل ، ولكنه متى كان عدد العبيد قليلا لا يسمحون الا بنصف هذا العدد لنفس الغرض •

والدير الذي بنته طائفة كهنوت الرحمة الفرنسية ، يشرف على نشاطه قسيس ويساعده ثلاثة أو أربعة قساوسة من نفس الطائفة • وتتلخص واجباتهم في مساعدة الاسرى واقامة الصلاة والوعظ والارشاد في السجون ومنحهم التوجيه الروحي واقامة القداس الاخير • وكذلك تشمل رعايتهم المنازل المسيحية الكاثوليكية التي يوجد فيها مصلى ، ويقدمون صدقات للعبيد في بعض المناسبات حينما تسمح حالتهم المالية بذلك • ومن وجبات القساوسة أيضا رعاية العبيد في أوقات الغزو حينما يرسلون مقيدين بالاغلال اثنين في غل واحد الى الارياف • وقد قام الأب جوزيف الذي اتخذ الجزائر مقاما له مدة تقرب من ثلاثين سنة بمرافقة العبيد الى المدينة مرتين : المرة الاولى حينما غزا الاسطول الاسباني الجزائر في سنة 1775 ، والمرة الثانية حينما هدد اسطول الدون انطونيو في سنة 1784 بقصف هذه المدينة ، ولو أنه لم يقدم في حقيقة الأمر على هذا القصف ، بل ولم يكن ينوي القيام به ، فان هذا القسيس لم يتخلى قط عنهم في مثل هذه الاوقات الحرجة بل هو كثيرا ما يترجل عن بغله ويسير على قدميه ويترك دابته للمريض والمتعب منهم • وقد كان يأبى الا أن يضع نفسه في حالتهم كما لو كان واحدا منهم ، باستثناء حمل السلاسل والاغلال ، وذلك حتى يخفف من عذابهم الاليم ، وقد كان يمنح آخر دولار في جيبه للسجان لحمله على التخفيف من أشغال العبد المنهك ، بل انه كثيرا ما قسم ثيابه بينهم • ولما عاد مع العبيد الى الجزائر كانت حالته أشبه ما تكون بحالتهم ، وفي أيام الوباء ، كان يخدم العبيد في المستشفى ويرعى الذين كانوا في السجن منهم ، حتى أصابته العدوى هو نفسه • وعلى الرغم من خطورة اصابته التي استغرقت مدة طويلة قبل أن يشفى منها ، فقد كان لا ينفك عن القيام بواجباته بمجرد ما يتمكن من النهوض من فراشه •

واخيرا ، شاءت قدرة الله ان يشفى لكي يواصل عمل الخير لاولئك التعساء المهملين ، ويكرس بقية حياته لخدمتهم ، وقد رفض عدة مرات دعوة رؤسائه في الطائفة لكي يعود الى وطنه حيث كان له أصدقاء يريدون اصلاح اموره . لقد ضحى بكل شيء من أجل واجبه الانساني الذي تفرضه عليه مهنته، وقرر البقاء مدى حياته في الجزائر ٠ لو كان لي أن اسأل نعمة ومنة من الله لتضرعت اليه جل شانه ، ان يساعدني على أن احمل روح الأب جوزيف في عمل الخير وأن أكون في مثل صلاحه ، لانني أعتقد انه قلما وجد على ظهر الارض رجل أفضل منه ٠

وهذا الدير لا يؤدي خدمات اخرى للعبيد ، والقساوسة يعيشون في داخل الدير حيث توجد كنيسة حسنة في ساحته ، كانت لها أوقاف معتبرة قبل الثورة الفرنسية ، وكذلك كانت مخازن القساوسة مليئة بالاطعمة الجيدة ، والجدير بالذكر أن الناس لم يعودوا يشتمون القساوسة في الشوارع ، ومتى حدث ذلك ، فهو من الغوغاء ، ومتى تعرف القسيس على الشخص الذي شتمه وقدم شكوى بذلك مباشرة للداي ، أو عن طريق قنصل بلده ، فان من المؤكد أن يتلقى ذلك الشخص عقابا رادعا على فعلته ويتلقى صاحب الشكوى ترضية من الداي ، ولكن القساوسة الذين تعرضوا للشتم قلما قاموا بمثل هذا المسعى تجنبا لاثارة الشغب بين العامة ٠

* *

*

الفصـــل الســـابع

كنت قد ذكرت ان كل أمتعتي حينما اخرجت من القصر كانت تحتويها قفة صغيرة ، وأن كل ثروتي كانت تتكون من مبلغ لا يزيد عن ثمانية دولارات دفعت اثنين منهما لرشوة العرفاء الاسبان لكي يسمحوا لي بالانتقال الى سجن « جاليرة » حيث كان باقي الاسرى الامريكيين محتجزين وحيث كان يوجد أكثر الأسرى جدارة بالاحترام ٠

وهكذا ودعت أنا ورفقائي في الشقاء سجن « بيلك » في الوقت الحاضر، وكذلك غيروا قيد الحديد الكبير الذي وضعوه في رجلي هناك بقيد أصغر وأخف ، والمشكلة التالية التي واجهتها ، هي البحث عن مأوى ٠

كان بعض الأسرى الأمريكيين محظوظين بما فيه الكفاية بحيث كان لكل منهم غرفته الخاصة ولو كانت صغيرة ٠ ولكن السجن كان في تلك الفترة غاصا بالنزلاء الى درجة لم يكن من الممكن أن يستوعب المزيد منها بحيث أن عددا من العبيد كانوا ينامون على الطاولات في الحانة ٠

وصلنا الى السجن الجديد في وقت متأخر بحيث اضطررت الى فرش ملاءة في زاوية بين براميل الخمر لقضاء الليل وبجانبي قفتي التي تحتوي على كل ما أملكه على هذه الأرض ٠ وبعد لأي رأيت أن استعملها وسادة حتى لا تسرق مني ٠

كان الجو باردا ورائحة السجن الكريهة تتصاعد عالية وعدد الفئران الذين يسرحون ويمرحون كبيرا ، وجيوب القمل المعشش والبراغيث الطائرة لا تحصى ، ولهذه الاعتبارات لا أحتاج الى القول بان نومي في تلك الليلة لم يكن مريحا ٠ وكذلك كنت أشعر بنوع من الغبطة حينما استدعيت للعمل في الصباح المبكر ٠

استمرت حالتي بدون تغيير منذ هذا الوقت حتى شهر مارس 1787 ، فكنت اعمل في مشغل النجار في النهار كما كنت ارسل لنقل الأحمال الثقيلة

لشحن السفن أو لانزال الأسلحة من على ظهر السفن الحربية ، وتعبئة السفن التجارية باكياس القمح ، وفي يوم الجمعة كنت ارسل الى العمل في بـــاب الوادي في المخازن ، او الى راس بيسكاد لنقل الحجارة الكبيرة ورميها وراء حاجز البحر حتى لا تطغي الأمواج ، وباختصار ، كنت اقوم بجميع الأعمال التي كان يقوم بها العبيد في الايالة بدون استثناء ٠

ولكن هذا لم يكن كل ما في الأمر ، فان حرس السجن ومستخدمي العبيد الذين كانوا يفترضون أننا نملك مالا ، كانوا يوجهوننا الى اشق الأعمـــال وأقذرها مستعملين أقذع ألفاظ السب والشتم وكثيرا ما تحدث سياطهم جراحا بالغة في أجسامنا ، وذلك لارغامنا على شراء رضاهم ومسالمتهم بما يتراوح بين 30 و 40 سنتيم ، ولكن هذا المبلغ ، بالنسبة الى الذين يملكونه ، يمثـل مليون دولار ٠

لا بد وان يكون القارىء قد استنتج الآن ان كنزي قد نفذ في هذه المرحلة ، وأن الملابس التي حملتها معي من القصر قد بيعت حتى اتمكن من سد حاجاتي المستعجلة ٠ وهذا صحيح ٠

كنا نتلقى من بلدنا خلال فترة معينة مبلغ 7،5 سنتيم في اليوم ، ولكن هذه المنحة المتواضعة لم تلبث ان سحبت منا ، وستمر عدة سنوات دون أن تسترعي حالتنا انتباه أحد ، وكانما لم يعد هؤلاء البؤساء موجودين على قيد الحيـــاة ٠

وهكذا يمكن للقارىء أن يتصور ان حالتنا لم يكن من الممكن ان تكـون أسوأ مما هي ، ولا سيما بعدما دخل الى الجزائر وباء جاء من تركيا وأخذ يظهر في سجون الأسرى ٠

على أن حالة الوباء لم يكن لها أي تاثير في تخفيف الأعمال الشاقة التي نقوم بها ، فما دمنا على قيد الحياة ، يجب علينا أن نعمل ٠

استمرت هذه الحالة التعسة بالنسبة الي حتى 17 مارس 1787 ، حينما قام ملك نابلي بفدية رعاياه الذين أسروا في عرض البحر ، باستثناء اولئك الذين هربوا من نابلي على متن سفن شراعية ٠

وصلت بارجة حربية تابعه لمملكة نابلي (١) تحمل على متنها مال فدية الأسرى وسمح لهؤلاء بامتطاء السفينة وهي تحمل علم الهدنة .

كان عدد الأسرى النابوليين يبلغ نحو ثلاثمائـة اسيـر وكان معظمهـم يشتغل في أعمال مرموقة ، وبذهابهم أصبحت كثير من الوظائف شاغرة وسيحل مكانهم فيها الباقون من زملائهم العاثري الحظ . وكذلك اخذت انا من مشغل النجار مع عدد من الزملاء وامرنا بالقيام بزيارة المدير العام للبحرية .

كان يعمل في هذه المصلحة ، بصفة عامة ما يتراوح بين 6 و 9 من العبيد المسيحيين يقدمون الطعام للفيكلهارش ، ويحافظون علـى المخـــازن ويحملون مفاتيح السجن ، ويقدمون الخبز والزيت للعبيد ، وبصفة عامة ، كل ما يؤمرون بالقيام به من الأعمال ، ولكنهم غير خاضعين لحرس السجن كما انهم لا يتلقون الأوامر الا من المدير العام .

انهم حسنو التغذية ويتلقون منحا من الشخصيات الكبيرة التي تقـــوم بزيارة المدير العام ، ولا سيما ، البايات والخلفاء والقياد والسفراء والقناصل الأوروبيين الذين ينتظر من كل واحد ان يلقي بقطعة من النقود في صنـــدوق صغير معد لهذه الغاية بعدما يتناولون القهوة معه .

وهذا المال يوزع بين العبيد المسيحيين كل ليلة الثلاثاء ، وهم يتمتعون دائما بالراحة يوم الجمعة من كل اسبوع .

كان هذا الانتقال يمثل تخفيفا كبيرا في حالتنا وفي عذابنا ، ولا سيما واننا كنا عراة تقريبا ، بعد ما بعنا ملابسنا .

وفي مقر العمل الجديد ، تلقينا قطعتين من قماش مصنوع من القطن تكفي لتفصيل جاكتين وسروالين ، كما تلقينا مبلغا من المال يكفي لمواجهة تكاليـف الخياطـــة .

وعلى الرغم من اننا نقوم في بعض الأحيان باعمال شاقة في المخازن ، فان هذه الحالة تعتبر احسن ما يصل اليها العبد وتدفع من اجلها رشوة معتبرة فـي العـــادة .

---

(١) مملكة ايطالية قديمة عاصمتها نابلي الحالية ، وتمثل الجزء الذي يقع في شبه الجزيرة الايطالية من مملكة صقلية ، احتفظت بها اسرة « انجوفين » Angevine بعدما اخرجت مـن جزيرة صقلية في سنة 1282 . وبعد ذلك وقعت تحت سلطان اسرة لاراجون في القرن الخامس عشر ، قبل أن تخضع لاسرة البوربون الفرنسية ، ابتداء من سنة 1734 . وقد استمرت المملكة تحت الحكم الفرنسي بعد الثورة الفرنسية وفي عهد الامبراطور نابليون . وقد وحد نابلي مـع صقلية من جديد الملك فردناد الرابع وجعل منهما مملكة واحدة تدعى " مملكة الصقليتين " .

على الرغم من أن معاهدة السلام بين الجزائر واسبانيا قد وقعت منـــذ يونيو 1785 ، فان الاسرى الاسبان لا يزالون في الجزائر •

ظهر الوباء في يناير وذهب ضحيته 16 من الأسرى المسيحيين ، وفي شهر فبراير مات 41 آخرون • وعندما افتدي اسرى نابلي في شهر مارس ، كان عدد الوفيات في ازدياد مستمر •

أخذ القساوسة الاسبان يفكرون جديا في حالة الاسرى الاسبان الذين يزداد غضبهم يوما بعد يوم ويلومونهم على حالة بقائهم في الاسر مدة طويلة بعـد توقيع المعاهدة ، بل وبلغ الأمر بهم الى تهديد حياة القساوسة •

وفي نهاية الأمر ، وقعت تسوية وضعوا انفسهم مع السفير الاسباني في وضع المسئولين أمام الداي والضامنين لوصول الفدية للاسرى الذين أخذوا في عرض البحر • وفي 19 مارس ، نقل هؤلاء على متن سفينة روسية كبيـــرة وقعت في الأسر واشترتها اسبانيا لهذه الغاية ، واتجهت الى جزيرة منورقة حيث اجري عليها الحجر الصحي •

كان العبيد الذين هربوا من الحامية الاسبانية من وهران ، وهم ينتمون الى مختلف الجنسيات ويبلغ عددهم نحو ألف ينتظـرون أن تشملهم هـــذه الفدية العامة • وبعض هؤلاء البؤساء قضوا في الأسر مدة خمسين سنة ، وقد كفروا بما فيه الكفاية عن الجريمة التي ارتكبوها في شبابهم • ولكنهم لما عرفوا أن التسوية لا تشملهم ، تبددت كل آمالهم ووقعوا في حالة شنيعة مـن اليأس والقنوط وراحوا يهددون القساوسة والسفير الاسباني والاحرار مـــن المواطنين الاسبان بالموت ، لانهم اعتبروهم السبب في عدم ادراج اسمائهم في قائمة الاسرى المفتدين ، فلم يمكن تهدئتهم الا بصعوبة كبيرة وبعد ما وعـد القساوســة بكل جد بأنهم سوف يكتبون لملك اسبانيا ولرؤساء الطوائف الكهنوتية التي ينتمون اليها للدفاع عن قضيتهم • وهذه الوعـود والمداولات بعثت في نفوسهم أملا جديدا وهدات من روعهم قليلا ، ومع ذلك ، فان سخطهم قد دفع بهم الى الشغب واعمال العنف ، وكثيرا ما خيف على حياة القساوسة• منهم واذا اعتبرنا الطبقة التي ينتمي اليها هؤلاء الاسرى وأن القساوسة لم يوفوا بوعدهم ، فانه لا يستغرب وقوع ما لا تحمد عقباه •

مرت اثنتا عشر سنة بعد كتابة ما تقدم عندما عدت الى الجزئر في سنة ١٧٩٩ ، فوجدت هذ هالمخلوقات البائسة لا تزال كلها في قيد العبودية • مات بعضهم في الوباء والباقي افتدي في فترة تالية • ولما افتدي عدد من الاسرى

الاسبان وأخذوا يتاهبون لاستقالة السفينة للعودة الى بلدهم ، وقعت مناظر تحز في القلب حينما راحوا يودعون رفقاء في الأسر الذين قدر لهم ان يبقوا وراءهم ، وقد كانت الدموع تجري غزيرة • وقد قاموا بتوزيع ملابسهم وما بقي لديهم من المال القليل الذي جمعوه بمشقة على اولئك الأسرى الذين لم يعد لهم كبير امل في مصيرهم •

ولما اقلعت السفينة تابعتها عيون الأسرى البؤساء ، ولما اختفت في الافق صعدت صيحة عالية من اعماق نفوسهم ، ثم سقطوا في غمرة من القنوط قائلين ان آمالهم قد اختفت مع تلك السفينة ، وانهم لم يعودوا يهتمون متى يجتاحهم الطاعون وتنتهي ماساة حياتهم •

بلغ عدد الاسرى الذين افتدوا أكثر من مائة ، ولكن الوباء كان مستمرا في حصد ارواح الباقين • فقد مات 43 منهم في هذا الشهر ، و 105 في شهر ابريل ، ومع ذلك ، فان الأعمال تجري كالمعتاد ، وقد كان ازدياد العمل من العوامل التي تعرض الأسرى للعدوى ، وهذه نقطة ساوليها عناية خاصة لدى الحديث عن المرض المخيف •

برحيل الاسرى الاسبان بعد فديتهم شغر منصبان ، منصب القهوجي ومنصب موظف في وزارة البحرية ، وقد اختير لشغل المنصب الثاني جيوفاني دولا كروز ، وهو مواطن من لوغورن كان يعمل وكيل ربان في سفينة لوغورنية كبيرة كنت قد تركتها في مدينة بوسطن وتعرفت به هناك ، ود قوع في الاسر في السنة الماضية ، واما المنصب الأول ، القهوجي ، فقد كان من حظي انا •

كان عمله مسك الدفاتر ، وعملي انا اعداد القهوة وتقديمها للمدير العام وللشخصيات التي تحضر لزيارته • وكذلك كان من بين مهام منصبي الاشراف على العبيد وتحمل المسئولية عن سلوكهم ، وقد كان من الواجب علي أن اقدم تقريرا عن كل من يسيء التصرف منهم •

منح موظف البحرية ، دولا كروز ، غرفة مجانا في سجن « جاليرا » ، وقد انضممت اليه لاشاركه هذا الماوى • كانت وضعيتنا الجديدة محتملة ، هذا اذا استثنينا رؤية الناس حولنا يتساقطون كاوراق الخريف ويموتون من الوباء •

كان علينا ان نحضر الى البحرية في نفس الوقت مع غيرنا من العبيد ، اي بمجرد ما تفتح ابواب البحرية في الصباح الباكر ، وذلك حتى اعد مقعد المدير العام ، واجهز قهوته ليتناولها لدى وصوله •

وبوصفنا عبيدا نتمتع بالثقة كنا نحصل عادة على اجازة يوم الجمعة ونخرج من المدينة لنبلغ في تجوالنا المنطقة التي تقع فيها منازل القناصل الريفية ٠

وفي شهر مايو ، مات مائة وخمسة وخمسون أسيرا من بينهم صديقي ، جيوفاني دولا كروز، وقد وقع طريح الفراش بضعة ايام ثم مات في 11 يونيو ماسوفا عليه من جميع من عرفه ٠ وفي فترة مرضه القصيرة ، قمت بمساعدته بكل ما في وسعي ولكن بدون جدوى ٠

ويوم سقط ضحية للوباء ، أمرت بان اقوم بمسك دفاتر البحرية حتى يموت أو يشفى ٠ وفي 12 يونيو عينت موظفا محاسبا في البحرية ٠

بقيت في هذا المنصب حتى مات جميع من كنت أعمل معهم ، باستثناء الفيكيلهارش ، واستبدلوا بغيرهم ثلاث مرات ٠

وأما رفيقي الذي اسر معي في السفينة والذي سأعود للحديث عنه ، فقد فصل من عمله في المخازن لعدم كفاءته باعتباره عاملا جاهلا ولم يكن في استطاعته التدرب على المهام التي أنيطت به ٠

وكذلك مات نائب حارس السجن « بيليك » وعين مكانه شخص آخر ، ثم مات هو ايضا وخلفه في هذا المنصب تركي يلقب « بلوكاج » ومعناه « صياد السمك » بالتركية ، فهذا الرجل لم يشغل قط وظيفا في حياته ، كما ان رتبته في الجيش لا تزيد عن رتبة جندي عادي ٠ كان جاهلا جدا وفقيرا ومتقلب المزاج في تصرفاته ، وكان يعتبر خطأ ما ليس بالخطا ، ولكن الأسوأ من ذلك انه كان غير نزيه ، وقد قام بسرقة عدة أشياء من المخازن ، ولكن أحدا لم يجرؤ على اتهامه بالسرقة ٠

وهكذا أصبحت وضعيتي من جديد غير مريحة ، ولكنني ، مع ذلك ، بقيت في منصبي حتى سنة 1788 ٠ كان اليوم يوم الخميس ، وعندما انتهيت من حساب المبالغ التي يسلمها نائب مدير السجن الى الخزينة العامة ، اتضح أن المبلغ المحسوب اكبر من الذي كان بيده ٠ بدأ بان حاول اقناعي بانني قد ارتكبت خطا في الحسابات وطلب مني أن اقوم باصلاحه دون لغط أو ضجيج ٠

وهذا الطلب رفضته باصرار وقرات عليه كل فقرة على حدة من مبالغ المال التي سلمت الى عهدته ، والمبالغ التي دفعها في مقابل شتريات ٠

وعندئذ ، حاول ان يلقي التهمة على الأسرى قائلا انهم لا بد وان يكونوا قد سرقوا المال المفقود من الدرج الذي وضعه فيه وذلك على الرغم من انه هو الذي يحتفظ بالمفتاح في جيبه •

وهذا الخلاف لم يلبث ان تحول الى جدال حاد انتهى الى أن يبلغ ادارة البحرية بانني قد اتهمته بالسرقة ، وانه تبعا لذلك ، يجب أن يغادر احدنا منصبه ، انا أو هو •

حاول المدير تهدئته ولكن بدون جدوى • ولكنه نظرا لان الأتراك لا يتخذون موقفا بجانب مسيحي مهما كان على الصواب ، ولا سيما حينما يكون الأمر متعلقا بتركي ، أو بجندي . فقد خلعني من منصبي وعدت الى الحانة ،وقد أقسم الا يعين موظفا آخر لمسك الدفاتر من بين الأسرى •

وهذا التعهد أوفى به ، لانه عهد بهذه المهمة الى موظف تركي استمر على القيام بها حتى عزل نائب مدير السجن من منصبه ، وهو أمر حدث بعد طردي بوقت قصير • وبعد ذلك كنت اقابله كثيرا وهو في طريقه الى ممارسة حرفته القديمة والصنارة في يد والقفة في يد اخرى وفيها بضع سمكات •

بقيت في الحانة بعض الوقت ، ولكنه نتيجة لوفاة عدد كبير من العبيد شغرت وظيفة في سجن « جاليرا » تداولها ثلاثة موظفين ماتوا الواحد تلو الآخر في ظرف ثلاثة اشهر ، وعينت فيها •

ومهام هذه الوظيفة هي الأشراف على العبيد ومراقبتهم وتقديم تقرير عند موت أحدهم أو مرضه والتاكد من توزيع الخبز الأسود عليهم ، والذهاب كل صباح الى البحرية ، والخروج يوم الجمعة لمراقبة العبيد الذين يعملون خارج المدينة •

ونظرا لان عددا من الموظفين الذين يعملون في قسم جلود الغنم وفي قسم الفحم قد ماتوا مؤخرا ، فقد كان علي ان اقوم بنفسي باعمالهم ، الأمر الذي اصبح معه وقتي كله مشغولا واثر على صحتي ، وأنا مدين للعناية الآلية التي ابقتني على قيد الحياة حتى الوقت الحاضر •

★ ★
★

الفصـــل الثـــامـن

في يوم 17 مايو ، 1788 ، رفع العلم الرئيسي على الساعة الخامسة صباحا على التحصينات البحرية • وقد ردت السفن المسيحية الراسية في الميناء على هذه الاشارة بالتحية التقليدية بان رفعت اعلامها •

لقد خرج الديوان الجزائري كله ، فيما عدا الداي ، لاستقبال باي قسنطينة ولمرافقته الى قصر الداي ، وكان قد وصل في الليلة الماضية وضرب خيمته في مكان قرب المدينة ، على مسافة أربعة أميال من باب عزون •

كان القائد الأعلى لجميع القوات العسكرية في الأيالة وعدد من الشخصيات الرسمية قد قصدوا اليه في الليلة الماضية ليتباحثوا معه في حالة حكومة الداي وغير ذلك من الأمور المهمة في الدولة •

وعلى الساعة السادسة قابل أعضاء الديوان الباي وهم يمتطون جيادا عربية مسرجة بسروج فاخرة • وبعد التحيات والمراسم التقليدية ، عادوا ادراجهم بصحبته الى العاصمة بالترتيب التالي : في الطليعة.، حرس الباي من « السبايس » الذين يبلغ عددهم نحو ثلاثين نفرا ، ويليهم في المرتبة الثانية ، خمسون بغلا محملة بالأموال ، وكل بغل يحمل على ظهره الفي « باتكاجوداس » ، وفي المرتبة الثالثة 40 حصانا بربريا ، وهذه هي الضريبة التي يقدمها الباي للايالة مرة في كل ثلاث سنوات ، وبالاضافة الى ذلك يتحتم على الخليفة ان يقدم نصف هذه المبالغ مرة في كل ستة أشهر للداي ، وفي المرتبة الرابعة تاتي ستة بغال مثقلة بالذهب الذي يوزع على الداي وأعضاء الديوان في صورة هدايا تقدر قيمتها باربعة وعشرين الف سكوين ، تحت عنوان : هدية الى منزل الداي •

وبعد ذلك تاتي سبعة بغال تحمل هدية حسن باشا (1) ابن باي قسنطينة الأخير ، وهي مثقلة بالمال حيث يحمل كل بغل منها 2000 « باتاكاجرداس » ، وحسن باشا انما يقدم هذا المال كاجراء سياسي لاسترضاء الداي وكسبه اليه ، أكثر مما يكون ذلك تعبيرا عن تقديره لشخصه أو رعاية لمصالح الأيالة •

---

(1) تزوج حسن باشا بابنة الحاج منصور التي ضمت اراضيها الى اراضيه ، الامر الذي اصبح معه من أغنى الشخصيات في الايالة ، وذلك بالاضافة الى ما ورثه من ابيه الداي الاسبق •

وجاءت عقب ذلك عدة جياد فاخرة السروج ، تقدم هدايا للشخصيات الكبيرة ويرافقها عدد من حرس الباي ٠

والمنظر التالي الذي شاهدناه ، هو منظر سبعة اعلام منشورة على ظهر الجياد ، وجوقة من الموسيقيين العرب وثلاثة من الدراويش ، يعلنون وصول الباي ، ويتلوهم الحرس الشخصي للباي ، وهم يرتدون ملابس غريبة وعلى رؤسهم قبعات مزينة بالريش ، وفي اعقابهم الباي ، وعلى يساره الخزنجي ، ووراءه الآغا والخوجه المكلف برعاية الحيوانات التي هي ملك للايالة ، ووراءهم اعضاء الديوان والمدير العام للبحرية ثم شخصيات من درجة اقل ٠

وعلى الساعة السابعة صباحا ، دخل الموكب من باب عزون الى المدينة واطلقت جميع مدافع الحصون البحرية طلقات لتحيته ، كما فعلت جميع الحصون التي مر بها في طريقه ٠

ولدى وصول الباي الى قصر الداي ، نزعت منه اسلحته خوفا من ان تخطر بباله خواطر ثورية ويقوم بمحاولة لاغتيال الداي ، ثم مضى راكبا في رفقة الخزنجي حتى وصل الى بلاط القصر ، ونزل عن جواده بمحضر الداي ، واما بقية رجال الموكب ، فقد نزلوا من على ظهور خيلهم عند باب القصر الخارجي ٠

وبعد تقديم تحياته للداي قبل يده ثم جلس في مقابله ودخل في حديث معه لمدة نحو ساعة تناول خلالها القهوة ، وملأ صحن الفنجان بالنقود كما جرت العادة ، وهذا المال من حق القهوجي المسيحي الذي يعمل في القصر ، وهو في العادة يختار اكبر فنجان في القصر ليقدمه للباي ، حتى تكون المكافأة ملائمة ٠٠

وبعد ذلك يقبل الباي يد الداي ويخرج وفي رفقته عدد من رجال الحاشية لتوديعه ٠

واثر ذلك ، يعقد الديوان اجتماعا ، واذا راى ان سلوكه كان مرضيا ، يبعث اليه الداي مع كبير موظفيه المسيحي الذي يتولى خدمته شخصيا بالقفطان التقليدي ، رمزا لاستمراره في مهام منصبه ٠ ولكنه اذا اعتبر سلوكه غير مرض ، لا يرسل اليه القفطان ، ومعنى ذلك عزله ٠

وفي هذه الحالة الأخيرة ، بمجرد خروج الباي من منزله ليقصد الى قصر الداي ،فيلقى عليه القبض ويقدم الى الآغا ليلقى به في غياهب السجن ثم تقطع راسه بدون محاكمة وفي وقت سريع ، حيث ان التأجيل قد تكون له عواقب خطيرة ٠

ومتى تلقى الباي القفطان ، تأكد من ان الداي راض عنه ، وكذلك الديوان وان تصرفه كان سليما ، وانه لا مبرر للخوف من أن يأتيه أي ضرر من هـذه الناحيـــة ٠

وفي غضون المدة التي يقيمها الباي هنا ، وهي عادة ثمانية أيام ، يقوم بزيارة الداي مرتين في اليوم ، وذلك فيما عدا يومي الثلاثاء والجمعة ٠

رافق الباي في رحلته هذه سبعة عشر عبدا من المسيحيين الذين يعملون في خدمته ، معظمهم من الجنويين والنابوليين كما يرافقه طبيب مسيحي حر ٠

انه شاب اسمه جان جي ، وهو قريب لونص جيمون ، أحد كبار التجار الفرنسيين هنا ، وقد كان في خدمة الباي مدة تسع سنوات ، حيث يكسب مبالغ طائلة من المال سنويا ، وهو يتمتع بحظوة خاصة لدى الباي ٠

وكذلك اصطحب الباي معه أحد عشر أوروبيا ممن تخلوا عـن دينهـم واعتنقوا الاسلام بعدما يئسوا من فديتهم ، وهم من الاسبان الهاربين مـــن الحامية الاسبانية التي تقع في مرسى على الشاطيء على مسافة ثمانين فرسخا في غرب الجزائــــــر ٠

وباي قسنطينة ، هو أغنى البايات الثلاثة ويتمتع بصلاحيات لا حد لها ، وقد أخضع مساحات شاسعة من تونس ويجبي الضرائب من التونسيين ٠ انه يجمع مبالغ كبيرة من المال منهم بحجة انفاقها على المصلحة العمومية ، ولو أن الحقيقة هي انه انما يضيفها الى ثروته ويستعملها لأغراضه الخاصة ٠

والجدير بالذكر انالتونسيين يتحملون هذه المعاملة الجائرة بدون احتجاج، حيث انهم يعرفون درجة تخلفهم وضعفهم بالنسبة الى الجزائريين ، وبالتالي لا يجرؤن على معارضتة الباي ٠

وحين يكون الباي في ولاية قسنطينه يقيم في مدينة تحمل نفس الاسم ويعيش في ترف عظيم ٠ والمدة المحددة لاقامة الباي اثناء زيارته للداي ، هي ثمانية أيام ، كما قلنا ٠ ولو اقام مدة اطول لعرض نفسه لغضب الداي ، وحينما يعود الى ولايته بعد هذه المدة في تلك الحالة ، يكون قد جرد من أمواله التي كسبها بطريقة غير شرعية ٠

وبمجرد وصوله الى عاصمته يشرع في القيام بحملة لاغتصاب ممتلكات العرب البؤساء ، بحيث لا يكاد يمضي وقت يذكر حتى يسترجع الثروة الطائلة التي جاء بها الى الداي في الجزائر ٠ ان الذين يدفعون ثمن ترفه وهداياه هم العرب المساكين الذين وضعتهم العناية الالـهية تحت سيطرته وحكمه.

كان يرافق باي قسنطينة لدى وصوله الى الجزائر منصور الشريف ، وهو شيخ مرابط ، ورئيس احدى القبائل الكبرى في الولاية ، وبالتالي ، فهو يتمتع بسلطة روحية ودينية معا ، على عدد كبير من العرب ، وتشمل سلطته قبيلة فليسة ومنطقة باب الحديد وما يليها في الاتجاه الشرقي . انـه عربـي ثري قوي السلطان .

وباب الحديد عبارة عن ممر ضيق جدا في جبال الاطلس يقع تحت سيطرة العرب الجبليين ، والطريق الذي يمر به بين الجزائر وقسنطينة يختصـر المسافة ببضعة ايام ، بحيث لو وقع سوء تفاهم بين هـذا الشيخ وبـاي قسنطينة او سلطات ايالة الجزائر ، يستطيع ان يحمل اولئك العرب بحيـث يضايقوا حركة المرور ، بل ولربما خلقوا مشاكل لا تحل الا باستعمال القـوة العسكرية . وهذا النزاع ، فضلا عن ما ينجم عنه من اراقة الدماء بين الطرفين ، سوف يحرم الاتراك من جباية الضرائب في هذه الاراضي الشاسعة . ولهـذه الاعتبارات وغيرها ، فان هذا الشيخ الذي يتمتع بمكانة دينية بين اتباعه ويملك ثروة كبيرة ونفوذا قويا ، هو بمثابة « البابا » عند العرب ، ولا يجرؤ احد على ان يعصي له امرا دون ان يعرض نفسه للهلاك .

ولهذه الاسباب كلها ، قرر الداي والديوان الجزائري ان يعامل الشيـخ منصور نفس المعاملة الممتازة التي يتمتع بها الباي ، بحيث تتجنب الايالة كل ما قد يثير شكواه .

في هذا اليوم ، وهو 24 مايو 1788 ، اجتمع المرابط الشيـخ منصـور ، وحسن باشا ورئيس الوزراء (الخزنجي)وغيرهم من الضباط العسكريين وباي قسنطينة بالداي ، وسالوا الباي حول مبلغ من المال وجهه اليه على سبيـل الهدية باي تونس ووضعه في يده الحاج منصور الذي كلفه باي تونس بـان يسلمه اياه ، اثناء مرور الحاج بتونس عائدا من الأماكن المقدسة .

قيل له ان رسائل كثيرة وصلت من الباي الى الجزائر ولكنه لم يذكر للداي شيئا عنها ، وانهم ، تبعا لذلك ، استنتجوا ان الباي سوف يحضر ذلك المبلغ بنفسه لدى قدومه الى الجزائر . ولذلك ، فان هذا هو الوقت الملائم لتسليمه .

ابدى باي قسنطينة دهشة كبيرة امام هذا السؤال وصرح بكل وقار بانه لم يتسلم اي مبلغ من المال او اية هدية من الحاج منصور لدى عودته من اداء فريضة الحج في مكة ، بل انه لم يتسلم حتى مجرد رسالة من باي تونس .

وازاء هذا الموقف استدعي الحاج منصور الى المجلس حيث سئل عما اذا كان قد تسلم المبلغ المذكور من باي تونس ، فاعترف صراحة بانه قد تسلمه فعلا ، ولكنه نتيجة للعدد الكبير من المعاملات التجارية وغيرها التي دخل فيها عقب عودته من الحج ، صرف ذلك المبلغ ونسيه تماما ، فلم يسلمه الى الباي ، وانه لو لم يذكر به في هذه اللحظة لبقي في طي النسيان وربما الى الابد . وعقب ذلك ، أعرب عن أمله في أن يغفر له الداي وباي قسنطينة هذا النسيان وما جر اليه من الاهمال ، حيث أن ذلك لم يكن نتيجة لمحاولة اختلاس مال الآخرين.

ولكن الداى والباى اعربا عن شكهما في اقوال الحاج منصور. وقد تراءى لباي قسنطينة الذي يعتلج في نفسه شعور الغيرة من حسن باشا (صهر الحاج منصور) لما يبديه ديوان الجزائر من التقدير له وما يحمله له جنود الباى في ولايته من شعور الطاعة والاحترام ، تراءى ان هذه فرصة ملائمة لتسجيل شكوى ضد الحاج منصور ، وخصوصا ، ضد حسن باشا الذي قال عنه أمام الداي انه يدعى لنفسه صلاحيات أكبر مما يسمح له به محدده ، واضاف أنه بوصفه باي قسنطينة . سوف لا يسمح لحسن باشا أن يلعب دورا اكبر من الدور الذي كلف به هو في حكم الولاية . وقال ان حسن باشا قد تصرف بصورة مخجلة حين كان يشغل نفسه بامور حكومة قسنطينة بل وحكومة الايالة ايضا ، واختتم قائلا ان الخزنجي يبدي من الاحترام لحسن باشا اكثر مما يظهر للباي نفسه ، وقد كلف حسن باشا بمهام رسمية هي مما يدخل في صلاحيات الباي ، ولهذه الاعتبارات ، فهو (اي الباي) يعرب عن رغبته في ازاحة حسن باشا عن هذه المسئوليات .

وعند ذلك ، تبنى الخزنجي قضية حسن باشا وصرح للباي بمحضر الداي بان كل معاملة غير لطيفة لحسن باشا يعتبرها موجهة اليه شخصيا .

وجاء دور حسن باشا ، فادعى انه يعتقد ان حياته في خطر واعرب عن أمله في أن يقدم اليه الخزنجي بعض الضمانات والحماية .

وكذلك اكد له الخزنجي انه سوف يتخذ جميع الاجراءات الضرورية والممكنة لمنع الباي من الاعتداء على شخصه او على ممتلكاته .

ومن جهته ، فوجىء الباي كثيرا لان يرى حسن باشا يتمتع بمثل هذه الحماية القوية التي اعرب عنها رئيس الوزراء بمحضر الداي .

وقد تلى ذلك نقاش حاد بلغ ذروته القصوى ، وتدخل الداي واعضاء الديوان الحاضرين في النزاع لتسويته بطريقة ودية بقدر الامكان ولتهدئة العاصفة التي تجتاح المجلس . وقد لوحظ بصفة خاصة أن الداي قد اتخذ موقفا هو في صالح الباي اكثر مما هو في صالح رئيس الوزراء .

ودع باي قسنطينة لدى رحيله عن مدينة الجزائر بكثير من الحفاة كما منحه الداي كثيرا من الهدايا الثمينة التي من بينها عبدين مسيحيين . وكذلك قدمت له معظم الشخصيات البارزة ، عدا الخزنجي ، هدايا كان من بينها عبد مسيحي بائس آخر .

وبهذا تأكد الباي من أن الديوان والداي راضون عن سلوكه ، فعاد الى عاصمة ولايته مطمئن البال ، تاركا وراءه في الجزائر حسن باشا ، بناء على أوامر الخزنجي .

وأما الحاج منصور ، فقد عاد الى سكان الجبال من العرب ، ومن هناك وجه للداي مبلغ المال الذي كان باي تونس قد ارسله عن طريقه الى باي قسنطينة .

وهذه الهدية التي خصصها الداي لاغاثة المنكوبين ولغير ذلك من اعمال الخير ، سمعت أن قيمتها تبلغ 40000 « منبوب » .

في يوم 25 مايو 1788 ، قدم حسن باشا الى الخزنجي سرة تحتوي على 20000 « منبوب » الامر الذي سمح لرئيس الوزراء أن يقوم بمساعي لصالحه ادى الداي والديوان ، وقد قدم اليه هو بدوره هدية قيمة ، كما خلع عليه قفطانا اعظم من الذي خلعه الداي على باي قسنطينة . واضاف الخزنجي انه سيكون في وسعه أن يتخذ الداي صديقا عما قريب ، وعند سماعه هذه الكلمات ركع حسن باشا على ركبتيه ليقبل اقدام الخزنجي ، ولكن رئيس الوزراء منعه من ذلك ، وقبله بعطف وابدى له كثيرا من التقدير والاحترام .

الاثنين 26 مايو 1788 ، حضر الخزنجي صباح اليوم الى قصر الداي كالعادة ، وجلس عند الباب الخارجي وانتظر هناك حتى فتح الباب بين الرابعة والخامسة ، وقد كان يرافقه الآغا وخوجه حيونات الدولة (خوجه الخيل) . ولما حضر الباشا وحاول تقبيل يده ، دفعه بعيدا عنه بعنف ثم أخذه من عنقه بمساعدة شاويشين وخلع عمامته وبرنوسه ثم دفع به الى الآغا .

سألت الآغا عن السبب الذي استحق من اجله الخزنجي هذه المعاملة السيئة ، اجابني بانه لا يعرف شيئاً عنها ، ولكن الأوامر هي الأوامر ، ولا بد من طاعة الداي ٠

سحب الشاوشان رئيس الوزراء تحت نافذة غرفة الداي ، وكان المسكين يصيح بصوت مرتفع : « يالاهي ، يالاهي ! ماذا صنعت ؟ أما من أحد يشفع لي ويدافع عني ؟ يالاهي ، امنع العذاب عن زوجتي وابنائي » ٠ وقد أكد له الآغا أنه سيعمل كل ما في وسعه لمساعدته ما بقي على قيد الحياة ٠

ولكن هذه الشخصية العظيمة والبائسة اقتيدت بسرعة الى ساحة الاعـــدام ٠

كان الحبل الأول الذي استعمل لشنقه قد تقطع لسبب مجهول ، وهـو نصف ميت ٠ واثر ذلك احضر حبل آخر ليضع حدا لهذه الأعمال الفضيعة ٠

مات هذا الرجل الطموح وهو موضع شفقة الجميع ، ولكنه لم يبكه الا اصدقاؤه السياسيون من الأتراك ٠

حمل جثة هذه الشخصية التي كانت منذ ساعات معدودة تحتل المكانـة الثانية بعد الداي ، اربعة من حثالة الناس من العرب وساروا بها الى منزله الجديد الجميل والقوا بها عند بابه الخارجي ، ولم يسمح لاي شخص بتقديم تعازيه الى اسرته ، ومن اجترا على ذلك عرض نفسه للعقوبة بتهمة عصيـان اوامر الداي ٠

وبعد ذلك ختم على منزله ولم يكن من المسموح لاحد بالدخول اليه بدون اذن من الداي ٠

كان أفراد من اسرة الخزنجي في الحديقة ، ولما سمعوا بالحدث المأسوي ارادوا الحضور لنقل جثته ، ولكن الحرس منعهم من ذلك ، وكذلك تولى الحرس حراسة ممتلكاته حتى لا تقع في يد اي واحد من اصدقائه ٠

وبعد الحادث بساعتين قصدت زوجة هذا السياسي الكبير الى شرفـــة منزلها وحاولت ان تلقي بنفسها منها ، ولكن بعض الحاضرين اسرعوا اليها في الوقت الملائم وانقذوها من الهلاك ، وقد طلبت في تضرع مؤثر السماح لها بان تلقي نظرة اخيرة على زوجها قبل دفنه ، فاجيبت الى طلبها ٠ وعند ذلك قصدت الى الغرفة التي سجيت فيها جثة زوجها ، ولكنها لما وصلت الى الباب منعهـا الحرس من الدخول ٠ ولما الحت دفع الحرس المراة البائسة بعنف كبير ٠

وعلى الساعة الثانية بعد الزوال ، نقلت جثة هذا السياسي الخطير الشان والذي كان اسمه يثير الرعب في النفوس ، الى مثواه الاخير ، ولم يشارك في تشييع جنازته تركي واحد • وكان الداي قد اصدر امرا بانزال عقوبة الموت باي شخص يشارك في تشسييع جنازته • وقد ووري التراب في قطعة أرض في باب الوادي اشتراها بماله الخاص بدون اي احتفال ، تاركا وراءه زوجة واطفالا ليبكوا على مصير الاسرة البائسة •

واما حسن باشا ، فانه عندما فقد صديقه وحاميه ، التجا الى مقام والي كبير في مدينة الجزائر وبقي هناك ليرقب تطور الأحداث •

ولكن الداي سارع باصدار أمره بالاستيلاء على منزل حسن باشا وجميع ممتلكاته وضمها الى املاك الدولة • وفي الوقت نفسه ، وضع حرسا على ابواب مقام الوالي ليقوم بمنع وصول أي نوع من الطعام اليه حتى يموت جوعا في الملجا الذي لاذ به •

وكذلك هرب بابا عثمان ، شقيق الخزنجي البائس ، والتجا الى منزل أحد أصدقائه ليتجنب الخطر المحدق بالاسرة •

لقد كان حظ حسن باشا تعسا ولم يكن هناك من يمد اليه يد العون ، حيث أنه كان بعيدا عن أصدقائه وعن الحاج منصور الذي عاد الى القبائل العربية والبربر الذين يقطنون الجبال •

ولما وصل باي قسنطينة الى ولايته ، كان أول ما عني به ، هو أن يستولى على منزل حسن باشا ويصادر كل ممتلكاته ، وقد كان هذا أول خبر أبلغه حسن باشا الى حميه بعد رحيل الأخير عن الجزائر • وتبعا لذلك ، أبلغ الحاج منصور نبا ما حدث لجميع رؤساء القبائل التي تخضع لزعامته • وبعد مداولات ومشاورات استقر الرأي على الكتابة الى داي الجزائر في الموضوع وابلغوه انه ما لم يسترجع حسن باشا حريته في الحال ويستعيد ممتلكاته في قسنطينة وفي الجزائر معا ، فان القبائل التي يتزعمها ستعلن حربا دائمة لا هوادة فيها على الداي وعلى نظام الأتراك في الجزائر •

وعلى اثر ذلك ، بدا الشيخ منصور وحلفاؤه في الاستعداد للحرب • وعقب وصول هذه الرسالة الى الداي ، استدعى الديوان لعقد اجتماع بكامل هيئته ، ليعرض عليه رسالة الحاج منصور وليتداول في الموقف الخطير الجديد •

وبعد مناقشة استغرقت مدة طويلة واحتد الجدال فيها ، قرر الديـوان باجماع الآراء اطلاق سراح الشاب حسن باشا واعادة ممتلكاته كلها اليه ، مع تعويض ملائم عن ما قد يكون فقد منها ، وكذلك قرر توجيه اوامره الى باي قسنطينة قبل انتقال حسن باشا الى هذه الولاية ، بان يعيد اليه كل ممتلكاته وان يسمح له بممارسة الصلاحيات التي كان يمارسها من قبل ، دون الاعتداء على أي حق من حقوقه ٠

وهذا التطور يمثل دليلا واضحا على ما يتمتع به الحاج منصور ، شيـخ القبائل العربية التي تقطن الجبال من النفوذ والاحترام لـدى الداي وديـوان الجزائر معا ٠

26 مايو 1788 ، عين اليوم سيدي حسن فيكيلهارش المدير العام للبحرية وزوج ابنة الخزنجي الراحل ، لشغل منصب حميه ٠ وقد كـان هـذا التعيين موضع رضا الجميع ، فيما عدا المقربين من الخزنجي السابق الذين لا يزالون متاثرين بفضاعة الطريقة التي لقي بها حتفـه والذيـن تأثـرت مصالحهـم الشخصية بموتـه ٠

كان سيد حسن ، رئيس الوزراء ومدير خزينة بيت المال الجديد من قبل خادما يتمتع بثقة الداي ، وبعد ذلك ، عمل مديرا للبحرية عدة سنوات ابدى خلالها كفاءة نادرة وتمكن من الحصول على مزايا عديدة للايالة من عدد مـن الدول الأوروبية ، ولا سيما في نطاق المعاهدة التي عقدتها الجزائر مع اسبانيا مؤخرا والتي تتضمن شروطا مهينة ومخلة بالشرف لجلالة الملك الكاثوليكي ٠ فالفضل في هذه المعاهدة كله يرجع اليه ٠

ومنذ بضع سنوات ، ارسل سيدي حسن الـى القسطنطينية بصفتـه سفيرا وعالج قضايا هامة في العلاقات بين الجزائر والامبراطورية العثمانية مع الصدر الأعظم ٠ ولكنه لدى عودته على متن سفينة فرنسية محملة بالذخيرة والأسلحة ، اسرت السفينة بارجة تابعة لاسطول صاحب الجلالة الكاثوليكي، واخذ سيدي حسن الى قرطجنة (اسبانيا) حيث احتفظ به أسيرا ردحا مـن الزمـن ٠

وهذه القضية تحولت الى نزاع بين الجزائر وفرنسا ، فـان الحكومـة الجزائرية أصرت على اعتبار فرنسا مسئولة عن اسر سيدي حسن واستيـلاء اسبانيا على الذخيرة الحربية ، حيث أن السفينة التي كانت تنقله والتـي شحنت فيها تلك الذخيرة ، هي سفينة فرنسية ٠

وهكذا ، فبعد ما قدمت المحكمة الفرنسية عددا من العرائض تطالب فيها باخلاء سبيل السفينة ، اطلق سراح سيدي حسن ، كمـــا اعيـدت السفينة بحمولتها الى ايالة الجزائر • وقد اعيد سيدي حسن الى بلده بعدما لقي معاملة ممتازة من السلطات الاسبانية التي زودته بكثير من الهدايا الثمينة لدى رحيله عن اسبانيا تقديرا لشخصيته ولمكانته في بلده •

* *

*

الفصـــــل التاســـع

يسمح للموظف في سجن « جالير » بتسيير حانة في السجن ولا يدفع سوى نصف الرسوم المقررة ٠ وهذا الاعتبار ، وشرائي لحانة لعينة في السجن، هو الذي مكنني من الحصول على المال في وقت لم يكن فيه زملائي في الاسر يملكون شيئا ٠ ولكنني أعتقد أن الذين عاشوا منهم سيشهدون بانه لا يوجد واحد منهم احتاج الى وجبة طيبة ولم أقدمها اليه مجانا ، وانني قد اعتنيت بعلاجهم في المستشفى اثناء مرضهم ، وسوف يشهد الأحياء أيضا انني تكفلت بشراء الأكفان للموتى منهم على نفقتي الخاصة ٠

وكذلك لم يمت اسير أمريكي واحد لم أشيع جنازته وأقرأ الصلوات عليه ، وابقى بجانبه حتى يوارى التراب ، وهذه العناية قد سجلها بصفة خاصة قناصل الدول الاوروبية والقساوسة الكاثوليك ٠

ظل الوباء يحصد الأرواح طيلة هذه السنة ، ومع ذلك ، فان صحتي لم تكن قط افضل مما هي الآن ٠ ولقد كنت كثيرا ما أقف عند باب المدينة لاعد المواكب التي تحمل الموتى، وأنا لاأعرف متى يحين أجلي ولااهتم او اغتم لذلك٠

وفي سنة 1789 ، خفت وطأة الوباء ولو انه لم يختف كلية ، حيث أن السلطات لم تبذل اي مجهود للقضاء عليه ٠

وفي هذه السنة لم يكن عدد الأسرى المسيحيين الذين ذهبوا ضحية للطاعون يتجاوز 19 أسيرا ٠ وهو ايضا نفس العدد الذي مات من مختلف الأسباب في السنة التالية ٠

وفي سنة 1791 ، لم يكن عدد الأسرى الذين ماتوا يتجاوز 15 أسيرا ٠

وفي سنة 1792 ، كان عدد الموتى منهم 17 أسيرا ٠ وفي سنة 1793 ، عاد الوباء من جديد واستمر بصورة متقطعة حتى سنة 1795 ، ولكن عدد الأسرى الذين ماتوا حتى سنة 1796 ، لم يكن يتجاوز 31 أسيرا ٠

ولكنني مقتنع بان العدوى لا تزال في المدينة وضواحيها في نهاية هــذه الفترة ، حيث أن عددا من القرويين ذهبوا ضحية الوباء في الارياف ٠

كنت في غضون فترة الثلاث سنوات التي تمتد بين 1788 ـ 1791 اشغل نفس الوظيفة التي ذكرتها اعلاه ، وذلك فيما عدا فترة ستة أشهر اشتغلت خلالها محاسبا في عيادة الدكتور ورنر (Warner) ٠

٠ كنت أتناول طعامي على مائدة الدكتور ،ولكنه نظرا لأنني املك مــن المال ما يكفي لحاجتي ، فقد كنت مستقلا عنه تماما ، واستمر عملي معه حتى انتهيت من فرز جميع حساباته ٠

كان الدكتور ورنر يعاملني معاملة حسنة نوعا ما ، ولكنه بعدما انتهى عمله ولم يعد في حاجة ماسة الى خدماتي تغير رأيه في ومعاملته لي ، فأخــذ يغلظ في القول ويستعمل لغة غير مهذبة ، مدعيا انه لا حق لي في الخروج من منزله الا بعد الحصول على اذنه ، وعند ذلك طلبت اليه أن يقدم لي حسابــا للطعام الذي تناولته في بيته حتى اسدده ، ولكنه رفض ذلك ٠

وهكذا عدت الى غرفتي في سجن « جاليرا » ، تلك الغرفة التي كنت قــد أجرتها الى أحد الاسرى اثناء اقامتي عند الدكتور ورنر ٠

وكذلك أقمت اسبوعا في منزل القنصل الانجليزي ، « لوجي » ٠ ونظرا لان القبطان أوبراين الذي عاش في منزل القنصل مدة طويلة ، قد ارسل على متن سفينة للقرصنة للطواف في عرض البحر ، طلب الــي القنصـــل ، عندما اعتزم الخروج من العاصمة لفترة قصيرة ، أن أقوم بحراسة منزله حتى يعود من رحلتــه ٠

كان القبطان أو براين اثناء مدة اسره ، يعمل في منزل قنصل او آخر ، وذلك فيما عدا الفترات التي تستدعيه فيها البحرية الجزائرية للعمل في سفن القرصنة ٠ وذات مرة كلف بالاعمال الشاقة وأرسل على ظهر الطوافة التي تقوم بتنظيف الميناء من الوحل والاحجار ٠ وقد بقي يمارس هذا العمل عدة اسابيع خففت من المشقة التي كان يعاني منها بعض الشيء بتقديم وجبــات طيبـــة وبزجاجة من النبيذ كل يوم من حانتي . ونظرا لان حارس السجن ، مونتـــو نيجرو ، لا يرفض تناول كاس من الخمر بين الحينة والفينة ، فقد كنت ازوده بها عن طيب خاطر في مقابل حسن معاملته للقبطان اوبراين الذي كان يعمل تحت سلطته ٠

وقد جاء وقت لم يكن القبطان يمارس فيه عمله الشاق الا متى كان تحت انظار فيكيلهارش الذي كان ساخطا عليه ، أو بعبارة أدق ، كان ساخطا علـــى القنصل الانجليزي ، وراي أن ينتقم لنفسه من عبده أوبراين ، حيث انه لم يجد طريقة للانتقام لنفسه من القنصل ٠

لم يحدث أي تغيير في حالتي حتى قدوم الاسطول الأمريكي الى الجزائر في سنة 1793 .كنت في بعض الاحيان أقوم ببعض الأعمال التي سبق ذكرها ، وأحيانا اخرى أبقى ملازما لغرفتي في سجن « جاليرا » ، فقد كنت أملك الحانة اللعينة ، بالاضافة الى نصف حانة اخرى في نفس السجن ، كما كنت املك حانة اخرى في سجن سيدي حمودة ، وكان العبيد المسيحيون يديرون هذه الحانات لحسابي ويدفعون لي مبالغ معينة على أســاس الكاس مـن الخمـــر والبراندي ٠

وهذه المبالغ التي كنت أجنيها ، كانت كافية لجميع أغراضي ، بل وكنت احقق فائضا معتبرا استخدمه للتخفيف من شقاء رفقائي من العبيد الأمريكيين الذين أسروا في سنة 1785 ، والذين ظلوا وقتا طويلا دون أن يتلقوا أية مساعدة من بلدنا ٠ وبعضهم كانوا يعملون في الأشغال الشاقة طول مدة اقامتهم ، وقد نقص عددهم كثيرا بسبب الوباء والعمل الشاق المرهق ٠ وكل ما يكسبونه هو 7،5 سنتيم في اليوم لمواجهته حاجاتهم من المآكل والملبس ٠ ولولا العناية الآلهية التي جعلتني في وضع يسمح لي بمساعدتهم ، لكانت حالتهم ، بالتاكيد اسوأ مما هي ٠

وكذلك كان الاسرى الذين يعملون في قصر الداي يقدمون لهم مساعدة مؤقتة ، وكل حسب امكانياته ٠ والأشخاص الذين هم في مثل حالتنا ، يكون شعور التعاطف والكرم بينهم طبيعيا ٠

ومن الأسباب الأخرى التي تحمل الأسرى على عدم الرغبة في ادخار المال، الوباء الذي يحمل اعداد متزايدة كل اسبوع ٠ والذين يموتون منهم يؤول كل ما يملكونه الى الايالة ، بما في ذلك اسمالهم واغطيتهم ، متى كانت لديهـم اغطية ٠ وبما أن الواحد منا لا يعرف متى يأتي دوره لمقابلة مصيره ، لم نكن نعير المال اية اهمية ، واتخذنا من مساعدة رفقائنا في الشقاء الذين هم فـــي حالة اسوأ من حالتنا ، فضيلة ومفخرة ٠ ولولا خوفنا من الموت لكان من الأرجح ان نكون أقل كرما نحو الآخرين ٠

ومع ذلك يجب الا يفترض القارىء ان حالتي كانت افضل كثيرا من حالة رفقائي ، وانني لا اتعرض مثلهم لجرح عواطفي ٠٠ فان الحرس التركي كانوا كثيرا ما يفرضون علي الضرائب والأتاوات لمختلف الأعذار الكاذبة ٠

كان العبيد يستدعون كثيرا يوم الجمعة ، وهو يوم العطلة ، للقيام بالاشغال الطارئة ، مثل تجهيز سفن الأسطول ، وتغطية أعمال الماء في باب عزون ، وتنظيف البحرية والحصون وصيانة الاسلحة حينما تاتي الأخبار بأن اسطولا اجنبيا يستعد لغزو الجزائر ، وازالة انقاض المنازل القديمة في المدينة ، ولا سيما المنازل التي هدمت لتوسيع ساحة قصر الداي ، وتفريغ شحنات السفن التي تحمل الضرائب الى الداي ، وشحن السفن المسيحية باكياس القمح والشعير المصدر الى الخارج ، وبصفة عامة ، جميع الأعمال التي تستدعي يدا عاملة اضافية ، والتي تخرج عن نطاق روتين العمل العادي الذي يقوم به العبيد الذين تناقص عددهم كثيرا بسبب فدية اسرى نابلي واسبانيا ، وبسبب الوباء البغيض ٠ فهذه الأعمال التي لا تتوفر لها اليد العاملة في غضون الاسبوع ، يدعون للقيام بها يوم الجمعة ٠ بل يحدث كثيرا ان تستوجب الحالة استدعاء العبيد الذين يعملون في منازل الشخصيات الكبيرة ، بل وحتى العبيد الذين يعملون في منازل القناصل ، واحيانا لمدة بضعة أيام ، للمساعدة في هذه الاعمال الطارئة ٠

وبعض الأسرى تخفف أعمالهم ، بل هم يعفون من العمل احيانا كلية ، برشوة الحرس ٠ وهذا معناه أن العمل الشاق هو من حظ الذين لا يملكون مالا يقدمونه على سبيل الرشوة ، وهذا الظلم والاجحاف لم يكن من شأنه الا أن يزيد من شعور السخط بين الأسرى ٠

والحرس يتعمدون اظهار التمييز في معاملة الذين يدفعون والذين لا يدفعون الرشوة ، حتى يشجعوا الفئة الأخيرة على الدفع من جهة ، وحتى لا ترتفع أصوات الذين يدفعون احتجاجا على المساواة ، من جهة اخرى ٠

كانت المرة الاولى التي أقف فيها على باب الحانة اللعينة التي أملكها حين شاهدت خصاما بين تركيين بشأن امرأة ، كان أحدهما واقفا على مقربة مني والآخر يصيح من نافذة المنزل المقابل للحانة ٠ كان اسم الواقف بازائي ، حسن شاوش ، وقد قال شيئا لم أفهمه أثار غضب التركي الواقف عند النافذة الى درجة نزل معها الى باب المنزل وأطلق الرصاص على حسن ٠ اخترقت الرصاصة فخذ حسن وكان من الممكن أن ينجو من الحادث بجلده ، لولا ان المعتدي هجم عليه بيتجانة وطعنه ، دون أن يصيبني انا بأي أذى ٠

سقط حسن ميتا في الحانة ، كما جرحت رصاصة المسدس تركيا آخر في رجله وكان واقفا في الحانة ٠

وأما الجاني ، فقد خرج من الباب الرئيسي والتجأ الى مقام احـــد المرابطين ليحتمي به ، وهي عادة يسير عليها الجنود الاتراك الذين يرتكبون جريمة ، ويرفضون ان يسيروا لمقاتلة العرب الا اذا صدر عفو عنهم ٠

نقل حسن (وهو جندي) الى الثكنة وغسل هناك ثم ووري التراب ٠ واثر الحادث ، أغلقت الحانة وأخذ جميع الأسرى الذين كانوا فيها وقت الحادث، وأنا من بينهم ، الى البحرية للأشغال الشاقة ، بناء على أوامر سيدي علي الذي كان في منصب فيكلهارش ، والذي لم يكن يحمل لي عواطف الصداقة ٠

أقمت في الاشغال الشاقة يومين قدمت خلالهما عريضة لرئيـــس الوزراء (الخزنجي) الذي أصدر أمرا باعادة فتح الحانة وأرجاعها الى ملكي ، كمـــا سمح للمسيحيين الذين يعملون فيها بالعودة اليها لمارسة عملهم كالعادة ٠ ولكنه مضى أكثر من اسبوع قبل أن يسمح برجوع المسيحيين الى الحانة ، وقد اقتضى الأمر تقديم هدية ملائمة الى ابراهيم رايس ، نائب مدير السجن ، وهي عبارة عن 10 " سكوينـــات" ٠

وبعد ذلك بوقت قصير ، كان من بين زبائن الحانة كرغلي اسمه قارة برمز معروف بانحطاط الاخلاق وسوء السلوك بحيث اعتبر غير جدير بالانضمام الى الجيش التركي ، وحرم من مرتبه في عمله ، وكان شرس الطبع وقد أغلظ في القول لشخص يوناني اعتنق الاسلام ، اسمه محمد جريتيتي ، وأخذ بخناقه وضربه بدون شفقة ٠

قدم قارة برمز شكوى الى رئيس الاطباء الذي كان صاحب الاختصاص لتلقى مثل هذه الشكوى ، ضد محمد جريتيتي ، الذي كان عليه أن يدفع مبلغا من المال في مقابل الدم المسال ٠ ولكنه نظرا لانه لا يمكنه أن يتوقع من المذنب اكثر من مبلـــغ " سكوينين" اثنين فقط ، فقد حرض المجني عليه أن يدعي انني انا الذي ضربته ويرفع الشكوى ضدي انا ٠

وكذلك استدعيت لسماع اقوالي ٠ وبعد خطاب طويل القاه علي يحتوي على كثير من التهديد والوعيد بما سيحل بي لانني ضربت مسلما من المؤمنين ضربا مبرحا اسال دمه ، اعلن انه مستعد لان يتغاضى عن هذه الجريمة والا يعطيها اهمية بشرط أن أدفع في مقابل الدم المسال 100 «سكوين» ، وانني اذا لم أدفع ، فسوف أدخل السجن حتما ٠

وفي هذه الأثناء ، حضر محمد جرتيتي وصرح بانني لم ار قاره برمز حتى مجرد الرؤية حينما قام هو بتاديبه بسبب وقاحته ·

وازاء هذه الشهادة لم يسع شيران باشي ، أو رئيس الاطباء الا ان يصرح بكل برود بان المسيحي لا بد وأن يكون قد دفع له مبلغا كبيرا من المال ليشهد في صالحه بهذه الطريقة ويحابى المسيحي على المسلم ، ولمّح بانه انما اتخذ هذا الموقف لانه كان مسيحيا في السابق ·

وقد رد عليه محمد جريتيتي باشمئزاز قائـلا ان اسلامـي افضـل مـن اسلامك ، وان قاره برمز شخص منحط الأخلاق ، وانه مادام في امكانه بوصفه طبيبا ان يبتز مال الأسرى المسيحيين ظلما وبهتانا وينجو من العقاب ، فـان واجبه هو ، كمسلم ، ان يعطي برمز ضعفي الضربات التي تلقاها منه في مقابل كل «سكوين» يبتزه الطبيب من الاسير المسيحي · وبالفعل، فقد وفى محمد جريتيتي بوعده ، أو بالاحرى بوعيده ، فانه لم يلق قاره برمز بعد ذلك مرة الا وحطم غليونه الكبير على راسه ··· وقد تعب قارة برمز من هذه الحالة في نهاية الأمر ، فغادر مدينة الجزائر لغير عودة ···

قصد شيران باشي عقب ذلك الى مكتب رئيس الوزراء (الخزنجي) وقص عليه قصة من اختراعه ، فرآى أن يحيل القضية الى الداي ليصدر حكمه فيها ·

كان اليوم يوم الخميس والداي غائب يقضي عطلة نهاية الاسبوع فـي منزله الريفي ، (وهو سوف لا يعود الا مساء الجمعة) ، اي انه لن ينظر في القضية الا في يوم السبت ، واما الحكم ، فيتوقف كلية على مزاجه في ذلـك اليوم ، وبعبارة اخرى ، فاذا لم يعدل هذا الطبيب صيغته للتهمة ، فسوف يتحتم علي أن أقضي يوم الخميس والجمعة في السجن على ذمة التحقيق · ولـهذا الاعتبارات استنتجت مرغما أن الافيد هو أن أتوصل الى اتفاق معه ، وقد كان الاتفاق على أساس دفع مبلغ 130 منبوب ، ثمنا لدم لم أرقه ولم يستفد منه صاحب الدم المراق ، على كل حال · وهكذا عدت الى غرفتي بسلام ·

والقضية الثالثة كانت ذات طابع اكثر خطورة · وقد وقع الحادث فـي الذكرى الثامنة ليوم وقوعي في الأسر · وحتى لا تفقد القصة طابع الجدة وتدل على درجة الحرارة النفسية التي كنت اعاني منها في تلك الفترة من أسري ، سانقل حرفيا ما سجلته في مذكراتي بتاريخ 25 يوليو 1793 :

« ايتها السماء ! ها قد حلت الذكرى الثامنة لأسري · اكان من الممكن أن اكون ، وانا لا ازال يافعا ، قد اغضبت الاله الذي يتصرف في مصائر جميـع

المخلوقات ، الى حد استحق معه العبودية الدائمة والنفي الى الابد من بلدي العزيز والقاسي ، وافقد أعز أصدقائي ، وان لا تقع عيني مرة اخرى على اولئك الآباء الذين قادوا خطايا الأولى في طريق الفضيلة وعلموني وبسطوا على الحماية ، والذين تسيل دموعهم غزيرة لفقدي ؟

لقد تعرضت خلال ثماني سنوات لأشنع الاهانات التي اخترعها الانسان ، والتي تجعل حياة الاسير كلها بؤسا وشقاء ، فقد حرمت من عزاء الاصدقاء في أوقات المحنة والشدة ، كما حرمت وقتا طويلا من اللحم والشراب واللباس ، ولم أجد أمامي لسد الرمق سوى رغيف من الخبز الأسود والزيتون والفول . وحتى ذلك المبلغ الزهيد الذي لا يزيد عن 7،5 سنتيم الذي خصصه بلدنا لنا كمنحة نستعين به قد توقف منذ شهر سبتمبر 1789 . وها قد مرت الاعوام تلو الأعوام وما من أحد في بلدنا يهتم بوجودنا ، ولا محاولة تبذل لتخايصنا ، اذا استثنينا اولئك الأشخاص الذين يغدون ويروحون ليتأكدوا من المبلغ المطلوب لفديتنا ، وليبعثوا في نفوسنا أملا كاذبا وقتا من الزمن ، نعود بعده الى بؤرة اليأس والقنوط ، حينما تركد الاشاعات التي تتعلق بتحريرنا .

ها نحن نعيش في أعماق سجون لا يكتفي المشرفون عليها بغض النظر عن الرذيلة ، بل هم يشجعونها ، معرضين لخطر الوباء عدة سنوات متوالية كان رفقاؤنا في الأسر يذهبون ضحايا له حولنا ، الواحد بعد الآخر ، مع آلاف من سكان البلد ، ونحن لا نعرف كم ستستمر اللحظة الحالية .

« أمريكا ! أترين أي بؤس وأي شقاء يعاني منه ابناؤك في الأسر والقيود ، ابناؤك الذين أراقوا دماءهم من أجل تحريرك من قيد الاستعمار ، وعملوا لاستخلاص الحرية التي تتمتعين بها الآن ؟ ان بؤسهم ليزداد حين يتذكرون أن البلد الذي حاربوا من أجله قد أصبح الآن حرا ويعيش في بحبوحة من الرخاء . لقد كنت ، يا أمريكا ، أول بلد ضرب المثل للعالم في الثورة لتحطيم الاغلال والقيود وفي الاطاحة بأصنام الاستبداد والطغيان . والعبيد هم أنفسهم ساهموا في تحريرك وجنوا فوائد من قوانينك وتنظيماتك الحكيمة ، ولكن ها هم ابناؤك الذين ساهموا في ثورتك من أجل الحرية يفقدون حريتهم ويصبحون عبيدا وتنكر حقوقهم في وطنهم ، لانهم سيئو الحظ. فهل بعنا حقوق ميلادنا ؟ وهل حرمنا نهائيا من المزايا التي يتمتع بها الرفيع والوضيع على السواء من المواطنين ؟ لماذا يتخلى عنا بلدنا ويتركنا ضحايا للتعسف والاستبداد في بلد غريب بعيد ، في منفى يحيط بنا فيه البؤس والشقاء منسيون من معاصرينا الذين أشعلوا في نفوسنا شعلة الحرية ؟ لقد

عز على امريكا مبلغ 43300 دولار الذي كان من الممكن ان يخلصنا من القيد منذ سنين عديدة • ان هذا المبلغ كان كافيا للحيلولة دون دفن ابناء امريكا في تربة باب الوادي الموحشة ، لقد كان عددنا في سنة 1785 ، وهي السنة التي اسرنا فيها 25 مواطنا ، ولكن هذا العدد نقص بفعل الوباء والاشغال الشاقة بحيث لا يزيد الآن عن 12 أسيرا يمكن فديتهم بمبلغ أقل ولا يتجاوز 25000 دولار » •

لازمت غرفتي التي منحت لي في سجن « جاليرا » طيلة النهار ولم اذق طعاما أو شرابا • وحوالي الساعة الثالثة بعد الزوال ، خرجت الى الحانة لاتناول شيئا من الطعام ، ولأقدم الأكل لرفقائي في الأسر لدى عودتهم من الأشغال الشاقة ، كما اعتدت أن أفعل •

وسواء أكان ذلك راجعا الى الأفكار السوداء التي كانت تدور في رأسي بمناسبة هذه الذكرى البائسة ، أو الى كوني بقيت بدون طعام طيلة النهار ، أم الى الكأس أو الكأسين اللتين تناولتهما وكان لهما أثر في سلوكي ، فان مما لا شك فيه انني تصرفت تصرفا في منتهى الحماقة ، الأمر الذي أوشك أن يدمرني الى الابد •

جاءني شريف (والشريف هو الشخص الذي يدعي انه ينحدر من سلالة الرسول) وطلب الي أن أنهض وأتخلى له عن مقعدي ، فقلت له ان هذه الحانة ملكي وانني سوف انتهي من تناول غدائي قبله وقبل أي شخص آخر ، وعند ذلك يستطيع أن يجلس في مكاني ، اذا شاء ، فرد علي قائلا :

– « يا له من كلب لا ايمان له ! تتصور انك تستطيع الجلوس ، والشريف والمؤمن يقف على رجليه » •

فقلت كيف تجرؤ على أن تدعوني كلبا ؟ ألست أسيرا ؟ انك لست كريما ، يا سيديَ ، حين تستغل وضعيتي وتحاول اهانتي ، ولو كنت في وضعية اخرى لقطعت أذنيك ، وأما فيما يتعلق بالايمان فانا مؤمن ، و « أشهد أن لا اله الا الله » (1) ، ولكنه نظرا لانني لم أولد في نفس البلد الذي ولدت فيه أنت ، فانهم لم يعلموني رموز دينك ، ولو انني تعلمتها بنفسي ، فيما بعد • انكم تشهدون أن « لا اله الا الله وان محمدا رسول الله » • انهم لم يعلموني في صغري ان محمدا رسول الله ، ولكنني أعرف جيدا أن محمد سن شريعة عظيمة ووضع قوانين عادلة وحطم الأصنام واقنع الملايين من الناس بان لا يعبدوا الا الها واحدا حقيقيا ، لا شريك له ، وهو الاله الذي أومن به وأعبده انا أيضا•

---

(1) بالنص العربي في الاصل •

وانا اتساءل ما اذا كنت تعرف دينك ، يا سيدي ، كما اعرفه انا ، وما اذا كنت قد قرأت سيرة الصحابة والخلفاء الذين جاؤا بعد الرسول والذين نشروا العقيدة الاسلامية التي تؤمن بها في مختلف أصقاع الارض ٠

اثارت هذه اللهجة من عبد مسيحي انتباه جميع المسلمين الذين كانـــوا يتناولون الطعام والمشروبات في الحانة ، في الوقت الذي أنست فيه الشريف تهديدي له بان أقطع اذنيه ، وعند ذلك ، سألني شيخ : متى وأين ولد محمد ؟ ومن كان خلفاؤه من بعده ؟ وذلك بعدما قال انه يعتقد أنني ادعي من العلم اكثـر مما أعرف ، لافحام الشخص الذي يفترض انه شريف ، حيث أنه جندي عادي محروم من التعليم ٠ وأما ممتحني ، فقد أخبرني عن نفسه انه حج بيت الله الحرام مرتين وانه يحفظ القرآن عن ظهر قلب ، وبالتالي لا يمكن أن أخدعه بادعائي ٠

اجبته بانني قرأت القرآن في الترجمة الأنجليزية كما قرأت سيرة محمد بلغتي ، ولكي اثبت له ان الترجمة الأنجليزية للقرآن والسيرة النبوية ترجمة صحيحة ، سوف أجيب عن سؤاله ، وقلت له :

ولد المشرع العظيم محمد (ص) في مكة ، سنة 571 بالتقويم الميلادي ، وتوفي في المدينة في 12 من الشهر الثالث ، ربيع الأول (1) سنة 11 هجرية ، وهي تقابل سنة 632 ميلادية ٠

وقد تولى بعده أمر المسلمين ابو بكر الصديق الذي تلاه في الخلافة عمـر (بن الخطاب) ثم عثمان (بن عفان) ثم علي (بن أبي طالب) زوج ابنته ، فاطمة ، من زوجته خديجة ، وقد أعلن حقه في خلافة النبي ثلاث مـــرات ، عارضته في المرة الأولى منها عائشة وحزبها ، ولكنه في نهاية الأمر ، نجح في تولي الخلافة ٠ ولكن ثورة قامت عليه وانتهت بخراب بيته وقتله ، ولكن مما زاد مشروعات على صعوبة أن زوجته ، فاطمة ، ماتت بعد ستة اشهر فقط من وفاة أبيها ٠ وعلى كل حال ، فان الفرس وعددا كبيرا من الطوائف في افريقيا وآسيا ، لا تزال تقدس عليا حتى يومنا هذا ٠

كنت اريد المضي في عرض معلومات اخرى حينما تعالت أصوات بعض المسلمين بالاحتقار حولي « الله ! الله ! » ان هذا المسيحي ، ابن مسلم ، او ابن احد المسيحيين الذين اعتنقوا الاسلام ثـم تظاهـر بالمسيحية لخدمـة بعض المصالح الخصوصية ٠ يجب الآن أن يصبح مسلما وواحدا منا ٠ ما هو الفرق

(1) ورد في الاصل غلطا : ربيع الثاني ٠

الذي قلت انه يوجد بين ديننا ودينك ؟ » •

وقد أجبت قائلا « لا اله الا الله » (1) هي عقيدتي • ورفعوا اصواتهم قائلين « وهي عقيدتنا ايضا » ــ « لا اله الا الله محمد رسول الله ! » (1) •

وهكذا سارعت جماعة منهم الى دار القاضي الذي كان يقطن غير بعيد من السجن ليحضروه ، ولكنهم لم يجدوه ، لحسن الحظ •

وعند ذلك ، قصد آخرون الى ثكنة الجيش ليحضروا المؤذن ، ولكنهم وجدوه قد ذهب الى المسجد •

ونظرا لأن الجنود يعودون الى الثكنات قبل المغرب ، فقد تفرق بعض زبائن الحانة وسار كل واحد منهم في طريقه ، وأما القليل ممن بقي منهم ، فقد أمرت المسير لحانتي أن يرضي الشريف بمنحه مبلغا من المال ، وأن يستضيف الآخرين الذين أبدوا اهتماما بالمناقشة وتابعوها ، وأما الحاج الذي كان لا يشرب الخمر ، فقد أعطيته مبلغ 10 «سكونيات» ، ورجوته أن يردد بالضبط ما قلته في هذا المجلس ، اذا سئل عن المناقشة التي جرت فيه يوم الغد ، وأن يقول عني أن كل ما قلته نقلته من القرآن ومن الكتب التي في حوزتي والمكتوبة بلغتي •

وهكذا عدت الى سجني ونجوت من أكبر الأخطار التي واجهتني طيلة مدة اسري •

وفي اليوم التالي ، كان كل شيء هادئا وعاديا اذا استثنينا أن بعض الناس ابلغوا الداي أن مسيحيا محترما يريد اعتناق الاسلام ، وقد ابدى رغبته في ذلك في الليلة السابقة •

وكذلك ارسل الداي في طلب الحاج الذي لقنته جيدا ما ينبغي أن يقوله مستعينا على كسبه بالمبلغ الذي نفحته به ، وقد قدم تقريرا عن المناقشة في صالحي ، متهما الشريف بانه هو الذي بدأ في استثارتي •

وقد قاطعه الداي قائلا : « ذلك الشاب يحمل رأسا متصلبة ، وهو لا ينوي ان يعتنق الاسلام اكثر مما انوي انا اعتناق المسيحية • ولو كان على استعداد للدخول في الاسلام لفعل ذلك منذ سنة أو اكثر ولكان ذلك في صالحه • وأنا

---

(1) بالعربية في الاصل •

سبق لي ان عرضت عليه ان ادفع له مرتبا كاملا اذا اعتنق الاسلام ، ، وان ارسله قائدا لاكبر سفينة حربية ، وبالضبط ، السفينة التي فقد فيها حياته صالح رايس فيما بعد ، اثناء اشتباكها في معركة مع الاسطول الروسي في البحر الأسود • وكذلك عرضت عليه زوجة ومنزلا وحديقة وأن اعنى بمستقبله شخصيا • ولو قبل عرضي في ذلك الحين لكان من المرجح أن يصبح في الوقت الحاضر مديرا عاما للبحرية ، أو على الأقل ، اميرالا • ولكنه اكتفى بان شكرني على حسن رايي فيه ، وقال انه سيبذل جهده ليحافظ عليه وليكون اهلا له ، ولكنه سيستحق الاحتقار اذا اعتنق الاسلام للحصول على امتيازات ولنيل مصالح دنيوية • واضاف قائلا : « انني احتقر اي مسلم يتخلى عن دينه لمجرد الرغبة في تحسين وضعيته » • وبعد ذلك اغرورقت عيناه بالدموع ، قائلا : « انني اتحمل العبودية وكل ما تنطوي عليه من الاهانات والحرمان ، على ان اتخلى عن الدين الذي علمتني اياه امي واوصتني بان اقدسه ، امي التي آمل ان اعيش حتى اراها واشكرها على كل ما لقنتني اياه » •

ومضى الداي ، فقال للحاج ، فانت ترى أن هذا الأمريكي قد ضحك عليكم• وفي المستقبل تحسنون صنعا اذا تجنبتموه هو ومواطنيه الأمريكيين وتحاولوا نشر الاسلام بين غيرهم ، فهم صعاب المراس غليظو الرؤوس ، مثل الانجليز تمامـــا » •

قص علي ما دار في هذه المقابلة الحاج سيضمن لي المبلغ الذي نفحته به اولا ، ثم بعض الهدايا فيما بعد ، صداقته • وعندما أصبحت مديرا لديـــوان الداي في سنة 1792 ، كرر علي الداي نفسه ما قاله للحاج في تلك المناسبة •

وهكذا كانت تلك الفقرات التي رددتها على مسامع المسلمين مما يتصل بنبي الاسلام وتاريخه حرزا منيعا حفظني فيما بعد من مناقشة المسلمين اياي في الشئون الدينية ، وقد نجوت من موقف صعب في تلك المناقشة بمحض الصدفة ، وذلك لانه لو كان القاضي موجودا في منزله لكان من واجبه ان يحضر لكي يتلقى شهادتي ويعلن دخولي في الاسلام في زمرة المؤمنين ، ولـــو رفضت الدخول في الاسلام بعدما نطقت بالشهادة التي ترمز الى اعتناق هذا الدين ، لاعتبرت مرتدا واصبح قتلي شرعيا ، ولا يستطيع منعه الداي نفسه على فرض تنازله ليتدخل في صالحي • وهكذا يرى القارىء اي خطر جسيم تعرضت وتجنبته صدفة •

ومنذ سنة 1791 ، اشتغلت موظفا لمسك دفاتر رئيس الوزراء ، وكذلك قمت بجميع العمليات الحسابية التي تتعلق بمنزل الداي الجديد والذي لم يكن العمل قد انتهى فيه عندما باعه الداي لرئيس الوزراء ـ رئيس الوزراء الذي سوف يعتلي العرش بعد الداي (حسن) •

* *

*

وفـــاة محمد باشـــا
داي الجزائـــر

يــوم الاثنين 11 يوليو 1791

فاضت اليوم روح محمد باشا ، داي الجزائر ، على الساعة الخامســـة وبضع دقائق بعد الزوال ، بعد مرض لازمه بضعة ايام ، وهذا المرض احتفظ به سرا من اسرار الدولة سيدي علي مدير البحرية ، وسيدي محمد خازندار الداي الراحل ، وذلـــك حتى الليل حيــن قصد سيـــدي علــي الـــى شرفــة رئيس الوزراء ، ودق على نافذة جناحه ، فاجابه عبد ، فقال له السيد علي ، انني احتاج سيدك وقل له انه قد وصلت رسائل مهمة من باي قسنطينة ، وارجه أن يطل عند النافذة •

وبمجرد خروجه ، ابلغ نبأ وفاة الداي وقال له ان الداي الراحل قد عينه هو (سيدي حسن) أن يشغل مقعده على العرش •

شكره سيدي حسن على هذه المعلومات وترجاه ان يلتزم الحذر وأن يتخذ جميع الاجراءات الضرورية للحيلولة دون قيام معارضة •

وفي اليوم التالي ، ابلغه سيدي علي انه لا يتوقع اية معارضة ، الا من الآغا ، او الجنرال ، قائد القوات العسكرية في ايالة الجزائر •

نظام الأولوية (البروتوكول) في الأيالة سنة 1791

1 ـ الداي
2 ـ الخزنجي (رئيس الوزراء)
3 ـ الآغا (قائد الجيش في الايالة)
4 ـ الباي
5 ـ خوجه الخيل
6 ـ « بدلمال » (1)
7 ـ فيكلهارش ، أو مدير البحرية
8 ـ الخازندار (حاجب الداي)
6 ـ مدير شئون قصر الداي
10 ـ الخوجوات ، أو كتاب الدولة
11 ـ حاسب المال في الخزينة
12 ـ كاتب عربي

* *
* *

مقتطفات من رسالة لي الى الطبيب الانجليزي في الجزائر فيليب ورنر

الجزائر ، 20 مايو 1791 ٠

سيدي الدكتور ،

لم أحظ بسرور لقائك لدى وصولك الى هنا للمرة الأولى ، ولتسمح الآن ان أهنئك على سلامة الوصول، وأنا آمل مخلصا أن تكون قد حققت اثناء جولتك في أوروبا أكثر مما كنت تتوقع تحقيقه ٠ أبلغني مستر فيليب سلاون منذ بضعة أيام انك قد سجلت قائمة باسماء رفقائي في الأسر ، بقصد توجيه مذكرة الى مستر حون هورن طوك ، الذي ينوي القيام بجمع تبرعات بقصد دفع فديتهم ،

(1) في الاصل : (Bedelmal) ٠ والمرجح انه يقصد خوجه بيت المال ٠

وان اسمي قد ورد في هذه القائمة ٠ ان خدمات هذا الرجل ومساعيه لأغراض انسانية خدمات جلى ، وسعيه لتحرير هؤلاء الأسرى البؤساء سعي مشرف ومجرد من كل مصلحة ٠ ولكنه على الرغم من ان الحرية هي اقصى ما يطمح اليه الانسان وأعظم ما يمكن ان يتمتع به ، فانني قررت بعد التفكير والتروي انني لا استطيع قبول عرض المستر طوك ، ولا يمكنني ان ارضى بالتمتع بنتيجة مساعيه ، على انني مع ذلك أوصيه بالعمل وبمواصلة مساعيه لتحرير رفقائي في الأسر ، انني ارى أنه الى جانب الصعوبة ـ او بالاحرى ، الاستحالة ـ التي سيواجهها لجمع مبلغ 8000 جنيه لفدية مواطني الولايات المتحدة ، فهل تتصور ان الامبراطورية البريطانية التي تسير في طريق الانهيار قد ترغب في تحرير مواطني بلد كل شيء يدل على أنه سوف يكون منافسه الأول في وقت قريب ، وانها ستعمل على تشجيع هجرة البحارة البريطانيين الى أمريكا بضمانها بان تقوم بريطانيا بتحريرهم ودفع فديتهم اذا وقعوا في قيد العبودية في المستقبل ؟ قد تقول ان الافراد من البريطانيين هم الذين سيتبرعون بهذه المبالغ ، وان المؤسسات والأموال العمومية لا دخل لها في الموضوع ، ولكنني أرى ان جميع التبرعات العمومية تجري دائما تحت مراقبة السلطات العمومية ، وهذا يصدق بصفة خاصة على السلطات البريطانية ، التي من واجبها ان تعارض كل اجراء يتناقض مع المصلحة الوطنية ٠

على انه مهما تكن نتيجة مساعي المستر طوك ، فهي ، بالتأكيد تكسبه شرفا عظيما وسيسجلها له التاريخ في سجل الفخر ٠ ولكنه اذا قدر النجاح لهذه المساعي ـ ورغبتي هي أن تكلل بالنجاح ـ فانني لن أرضى ابدا باهانة نفسي واهانة اسرتي بان أكون مدينا بحريتي لصدقة شعبية وتبرعات عمومية ٠ فبعد أن القيت بنفسي في قيد العبودية وأنا في خدمة أمريكا ، لن يقال عني أبدا انني تخلصت من تلك القيود بفضل تبرعات عمومية ٠ قد يتراءى لك أن قيود الأسر قد أوهنت عزيمتي وشلت ارادتي بحيث أرضى بالحرية مهما كان واهبها ٠ واذا كان هذا رأيك ، فاسمح بأن أصححه ، فماذا يكون رأي أولئك الذين يحملون لي عواطف ، اذا انحطت همتي وقبلت احسان امة لا احمل لها اية عواطف ورضيت بدين لن يكون في امكاني تسديده أبدا ، اعنى بخدمة البلد الذي أدين له بحريتي ، اذا قامت بريطانيا بدفع فديتي ٠

تلك هي عواطفي التي لا يمكن أن تتغير بالمصالح ، وحتى الذهب الذي يعبده الكثيرون ، لن يكون في وسعه ان يدفعني الى ما يتعارض مع ما يمليه علي ضميري ، وأنا بعد لم أيأس من سخاء البلد الذي اعتنقت قضيته ودافعت

عنها ، ولذلك فسوف انتظر في قيد العبودية حتى ينتهي الوقت المقدر لها واجد حريتي وخلاصي بالوسائل المشرفة • وسوف اتشرف بالكتابة الى المستـــر طوك واعرض عليه فحوى هذه الرسالة كما أوصيه في رسالتي بانه سيكون أجدى وافضل ان تتجه مساعيه الى تحرير الأسرى البريطانيين الذين يوجدون في قيد العبودية في وهران ، فان دفع فديتهم وتخليصهم من الأسر سيكون عمل خير وصدقة اكبر للشعب البريطاني ، ولا سيما وأن هناك من الاسباب ما يحملهم على اليأس من رحمة بريطانيا ورعايتها " •

وختاما تقبلوا فائق الاحترام •

جيمس ليندر كاثكارت

* *
* *

كتبت الرسالة السابقة قبل ان ابلغ الثانية والعشرين من العمر ، ومن السجن الذي كان الوباء فيه في أوج فضاعته ، وكان قد مر علي في الاسر ست سنوات ، وسابقى في الجزائر بعد هذه الرسالة خمس سنوات اخرى بعدها ، وذلك حتى غادرت هذه المدينة في سفينتي الخاصة التي كنت اقودها بنفسي وبمساعدة ملاحين من العرب في اتجاه اليقانت في مهمة لانقاذ السلام ، حاملا رسائل الى اليقانت والى ليشبونه وفيلادفيا .

* *

* *

نسخة من رسالة الى القبطان او براين

كتبت اثناء فترة الوباء

الجزائر في 2 مارس 1793 ،

سيدي العزيز ،

انني لآسف لان أزعجك في هذه الازمة التي انتشر فيها الموت ، ولكنني أرجو أن تكون روابط الصداقة المتينة التي ربطت بيننا خلال مدة الاسر شفيعا لديك وتغفر لي هذا التطفل .

يؤسفني أن أخبرك أن ماثيو كارول قد نقل الى المستشفى يوم أمس مصابا بالطاعون وان بيتر تهساند قد اصيب هو الآخر وهو الآن في المستشفى . ولقد اتصلت بكليهما ، وانا نفسي ربما كنت في طريقي الى الراحة الابدية .

واذا قدر لي ذلك ، فاني ارجوك أن تنقل الخبر في وقت لاحق الى بعض اصدقائي . ربما كانت هذه آخر منة ويد اطلبها اليك ، واني لآمل الا تنكرها أو تبخل بها علي .

هذا هو الوباء الثالث الذي اتعرض له ودائما في السجن ، ومتى هدأ بالي قليلا ربما اكتب اليك مرة اخرى ، ارجو أن ترد على رسالتي عن طريق حاملها .

المخلص كاثكارت

تعقيـــــب

انني أبعث اليك مع حاملها ساعتي وختمي ، فاذا بقيت على قيد الحياة تعيدهما الي ، وان مت ، فارجـو ان تعتبرها هديـة رمزيـة وتذكـارا لروابط الصداقة الخالصة النقية ٠

لنفس القبطان

الجزائر في 3 مارس 1793 ،

سيدي العزيز

انني سعيد بأن اخبرك بأن الحمى قد زالت عن تساندر وان الامل قوي في شفائه ، ولو اننا لا نزال نتخوف من رجوعها ٠ وصديقي كارول ، هو الآخـر زالت عنه الحمى ، ويقول الطبيب انه بعون الله سوف ينجو من هذا الطاعون الفظيـع ٠

مع تمنياتي لك باستمرار الصحة والعافية ٠

كاثكارت

* *

* *

عينت في منصب مدير ديوان الداي فـي ايالة الجزائر في شهـر مارس 1792 ٠ وقد أصبح هذا المنصب شاغرا بعد فدية صديقي مستر اندراي الذي كنت قد تعرفت به في بوسطن ٠

تذكرني الداي حينما كنت أعمل تحت سلطته موظفا في البحرية، وقال : ما دمت قد قمت بعملك على خير وجه في مختلف الوظائف التي انيطت بك في البحرية وغيرها ، فينبغي أن افضلك لشغل اكبر منصب يصل اليه المسيحيون في الدولة . وهكذا عينني في نفس اليوم ٠

وعلى الرغم من أن تعييني قد تم بناء على خدماتي السابقة فانه لم يكون في وسع الداي اعفائي من دفع مبلغ 1000 سكوين لخزينة الدولة ، ومبلغ 300 سكوين آخر جرت العادة بدفعه على سبيل الرسوم ويذهب الى صندوق الضباط٠

وقد تحتم دفع هذا المبلغ بالنظر الى انني عرضة لان تفديني أية دولة تعقد معاهدة السلام مع الجزائر او تقوم بفدية مواطنيها وتدرجني في قائمتهم، وهذا المبلغ لا يمكن استرجاعه حتى ولو وقعت فديتي في اليوم التالي لتعييني.

والداي هو بنفسه (وهذا قد يبدو غريبا ولكنه هو الحقيقة) الذي سلفني مبلغ 500 سكوين، بينما استلفت مبلغ 500 'سكوين" آخر من صديقي الحميمين الاخوين سكجولد براند (قنصل السويد وشقيقه) .

وبهذه المناسبةاذكر فضلاآخر ومنةللاخوينالمذكورين قدماها لي في ظروف سابقة لم اكن مرشحا لشغل منصب رفيع وقتها، كما هي الحالة الان، وذلك انهما سلفا لي مبلغ 5000 دولار لشراء سفينة أسرت في عرض البحر بحمولتها ، وذلك على سبيل المضاربة . وهذا المبلغ قدماه لي عربونا للصداقة دون ان يحمل فائدة أو يجنيا من ورائه أي نفع اطلاقا ، وذلك على الرغم من انهما يعرفان جيـدا مـا تنطـوي عليه هـذه العمليـة من المخاطرة . ولـو مت وقـت العملية أو ارتكبت أية جريمة حقيقية أو وهمية ، قبـل ان أسـدد دينهمـا ، لاستولت الحكومة على السفينة او على ريعها ، باعتبارها ملكا لعبد مملوك ، واذا لفقد كل دولار من ذلك المبلغ . ان مثل هذه الأعمال النادرة في السخـــاء وهذه المساعدة لا بد من تسجيلها في ذاكرتنا ، ويجب أن تبقى عالقة باذهاننا طول حياتنا . انني ممتن لهما وشاكر فضلهما ابد الآبدين . فان المال الــذي ربحته من هذه الصفقة ساعدني على شراء السفينة التي توليـت قيادتهـــا بنفسي حينما توجهت الى فيلاديفيا في سنة 1796 لحمل مسودة معاهـــدة السلام التي عقدت بين الجزائر والولايات المتحدة لكي تطلع عليها وتوافق على بنودها السلطات الامريكية .

* *
* *

الفصـــــل العاشــــر
المفاوضـــــات فـــي المغــــرب

وصل جوزيف دونالدصون (Donaldson) ، المفاوض الأمريكي الى الجزائر في 3 سبتمبر ، وعقدت معاهدة السلام بين الولايات المتحدة والداي حسن باشا ، داي الجزائر في 5 سبتمبر 1795 ·

ففي 13 اغسطس 1795 ، وصلت سفينة اسبانية من اليقانت تحمل رسائل من جوزيف دونالدصون الى كل من سكجولد براند والقبطان اوبراين ورسالة الي من المستر مونتوجمري ·

وبناء على اتفاق مع سكجولد براند والقبطان اوبراين ، ابلغت الداي ان سيدا أمريكيا يوجد حاليا في اليقانت يطلب الاذن له بتقبيل يد سعادته ويتباحث معه بشأن شروط السلام ·

وقد سألني الداي عما اذا كان هذا هو السفير الذي كان يتوقعه منذ زمن بعيد ·

فاجبته بانه ليس هو بالذات ، ولكنه مبعوث من قبله ليكون في مقدمة سفارته ، وان السفير نفسه ذهب الى فرنسا في مهمة رسمية ، والمرجح أن هذه المهمة تتعلق بوضع الترتيبات لتوفير المال الضروري ، لمواجهة تكاليف تنفيذ المعاهدة التي ستعقد مع الجزائر ، اذا تم التوصل الى معاهدة ·

قال لي الداي انه لا يفهم الأسباب التي دعت الى كثير من التبديل والتأخير · ثم سألني عما اذا كنت اقبل تحمل المسئولية بشأن الشخصية التي تنوي القدوم الى الجزائر ، وما اذا كان يتمتع حقيقة بتفويض للدخول في مفاوضات للسلام ولدفع الفدية على الأسرى الامريكيين ·

أجبت الداي قائلا انني أخاطر برأسي ، يا أفندي · واضفت انه لو لم يكن الأمر جدا لما طلب الأذن بالقدوم الى الجزائر · ولكنه في نفس الوقت ، يجب علي أن اخبر سعادتك بان التفويض الذي يحمله المبعوث الأمريكي محدود ، بان لا يدفع أكثر من مبلغ معين من المال لا يمكن تجاوزه · وتبعا لذلك ، فاذا لم تر سعادتك تخفيض المبلغ الذي طالبت به في المرة الاولى بصورة محسوسة ، فسيكون من الأفضل الا تمنحه اذنا بالقدوم الى هنا ، فرد علي قائلا :

ـ « أتريدون السلام بدون مقابل » ؟

ـ « كلا ، يا افندي · ولكننا نريد السلام بنفس الشروط التي حصلت بها عليه هولندا ، وهو أمر سيتيح الفرصة لرئيس الولايات المتحدة الذي يحمل

في نفسه فكرة عالية عن عدلك واعتدالك ، ليعوض لسعادتك ولاسرتك من اجل النفوذ الذي مارسته لدى سلفك ، الداي المرحوم ، لصالح الولايات المتحدة، ذلك النفوذ وتلك المساعي الحميدة التي على الرغم من اننا لم نجن ثمرتها ، فنحن لم ننساها » ٠

ـ « اذا لم تكونوا قد استفدتم من حسن نيتي ، فان الذنب ذنبكم ٠ ثم أي خير قدمتموه للجزائر في أي وقت من الأوقات حتى تتوقعوا أن تحصلوا على السلام بنفس الشروط التي اتفقنا مع هولندا على اساسها ـ هولندا التي كانت تزودنا خلال قرن من الزمن بالذخيرة والعتاد الحربي حينما كنا في حرب مع اسبانيا » ٠

ـ « هل تسمح لي أن أسال سعادتك ، أي ضرر الحقناه نحن بالجزائر ؟ الم يستول اسطولكم على ثلاث عشرة سفينة من سفننا ويأسر ١٣١ من المواطنين الأمريكيين واتخذتم منهم عبيدا مدة أكثر من عشر سنوات ٠ وهذا الوقت اعتبره ، بالنسبة الي ، غير ضائع اذا أتيح لي أن أكون واسطة لاقامة دعائم السلام والوئام بين امتينا » ٠

وقد اجاب الداي قائلا :

ـ « يمكنك ذلك ٠ ولكنه يجب عليكم أن تدفعوا ثمن السلام » ٠

كان الداي حسن يبرم شاربه وهو ينطق بهذه الكلمة ، وهي عادة منه تدل على أن مزاجه بدأ يحتد ، وكذلك اجبته مهادنا وقلت :

ـ « نحن نريد أن ندفع ، يا افندي ، كما نريدك أن تشعر الى أي حد نحترمكم ونقدركم ، ولكننا في نفس الكفة التي توجد فيها اسبانيا والبرتغال ونابلي التي ظلت على محاربتكم منذ عصور بعيدة ٠ ونحن في بلدنا لا نشعر بعداوة نحو المسلمين ٠ فالمسلمون يستطيعون بناء المساجد ويمكنهم ان يرفعوا العلم الاسلامي ويشيدوا المنائر ويرتلوا القرآن ويغنوا بالاناشيد الدينية ، دون أن يخطر ببال آحد ان يقاطعهم في نشاطهم الديني ، وكذلك يستطيع المسلم أن يشغل وظيفا في الدولة ويتمتع بمكانة الشرف ، بل وينتخب رئيسا للجمهورية ٠ الا يمكن اخذ جميع هذه الظروف الى الاعتبار ؟ فالمسلمون لا يتمتعون باية واحدة من هذه الامتيازات في البلدان التي تدين بالمذهب الكاثوليكي ، أو في البلدان التي تدين باي مذهب مسيحي آخر ٠ وانتم حين تضطرون الى اجبار الدول الأخرى على دفع ثمن مرتفع لمعاهدات السلام معها ،

فذلك تطبيقا لمبدا المبادلة بالمثل ، لانها تضطركم الى تحمل الملايين لاقامة التحصينات وغير ذلك من وسائل الدفاع ، اما نحن فاننا لم ندخل قط في حرب معكم » ٠

ولما انتهيت من هذا الحديث ، رايت شوارب الداي تعود الى وضعها العادي مما دلني على انه استرجع هدوءه الطبيعي ، وقد رد علي قائلا :

– « دعه يحضر ، سوف أرى ما سيقوله هو » ٠

وقد أخبرت الداي أن كلمتي وحدها غير كافية لحمله على القدوم ، وانه سيكون من الضروري مده بجواز سفر يحمل ختم الايالة لضمان امنه وسلامته٠ واجابني الداي بقوله :

– « لم تجر العادة بذلك ، ولم يحدث قط أن قدمت هذه الايالة جواز سفر لسفير أية دولة ، لان ذلك يكون معناه اننا نحن الذين نسعى للحصول على السلم وليس تلك الدول » ٠

لاحظت لسعادة الداي انه لا يحتاج الامر أن يكون الجواز المطلوب مكتوبا باللغة التركية ، بل ان من الممكن أن أكتب أنا هذه الوثيقة باللغة الانجليزية ، وهو على كل حال سيحتفظ به في طي السرية والكتمان عن الجميع ، فيما عدا موظفي الدولة الذين يعنيهم الأمر ٠

وبعد محاولات اخرى لاقناعه ، تفضل الداي وأذن لي بكتابة جواز السفر في غرفة نومه وختمته بالختم الرسمي ، ثم قبلت يده وانصرفت ٠

واثر ذلك ، كتبت رسالة الى دونالدصون وضمنتها جواز السفر ، ثم سلمتها الى سكجولد براند ، قنصل السويد ، الذي قام باستئجار سفينة ملك لجمهورية راجوزابمبلغ 400 دولار لكي تحمل الرسالة الى اليقانت وتعود بالمبعوث الأمريكي ، دونالد صون الى الجزائر ٠ وقد أبحرت السفينة على الساعة الثانية بعد الزوال من ميناء الجزائر في نفس اليوم ، بعدما وضعت بنفسي الرسالة في يد ربان السفينة وأبلغته الحظر التام الذي فرضه الداي على اطلاع أي شخص على محتوى الرسالة ٠ وقد انتظرت على متن السفينة حتى فتحت أشرعتها وأخذت تستعد للرحيل ٠

كان المسيو فالبير (قنصل فرنسا) قد بعث يطلب الي أن أقوم بزيارته ، ولكنني لم أجد الوقت الكافي لذلك ٠ وبعد الظهر ، قابلته في منزل قنصل

السويد ،وهناك طلب الي ان اقدم اليه منة ، واوضح له فحوى رسالة دونالد صون ، وقد قمت بذلك عن طيب خاطر ودون الرجوع الى نص الرسالة ، حيث انني كنت أحفظها ، مثل غيري من الاسرى الامريكيين عن ظهر قلب ·

وبعدما عرفته بمضمون رسالة دونالد صون ، سال أوبراين عمن قام باستئجار السفينة الراجوزية · وقد أجاب أوبراين محاولا تبرئة ساحة القنصل السويدي الذي لم يكن يريد ان يكون له ضلع في القضية ، بانه هو نفسه الذي تكفل بالعملية ·

سال فالبير القبطان أوبراين :

– « هل تستطيع أن توضح لي ، يا سيدي ، لماذا لم احط علما بهذه التطورات ؟ » ·

فأجاب أوبراين بانه لم يكن يرى أن من واجبه ان يستشيره في هذه العملية · وكان رد القنصل عليه انه قد عامله معاملة خالية من الاحترام ·

وقال القبطان أوبراين : « عاملناك بكل ما يستحقه سلوكك نحونا » ثم غادر المجلس ·

كنت أشعر بالأسف لان يصطدم أوبراين في هذه المرحلة من أعمالنا بقنصل فرنسا · ولكن سلوك هذا القنصل نحونا كان سلوكا لا يمكن وصفه ، وقد كان من الضروري وقفه عند حده · ونظرا لانه وضع نفسه هدفا لقذائف أوبراين، فانني لم أندهش لان أرى واحدة منها تصيبه في الصميم !

كانت السرعة التي قمنا بها بالعملية قد حالت دون تمكن اعدائنا من حساب نتائجها ووضع الخطط لمعارضة اجراءاتنا · فانه لم تمض سوى ست ساعات على وصول رسالة دونالد صون حتى اجبنا على تلك الرسالة وبعثنا اليه اذن الداي بالقدوم مع جواز صدر بصفة استثنائية ويحمل ختم الايالة ، والكل الآن في الطريق الى اليقانت ·

كنت أشعر بالخطر الكبير الذي عرضت له نفسي حين أعلنت اليه ضماني لا لقدوم المبعوث الامريكي فحسب ، بل وأيضا لحدود التفويض الذي يحمله · فلو تراجع ورفض القدوم الى الجزائر لوجدت نفسي في حالة لا تحمد عقباها · فان الداي ، مثل غيره من الرؤساء ، سوف يكون الفضل كله له ، متى نجحت العملية ، ولكنه اذا قدر لها الفشل ، فسوف يلقى اللوم على الغير ··· ويبحث عن كبش الفداء بين أولئك الذين جاءت منهم المبادرة أو كانوا واسطة فيهــــا ·

كتمت أخبار العملية التي قمت بها عن الجميع ، بما في ذلك القنصل سكجولد براند ، وقد كنت الوحيد المشتغل بالعملية وانا تحت سلطة الداي وفي يده كلية . والداي سبق أن اصيب بخيبة أمل في موقف الولايات المتحدة أكثر من مرة ، ومن المفهوم أن يكون قد استنفذ صبره ، او كاد .

والوزراء الذين خابت آمالهم في الحصول على ما كانوا ينتظرون الحصول عليه من الولايات المتحدة ، كانوا يهمسون في اذن الداي بان بلدنا يتلاعب معه ، وبالتالي يهين الجزائر . ولو فشلت المساعي الجديدة لبدا الداي أمام وزرائه وأمام شعبه في مظهر يدعو الى السخرية، ولما وجد بدا من أن يبحث عن شخص يحيل الى عاتقه كل المسئولية . وأي شخص آخر غيري يتحمل وزر هذا الفشل ؟ انني واثق من أنه لو سارت الحوادث في هذا الاتجاه لقطع رأسي ولووري جسدي في مقبرة اليهود في باب الوادي ، دون أن يكون لي الحق في أن اطمع في جنة الفرووس التي يطمح اليها المسلمون .

جرت محادثات بعد توقيع معاهدة السلام بين ايريك سكجولد براند ، قنصل السويد ، والمستر دونالد صون ، ذات يوم ، فذكر له المخاطر التي عرضت نفسي لها ، فأجابه المبعوث الامريكي قائلا : « كانت تلك المخاطر أكبر كثيرا مما تتخيل ، لانني قررت مصمما مرتين بان لا أستقل تلك السفينة" .

فأجاب ايريك قائلا : « واذا لكان كاثكارت المسكين كبش الفداء » .

فقال دونالد صون : « حسنا ، لو حدث ذلك ، لاستمر العالم دون أن يعبأ بوجوده . فاذا كان أحمق الى درجة أن يعرض نفسه لتلك المخاطر ، فيجب عليه أن يتحمل نتائج عمله ، دون أن يوجد من يشكره على حماسه المفرط » .

يا له من تنبؤ عجيب سوف يتحقق بدقة في السنوات المقبلة ، ولو انني لم أكن أعتقد أنه من الممكن أن تدرج الولايات المتحدة في زمرة الناكرين للجميل!

كان علي الآن أن أحارب نفوذ كل من الدون جوان كاريجو (Don J. Carrigo) قنصل اسبانيا ، ووكلاء البرتغال . وأما قنصل بريطانيا ، فهو رجل انجليزي، وبالتالي ، عدو . ولكن الاخير ، لحسن الحظ لم يكن يبدي نشاطا كبيرا ولم يكن لديه نفوذ يذكر .

وأما القنصل الفرنسي ، فاليير ، فلم يكن يحارب مصالحنا في وضح النهار . ولكن مؤامرات وكلاء الغرفة التجارية في مرسيليا كانت ثقيلة في الوزن . فهؤلاء كانوا يعارضون مساعي الولايات المتحدة لعقد معاهدات السلام مع دول المغرب ، لان التقارب بين البلدين سوف يؤثر في مصالح شركات الشحن الفرنسية ، وخصوصا ، فيما يتعلق بتجارة الحبوب .

وأما الهولنديون والسويديون ، فقد جددوا مؤخرا معاهدات السلام التي تربطهم بالجزائر ، ولم يكن يوجد أي خطر في حدوث أي تغيير في وضع البلدين في الوقت الحاضر ٠ والهولنديون أصدقاء ، ولو أنهم قد رفضوا القيام باي دور لمساعدة الولايات المتحدة للحصول على معاهدة السلام ٠

وأما الدانمارك والبندقية ، فقد كان كل منهما يتوجس خيفة في أن تقع ضربة الجزائر التالية عليه ، حيث أنه قلما عقدت معاهدة السلام مع بلد ، دون أن يطلب الى قنصل بلد آخر مغادرة الجزائر ، كمرحلة أولى في طريق اعلان الحرب على بلده،وقداكتفيا باشاعة تقارير مضرة بمصالحنا وبالعمل لحمل الداي على الاعتقاد بان الولايات المتحدة لا تملك المال الضروري للاستجابة لمطالبه ، بل وتنقصها حسن النية أيضا ٠

تلك هي الوضعية في الجزائر حينما وصلت رسالة دونالد صون التي تفيد بانه يحمل تفويضا من حكومته ، ولو أنها لا تحدد مدى السلطات التي زود بها للتفاوض ٠

وأيا ما كان الامر، فقد تراءى لي أن هذه فرصة ملائمة لاجراء المفاوضات المنشودة ، وانها اذا ضاعت ، فسوف تمر عدة سنوات اخرى قبل أن تتاح فرصة مماثلة ٠ وبالنظر الى ما كنت أعرفه من حسن نية الداي واستعداده للتخلي عن المطالب المفرطة التي تقدم بها من قبل ، فقد صممت على تحمل المخاطر لاحضار المستر دونالد صون باسرع ما يمكن حتى أحول دون تفاقم الجهود التي يبذلها وكلاء الدول الاخرى من أجل الاضرار بمصالح بلدنا بمؤامراتهم التي اتسع نطاقها في الوقت الحاضر ٠

وفي هذه الاثناء ، ذكر لي الداي بعض المقترحات التي تقدم اليه بعض اعدائنا ، فاتاح لي الفرصة بذلك لمقاومة خططهم ٠

وفي 20 أغسطس ، حجزت دارا صغيرة أنيقة تقع في جوار بيت قنصل السويد استعدادا لاستقبال دونالد صون لدى وصوله وذلك بعد ما حصلت على اذن من الداي حسن ٠ على أن الأخوين بيتر وايريك سكجولو براند ، ترجياني الا استأجر له منزلا شديد القرب من منزلهما ، حيث أن ذلك قد يحمل قناصل الدول الأخرى على الاعتقاد بوجود خطة مدبرة لهما ضلع فيها ٠ وقال لي قنصل السويد انه سيكون سعيدا جدا أن يستقبل المبعوث الأمريكي ويأويه في منزله لولا ما سيثيره ذلك من الحسد بين القناصل ، وانه لو طردت السلطات الجزائرية أحدهم لما تردد في أن يبلغ ملك بلده أن السويد قد ساعدت الولايات

المتحدة في الحصول على معاهدة السلام · وقال لي بيتر ان كلا من قنصل السويد وقنصل الدانمارك مزود بتعليمات من حكومته بان يتعاونا وينسقا مساعيهما في الحالات الصعبة ، وانه اذا ابعد قنصل الدانمارك من الجزائر كاجراء مسبق لاعلان الحرب،وشكي الاخير لحكومته ان قنصل السويد قد ساعدنا للحصول على السلام ، فسوف يضر ذلك شقيقه الذي سوف يوجه اليه بلاط ملكه اللوم ·

ولهذه الاعتبارات ، فان قنصل السويد وشقيقه يجدان نفسيهما مضطرين الى التزام جانب الحذر والتحفظ ، ولكنهما سوف يقدمان لنا المساعدة في جميع الأوقات ، بصفة غير رسمية ، وذلك حتى يكونا ملتزمين بمصالح بلدهما ·

واستجابة لهذا الرجاء ، أبلغت الداي في اليوم التالي انني لم استطع استئجار المنزل المذكور للسفير الأمريكي ، ورجوته أن يسمح باستخدام منزل تابع للحكومة لهذه الغاية ·

قال لي الداي ان العادة لم تجر بمثل هذا ، ولكنه قرر أن يبدي كل ما يمكن من الاحترام للسفير الأمريكي ، ولو لم يكن ذلك الا من أجل اغاظة بريطانيا التي هي عدو أمريكا اللدود والتي ساءت علاقاته معهما في العهد الأخير · وكذلك أعرب لي الداي عن رغبته في أن أطلب الى مدير شئون القصر أن يسلم لي مفاتيح بيت الخليفة الذي بني حديثا · ولما تسلمت هذه المفاتيح ، أعطيتها لبكري ليقوم بالاشراف على تبييضها وتنظيفها ، ثم أثثت غرفتين منه بمالي الخاص ، وهو عمل تلقيت من أجله قليلا من الشكر ···

عيل صبر الداي وأصبح يشك في قدوم دونالد صون الى الجزائر · وهذه الشكوك سمحت بالتفكير في ايجاد مخرج من المأزق الذي وضعت نفسي فيه·

ذكر دونالد صون في رسالته أنه كان يريد أن يبعث برسالته مع فيليب سلاون، ولكنه لم يفعل لان حاكم اليقانت رفض السماح له بالسفر من هذه المدينة ما لم يتلق أمرا بذلك من بلاط مدريد . وهذا الاجراء يدل على مدى اهتمام اسبانيا بمصالح البرتغال ، وعلى رغبتها في احباط مساعينا من أجل السلام·

كان سلاون أسيرا أمريكيا يعمل في خدمة الداي قبل أن تفتديه هولندا ويحمل معه رسائل الى الولايات المتحدة . وبعد ذلك عاد الى اوروبا في رفقة السفير هامفريز (Humpheries) ·

وعندما ابلغت الداي ان حاكم اليقانت منع سلاون عن ركوب سفينة للقدوم الى الجزائـر ، واخبرته أن سلاون كان قد سافر الى أمريكا وعاد في رفقة السفير وانه لو تمكـن من القـدوم الى هنا لقـدم للـداي تقريـرا وافيـا عن الاسباب التي حالت دون قدوم السفير هامفريز شخصيا الى الجزائر ، عند ذلك انتابت الداي حسن فورة من الغضب ، وأمر المنادي العمومي أن يعلن فـي الشوارع والاسواق انه ـ باستثناء السفن التي يجري شحنها حاليا فـي الميناء ـ يمنع شحن ولو بصلة واحدة في اتجاه اسبانيا ووقف جميع المعاملات مع ذلك البلد ٠

وجدت أن من مصلحتنا اثارة هذا النزاع مع اسبانيا وقلت للداي انه اذا لم يحضر السفير الأمريكي الى الجزائر ، فسيكون ذلك حتما نتيجة لمناورات الاسبان الذين يبلغونه أن الشروط التي تطالب بها الجزائر لعقد معاهدة السلام مع الولايات المتحدة ستكون حتما ، مماثلة للشروط التي قدمها الجزائريون لعقد معاهدة مع البرتغال ـ تلك الشروط التي رفض الداي تخفيضها ـ وان السفير عندئذ يقتنع بان سعادة الداي لن يقدم شروطا أخف للولايات المتحدة ، وبذلك يستنتج انه لا فائدة من القدوم الى الجزائر اطلاقا ٠ واضفت مختتما لهـذا التخيل، أن هذا مجرد تخمين ، ون المبعوث الامريكي قد يأتي ، على كل حال ٠ وقد اجابني الداي قائلا :

ـ « ألم أقل لك أن الذين يقومون بعمليات الجمع في الحساب يستطيعون أيضا القيام بعمليات الطرح ٠٠٠ وانه ما عليك الا ان تطلب الى السفير القدوم واننا سنتفق حتما ٠ ألم اقل لوكلاء البرتغال أنني لن أتنازل لهم عن فلس واحد مما أطالب به ذلك البلد ؟ فهل ترى أن هذين الجوابين متشابهان ؟ الا تستطيع أن تدرك الفرق بينهما ؟ » ٠

قلت للداي انني أرى فرقا كبيرا بين الموقفين ٠ فرد علي بلهجة حاسمة ، قائـلا :

ـ « في هذه الحالة ، ابلغ سفيركم ذلك ٠ ولماذا قلت ما قلته في رايك؟» ٠
أجبت الداي بانني لم أجد من المسؤولية ، كما انني لم اكن أرى مسوغا لافشاء أي حديث اسمعه من سعادة الداي ، دون أن اتلقى امرا صريحا منـه بذلك ٠ فقال لي :

ـ « انك على حق فيما قلته كقاعدة عامة ، ولكنه كان يمكنك أن تنحرف عن هذه القاعدة في القضية الحالية ٠ وعلى كل حال ، فانا ارى ان لديك راسا، وان سفيركم قد يتلقى معلومات تهمه من دوائر اخرى ، ولو انك لم تفـش أسراري ٠ والآن حان وقت الصلاة وانا ذاهب » ٠

منذ هذا التاريخ، وهو 2 سبتمبر 1795 ، وانا اعقد اجتماعا في كل يوم مع الداي الذي اصبح قلقا وازدادت شكوكه حول ما اذا كان السفير الامريكي سوف يقدم الى الجزائر ، ام لا.

رجوت سعادة الداي ان يصبر قليلا ، على الاقل ، حتى تعود السفينة التي نقلت الرسالة ، وان اعتبار اللياقة والمجاملة ستحمل السفير على رد الجواب ، وانه اذالميحضروقرر الداي توجيه انذار الى الولايات المتحدة ، فسوف أسافر لاحمله شخصيا الى السفير في اليقانت • فرد علي الداي قائلا :

ـ نعم ، سوف تذهب ولن تعود بعد ذلك » •

ـ لم يكن لدى سعادة الداي قط اي سبب في الماضي ليشك في صدقي• وأنا سأفعل ما أعد بفعله • وبقاء مواطني ورائي في القيود ، فيه ضمان كاف لفديتي ، وبالاضافة الى ذلك ، كان يمكنني الحصول على حريتي منذ وقت طويل ، لو قبلت أن يقوم البريطانيون بدفع فديتي •

وبهذه المناسبة ذكرت للداي انني رفضت عرضين مختلفين لدفع فديتي وتحريري من قيد العبودية • وهذا الاعتراف الذي اقتضته الظروف زاد من حسن رأي الداي في شخصي • وقد تساءل الداي قائلا :

ـ « ما هي الشروط التي أستطيع أن أقررها لحمل السفير الأمريكي على القدوم ؟ » •

ـ انني لا أعرف على وجه التدقيق ، ولكن الولايات المتحدة تتوقع عقد معاهدة السلام على أساس شروط المعاهدة مع هولندا ، وتقديم هدية اليك مقدارها 100000 دولار ، وهدية لاسرتك قيمتها 50000 دولار ، وذلك رمزا لتقدير صداقتك واعترافا بالجميل الذي قدمته أو تقدمه سعادتك لامريكا في المستقبل • فقال الداي باستخفاف :

ـ « شيء زهيد جدا »

نهض الداي من مقعده ، ولكنه لم يكن معكر المزاج ، فان وضع شاربه كان عاديا كما ان لحيته لم تتحرك ، بل وأكثر من ذلك خيل الي انني لمحت في عينيه وعلى محياه علامات الرضا •

انني لا أعتقد أنني كنت مخدوعا فيما لاحظته ، فان طول المعاشرة علمتني أن أقرأ بصواب ملامح الداي الذي يخضع سلوكه كله للانفعالات والعواطف ،

وأنا على يقين انني لو كنت أملك التفويض من حكومة بلدي في تلك اللحظة ، لعقد معاهدة للسلام وتحرير الاسرى الامريكيين لتمّ ذلك في مقابل مبلغ لا يزيد مجموعه عن 450000 دولار · ولما ابلغت فحوى هذه المحادثة مع الداي الى القنصل سكجولد براند ، أعرب عن رأيه بان السلام سوف يتوج المفاوضات المقبلة ، اذا لم تدم مدة طويلة ·

تلك هي حالة الامور حينما شعرت بعبء يزاح على كاهلي عندما بحث في الأفق سفينة جمهورية رجوزا التي استاجرناها وسيرناها الى اليقانت لتنقل السفير الامريكي ، وكانت تحمل العلم الامريكي على السارية الرئيسية ، وعلم الهدنة في المقدمة ، وعلمها الخاص في الوسط ·

ابلغت الداي حسن على الفور خبر وصول السفينة وأخبرته ان رفعها للعلم الأمريكي يعني أن السفير موجود على متنها · فكان رد الداي بقوله :
ـ « انني مسرور بمقدمه ، انزله الى البر ورافقه الى المنزل الذي أعد له ، أما أنا ، فاني سأقصد الى مقري الريفي لارى زوجتي » ·

وقلت للداي : لن تنسيك معاهدة السلام السيدة حرمك الكريمة ·
نظر الي الداي الذي كان قد أدار لي ظهره من على كتفه وابتسم ولم يقل شيئا ·

أرست السفينة الشراعية ذات الصاريتين في الميناء ، وبينما كنت متجها اليها لاستقبال دونالد صون ، التقيت في طريقي بالقبطان أوبراين وميكايا كوهين بكري ، وجميعهم أعربوا عن رغبتهم في الصعود معي على متن السفينة، فاما القبطان أوبراين فقد أوقف ولم يسمح له بالصعود حيث أنه ممنوع على العبيد ، فيما عدا رئيس الموظفين (المسيحيين) امتطاء سفينة ولكنني بعدما تعهدت وتحملت مسئولية عودته ، سمحوا له بالصعود معي ·

وفي يوم الخميس 3 سبتمبر 1795 ، نزل دونالد صون المبعوث الامريكي من على ظهر السفينة بسلام ورافقته الى المنزل الذي أعد لاستقباله ، وقد دخله على الساعة الثالثة بعد الزوال ·

كان جوزيف دونالد صون رجلا طويل القامة في الخمسينات من العمر ، مهيب الطلعة ، شديد الثقة في نفسه · وأما مزاجه فقد عكره داء النقرس الذي يشكو منه ، وخشونة الرصيف الذي سرنا عليه ، بالاضافة الى بعد المسافة بين الميناء والمنزل الذي نتجه اليه ، وهي أمور كانت كافية لامتحان رجل يتمتع

بصحة عادية ، حتى بدون حشد الجماهير من الفضوليين الذي كان يسير وراءنا ، ليروا الى أية فصيلة من الحيوانات ينتمي سفير امريكي · والقاري، يمكنه أن يدرك الحالة النفسية المنزعجة التي كان فيها دونالد صون ، خصوصا ، اذا عرف أن أبغض شيء الى نفسه ، هو أن يحدق فيه انسان آخر ·

كان السفير دونالد صون يرتدي بدلة من قماش من النوع الجيد ولكنها متسترة ، وعلى رأسه قبعة من النوع الذي كان الرجال يلبسونه اثناء حرب الاستقلال ، وهي تشبه الى حد بعيد القبعة التي رسم بها فردريك الثاني في صورته الزيتية المشهورة · كانت رجله اليمنى ملفوفة في قطعة من القماش الصوفي الرفيع وينتعل خفا من القطيفة ، كما كان ذراعه محمولا على مسند ·

كان الجو صحوا دافئا ، ولكن الآلام التي يشعر بها دونالد صون من مرضه والنظرات الحادة التي تسدد اليه ، بالاضافة الى الاطفال الذين يجرون في الشارع ويقطعون طريقه ، قد وضعته في أقصى حالات الغضب الذي كان يحاول جاهدا أن يكتمه ، بينما كان العرق يتصبب من جبينه ويدخل الى عينيه ويوشك أن يحجب بصره ·

وفي هذه الاثناء ، كنت أبذل أقصى الجهد حتى أبعد الفضوليين عن طريقنا ، ومع ذلك وجدت صعوبة في كبح الرغبة في الضحك ازاء الالقاب التي كان العرب ينعتون بها دونالد صون ، كما هي عادتهم عندما يشاهدون أي شخص مصاب بعاهة ·

وأخيرا وصلنا الى منزل الخليفة الذي هو الآن مقر السفير دونالد صون الذي بقي عليه أن يصعد سلما عاليا من الدرج قبل أن يصل الى شقته ·

زادت برودة المرمر في المنزل من الام المستر دونالد صون ، وعندما القى بجسده على الصفة انطلقت حنجرته بلعنتين أو ثلاث بصورة اختلطت احداهما بالاخرى ، بصورة لم اتبين من كلماتها اللعنة الرئيسية ···

وتدخل اليهودي بكري يسأله « ماذا حدث ؟ » وفي عينيه بريق الدهشة والاستغراب ·

ولكن أوبراين قاطعه قائلا : « لا شيء ، لا شيء ، كل ما هنالك أن سعادة السفير يرتل صلواته ويحمد الله بسلامة الوصول » ·

وقد أجاب اليهودي ، « انني أرى أنه متحمس جدا في صلاته » ! وفي هذه الاثناء ، احضر العشاء الذي أمرت بتجهيزه من حانتي وجلسنا على المائدة · وبعد العشاء تناولنا فواكه الموسم ·

كان المستر دونالد صون يبدو بعد ذلك وكأنه تكيف بوضعيته، ولا سيما وأن الام النقرس الذي يشكو منه قد خفت كثيرا ٠

وبعد الغسق ، حضر قنصل السويد سكجولد براند للترحيب به ، وقد بقي معنا حتى ساعة متاخرة من الليل وشارك في مناقشة قضيتنا منذ وصول جون لامب الى الجزائر في سنة 1786 حتى الوضعية الحاضرة ٠ وقد قدمت للمستر دونالد صون المذكرات التي كنت اسجلها يوما بعد يوما ، بما في ذلك القسم الذي يتعلق بالمفاوضات الجزائرية الامريكية منذ وصولي الى الجزائر في سنة 1785 ، كما اطلعته على الجزء الذي قد يهمه من مراسلاتي الخصوصية والتي لها صلة بالموضوع ٠

* *

* *

الفصـــل الحـادي عشـر

كان يوم الجمعة 4 سبتمبر (1795) ، يوم العطلة الاسبوعية عند المسلمين ، وبالتالي لم تكن تمارس فيه الاعمال ، ومع ذلك ، ورغبة في قطع الطريق عن مناورات اعدائنا ، سعيت لدى الداي حسن وحصلت على موعد منه لاقدم اليه السفير الامريكي دونالد صون في صباح هذا اليوم ·

وعلى الساعة السابعة صباحا قدم السفير اوراق اعتماده التي قراتها وفسرتها للداي · وقد اغتنمت هذه المناسبة لاذكره بان كل ما وعدت به سعادته قد تحقق الآن طبقا لرغباته ، فان السفير قد وصل ويحمل معه اوراق اعتماد تخوله السلطة للتفاوض من أجل عقد معاهدة السلام بين الجزائر والولايات المتحدة ·

فرد علي الداي بلهجة حاسمة قائلا :

ـ « ولكن السلام لم يعقد بعد » ·

فقلت :

ـ « ان ذلك يتوقف على سعادتك كلية · فان أنت طالبت باكثر مما نستطيع تقديمه ، فلن يعقد سلام · ولكنه اذا كانت مطالبك في حدود امكانياتنا ، فسوف يمكن عقد السلام في ظرف أربع ساعات » ·

اجاب الداي قائلا : « ان اليوم يوم جمعة ، وسننظر في هذه القضية يوم الغد » ·

وبذلك انسحبنا من مجلس الداي وانصرفنا ·

حضر هذه المقابلة الى جانبنا كل من بكري وسلاون وترجمان القنصلية السويدية ·

وعلى الساعة التاسعة صباحا ، بعث الداي في طلبي وسالني عما اذا كنت متاكد من ان السفير يحمل تفويضا كاملا لعقد معاهدة السلام ·

وقد أجبت الداي بانني قرات أوراق اعتماده وشرحتها امامها ، وبالتالي، فهو على اطلاع على الموضوع وعلى بينة منه ، مثلي تماما ·

قال الداي :

ـ « اذا ، انقل الى السفير الشروط التي سجلتها بامر مني في السنة الماضية ، وأخبرني بما يراه بشانها » قلت له :

ـ « من المؤكد انه سوف يرفضها ، واذا لم تقم سعادتك بمراجعة تلك الشروط وتخفيضها بحيث تكون في مستوى ما تدفعه الدول الصغيرة ، فسوف يسير في طريقه ويعود الى اعماله دون أن يحدث شيء » ·

ـ « انني آمرك في الحال أن تنقل عني هذه الشروط الى السفير ، وتنقل الي اقتراحاته هو ، دون أن تتفوه بكلمة اخرى بعد الآن ، انني أنوي تسوية هذه القضية في الحال » ·

وعندما اتجهت الى الداي لتقبيل يده ، انزلقت رجلي على بلاط المرمر ووقعت على الارض · فقال لي الداي :

ـ « الا تستطيع الوقوف على رجليك ؟ » فقلت :

ـ « ان ثقل مقترحات سعادتك جعلتني أرزح وأسقط على الارض » ·
وقد خرجت على الفور ، ولكنه بلغني فيما بعد أن الداي ضحك كثيرا من هذا الرد الذي ردده على مسامع وزرائه ، بعدما انتهت المفاوضات بعقد معاهدة السـلام ·

نقلت مقترحات الداي الى سفير الولايات المتحدة ، وهي تنص على أن يدفع بلدنا مبلغ 2247000 دولار ، وتقدم للجزائر بارجتين حربيتين كل واحدة منهما مسلحة بخمسة وثلاثين مدفعا ثمنا لمعاهدة السلام ، بالاضافة الى ضريبة سنوية تدفع في شكل عتاد وأجهزة بحرية تبلغ قيمتها 12000 سكوين · وهذا مع عدية السفير والقنصل التقليدية التي تقدم مرة في كل سنتين ، على غرار الهدايا التي تقدمها كل من هولندا والسويد والدانمارك ·

كان دونالد صون في حالة قنوط عندما تسلم هذه القائمة وقال لي انـه كان مخطئا حينما قرر القدوم الى الجزائر ، لان أي عرض يتقدم به ، سوف يعتبره الداي ، بدون شك ، اهانة ·

حاول سكجولبراند والقبطان أوبراين اقناع السفير بان يقدم للـداي عرضا آخر · حتى ولو كان صغير القدر ، ايخاطر كاثكارت بنقله الى الداي ·

فكان جوابي انه ما دمت قد تلقيت أوامر الداي بان انقل اليه رد السفير ، فسوف يكون من الأفضل تقديم رد بدلا من الامتناع عن الرد · وقد نصحت دونالد صون أن يقرأ نسخ الرسائل التي كنت قد وجهتها الى مونتوجمري ·

وبعدما اطلع على تلك الرسائل عقدنا جلسة للمشاورة واسفرت المداولة على اقتراح · بان يعرض السفير على الداي مبلغ 543000 دولار فـي مقابـل معاهدة السلام وفدية الاسرى ·

نقلت هذا الاقتراح الى الداي وكان يرافقني اليهودي سلاون في هذه المهمة · وأما اليهودي كوهين بكري ، فقد رفض مرافقتنا رفضا باتا ، قائلا ان العرض الامريكي صغير بصورة مخجلة بالقياس الى مطالب الداي ، وانه لم ينس بعد المعاملة التي لقيها على يد الداي حينما رافق ممثل هولندا بمناسبة تجديد المعاهدة الجزائرية الهولندية ، وانه قرر الا يخاطر بنفسه في مغامرة اخرى بعد ذلك ·

وهذا التخوف ذكرني بما أوعدني به الداي وهو احراقي ، واعتراني هم وغم وقلق كبير · وعند ذلك رجوت المستر دونالد صون انه اذا كان مصيري الاحراق ، ونجا هو بمعجزة من نفس المصير ، بان ينقل معه بعض رماد جثتي ويقدمها الى المتحف الوطني في فيلاديفيا · ولكن هذه النكتة لم ترق المستر دونالد صون ، على ان الأمر الذي وجده نابيا أكثر واثار امتعاضه ، هو ما ذكره سكجولد براند ، قنصل السويد ، من أن قنصل فرنسا هدد هو الآخر ، مثل اليهودي بكرى، بالاحراق·

قدمت مقترحات السفير الى الداي وشرحتها له ، فكان رده عليها في مرحلتين : ابتسامة ساخرة ثم تلتها فورة من الغضب لا يمكن وصفها ، ثم وجه الى الخطاب :

ـ « ماذا تعني بحمل مثل هذه المقترحات الي ؟ فهل تريد أن تتخذ مني العوبة ؟ » ·

ـ كلا ، يا سيدي ، فان هذه مقترحات السفير وليست مقترحاتي أنا · فان صلاحياته محدودة ولا يستطيع أن يقدم أكثر من هذا المبلغ · وهذا المبلغ أكبر من المبلغ الذي حصلت عليه من الحكومة الهولندية · فقاطعني الداي بالمجاملة التالية :

ـ « انك كذاب وكافر · فان صلاحيات السفير الامريكي وسلطاته في هذه المفاوضات ليست محدودة كما تقول ، لان قنصل فرنسا أرسل من يخبرني بانه يحمل تفويضا غير محدود (Carte blanche) (1) وانه يستطيع أن يقدم ما يشاء من أجل عقد معاهدة السلام » ·

قلت للداي :

ـ لو وصفت سعادتك الوزير الفرنسي بانه كذاب وجاهل لاستحق هذا الوصف عن جدارة ، وذلك لان رئيس الولايات المتحدة نفسه لا يخوله الدستور

(1) بالفرنسية في الاصل ·

السلطات التي قال لك الوزير الفرنسي ان السفير قد زود بها · فان « الديوان » (يقصد البرلمان) الامريكي هو الذي يحدد المخصصات المالية لكل ادارة ولكل مشروع ، ورئيس الجمهورية او اي موظف آخر لا يملك السلطة لتجاوز مخصصات ادارته او المهمة التي كلف بها · وبالتالي ، فان السفير الامريكي قدم كل ما يستطيع تقديمه ضمن هذه المقترحات · واذا لم تقبل ، فهو لا يملك حيلة سوى أن ينتظر تعليمات جديدة من حكومته · وهذه التعليمات لا يمكن ان تصله في فترة اقل من سنة بسبب بعد المسافة · واما قنصل فرنسا ، فكان قد أخبرني في عدة مناسبات انه لن يتدخل في امورنا ، الا اذا تلقى تعليمات من حكومته بذلك · » فهل تلقى تعليمات في الوقت الحاضر لكي يتدخل ويحدث اضطرابا في أمورنا » ؟ ذلك هو السؤال الذي وجهته للداي · فاجابني الداي قائلا :

— « انه يقول انه لم يتلق أية تعليمات حتى الآن · وهو انما قدم الي هذه المعلومات على سبيل الصداقة فقط » ·

قلت للداي ان القنصل غير قادر على الشعور بالصداقة لاحد ، ولربما كان ما يسعى اليه هو الحصول على شحنة من القمح منك ، كالتي حصل عليها عندما بادلته هدية في مقابل هديته · وليتأكد سعادة الداي ان وراء مساعيه هذه مخططا ماليا ، لان قناصل الدول الاخرى يلقبونه بالقنصل الأجير · وهو في ذلك لا يقل جشعا عن السمسار اليهودي ، وهو انما قدم اليك هذه المعلومات لغرض شخصي للانتقام · وبالنظر الى اننا نعرف شخصيته ، فقد قررنا الا يكون له اي دور في هذه القضية · وقد ترجوت سعادة الداي الا يعير اذنا صاغية لمثل هذه الاخبار المغرضة في المستقبل ·

واجاب الداي :

"Senza Feda": (1) (رجل بلا ايمان!) ، انك لم تقض هذه المدة كلها في الجزائر بغير فائدة · فلو لم تكن أنت الذي أمليت هذه الشروط على السفير، فكيف يعرف ، وهو الذي لم يضع قدمه في الجزائر الا يوم أمس ، طريقة تخصيص الموارد التي تنص عليها اقتراحاته ؟ »

أجبته بانني أمريكي ، وأن حكومة بلدي تدفع لي الآن مرتبا وانه من واجبي أن أساعد السفير الامريكي بجميع المعلومات التي املكها ، ولكنني بوصفي خادم ممتن للداي ، فسوف يسر سعادته أن يعرف ان هناك مخصصات ملائمة له ولاسرته ، فان سعادته هو صديقنا الرئيسي ، بل هو صديقنا الوحيد ·

---

(1) كذا في الاصل.

قال الداي :

– « اعد قراءة مقترحاتكم مرة اخرى » • اطعته واعدت قراءة النص .
فقال لي :

– « 100 000 منحه لي شخصيا و 50 000 سكوين تعني ؟ » •

– كلا ، يا سيدي ، الحساب بالدولار • وبهذا الرد تلقيت مجاملة اخرى من الداي بلهجة مشوبة بكثير من الغضب :

– « اغرب عن عيني أيها الكلب الذي لا روح له ! ولا تحاول بعد الآن أن تحمل الي مقترحات مثل هذه في المستقبل ، والا استحق عملك غضبي » (وهذا معناه في مصطلح الداي ، الجلد على الأقل) •

انصرفنا من القصر وعدنا الى منزل السفير دونالد صون حيث وجدنا في معيته القنصل سكجولد براند والقبطان أوبراين وأخبرناه بنتيجة اجتماعنا بالداي ، فكان تعليق دونالد صون أن القضية قد انتهت الآن ، وانه قد ذهب الى أبعد ما تسمح به التعليمات التي يحملها ، وانه لن يتجاوز هذه التعليمات •

نصحه سكجولد براند بان يقدم الى الداي عرضا آخر بزيادة ولو كانت بسيطة ، حيث انه (أي الداي) ذو مزاج نزوي وعصبي ، ولو شعر باهانة لما اغتفرها ، وحينئذ لن تظهر على الارجح فرصة اخرى لعقد السلام ، ليس مع الجزائر فقط ، بل ومع بقية بلدان المغرب أيضا • وبالنظر الى أهمية هذا الهدف الذي تسعى للوصول اليه ، فمن رأيه ، ونحن قد انضممنا جميعا الى هذا الرأي ، يجب عدم قطع المفاوضات مع الداي ، من أجل بضعة آلاف من الدولارات •

قال دونالد صون أنه لن يستطيع تقديم دولار اضافي واحد ، ولتكن النتائج ما تكون •

وعندئذ قلت للسفير : في هذه الحالة ، كلما أسرعت في حزم امتعتك وفي السفر ، كان ذلك افضل ، لانك لن تحصل على السلام على أساس شروطك ، ولعل أن من المرجح ن يحدث مبلغ ٤٠ أو ٥٠ الف دولار تغييرا في الموقف •

وعلى الساعة الثانية بعد الزوال ، استدعاني الداي وانحى علي بالسب والشتم لجراتي على حمل مثل تلك المقترحات اليه من المستر دونالد صون ، واتهمني بالتواطئ مع السفير للتلاعب معه ولاهانته •

قلت للداي بصراحة انني وجدت نفسي في وضع محرج ، حيث أنه هو يتهمني بالتواطىء مع السفير ، بينما يتهمني السفير باعتناق وجهة النظر الجزائرية ، ولكن الحقيقة هي انني بريء من كلا الاتهامين ، فانا أعرف أن بلدي يرغب في عقد السلام وقد حاولت الحصول له على السلام بجميع الوسائل التي هي في امكاني ، وأنني أقنعت المستمر دونالد صون أن يقدم اقتراحات ضمنها كل ما يمكن أن يقدمه من الشروط مرة واحدة ، ولم يدخل في مساومة مثلما يفعل اليهود . وقلت كذلك ان المستر دونالد صون قد يستطيع أن يضيف من جيبه الخاص مبلغ 40 أو 50 ألف دولار ، وانني مقتنع بانه قد يخاطر بهذا المبلغ ، اذا كان سيحقق السلام بذلك ، وأنني شخصيا يمكنني أن أخاطر بكل ما أملكه ، وهو 10000 دولار ، من أجل قضية السلام ، ولكنني أرى أن من القسوة اتهامي بالتواطىء مع المستر دونالد صون ، وهو شيء ليس له اساس من الواقع .

وعند ذلك دعاني الداي الى الجلوس وأمرني بالكتابة ، وأملى علي مقترحاته الجديدة التي تنص على أن تدفع الولايات المتحدة مبلغ 982000 دولار ، وهو تخفيض معتبر في مطالبه السابقة .

أخذت هذه المقترحات الى السفير دونالد صون الذي رفضها ، وقد حاول كل من سكجولد براند وأوبراين وسلاون اقناعه بان يقدم مبلغا اضافيا زيادة على المبلغ الذي ورد في مقترحاته الأولى ، فرفض ذلك ، وقد رغب مني أن ابلغ الداي أنه لا يستطيع زيادة دولار واحد على ما سبق أن عرضه لعقد السلام .

قلت للسفير ان نتيجة هذا الموقف هي انارة غضب الداي الذي سوف يأمر بطرده من البلد ، وانني شخصيا سوف أجلد خمسمائة أو ستمائة جلدة من أجل الخدمات التي قدمتها له . فرد علي السفير قائلا :

– اذا طردت من البلد ، فسوف أغادره . وأما انت ، فاذا جلدت فسوف يكون عزاؤك انك تلقيت الجلد من أجل سعيك لخدمة وطنك .

وعند ذلك ، قلت له انه ما دام لايكترث بمصيري الى هذا الحد ، فعليك أن تبعث برفضك لمقترحات الداي مع سلاون أو كوهين بكري .

ولكن بكري وسلاون كلاهما رفض القيام بهذه المهمة وقال انه لن يستطيع حمل مثل هذا الرد الى الداي ، وقالا ان الداي حملني مقترحاته وأمرني بأن انقل اليه رد السفير عليها .

لقد جرحت كرامتي كثيرا ولكنني ادركت انني في الحقيقة مضطر الى نقل جواب السفير الى الداي . ولكي احرج دونالد صون الذي ابدا عنادا وتصلبا في وقت يتطلب اللين والحذق ، قلت له ان لدي من المال ما يكفي لدفع فديتي ولشراء حريتي ، ولكنه يمكنني أن اقبل فدية البرتغال لي ، اذا رايت من المناسب اعتناق قضيتهم ، واضفت انني سوف اعمل لكي يصبح هو في وضع يتلقى الجلدات التي تبدو له شيئا طفيفا ، وانه سوف يجد عزاءه في ذلك ، لان الجلد علاج نافع لداء النقرس !

أخذت جواب دونالد صون الى الداي الذي بدا في حالة فضيعة من الغضب ، وهددني بضربي خمسمائة جلدة اذا ما خطر لي ابدا ان احدثه في هذا الموضوع مرة اخرى ، كما أمرني أن اضع « السفير الاعرج » على نفس السفينة التي جاء فيها في صباح اليوم التالي وقت الفجر ، حيث انه لا يسمح بالمقام في بلده لاي شخص يتلاعب به ، كما فعل هو .

أدركت أن هذا ليس بالوقت الذي يسمح فيه بالرد على الداي ، واجلت القيام بأي اتصال آخر في الموضوع . ولما حل الصباح ابلغت رسالة الداي لدونالد صون ، وقلت له انه اذا اراد أن يتجنب الفضيحة فعليه أن يطيع أوامر الداي ، ورجوت له وقتا طيبا ورحلة ممتعة .

ترجاني كل من سكجولد براند وأوبراين أن أبقى معهم بعض الوقت ، فرفضت ذلك ، حتى بعث دونالد صون سلاون في اثري ليطلب الي الا اكون مستعجلا بهذه الصورة وأنه يريد أن يتحدث الي .

عدت الى مجلسهم ، وكان سكجولد براند في هذه الاثناء يحاول اقناع دونالد صون بعدم قطع المفاوضات من أجل بضعة آلاف من الدولارات ، وقد بين له أن الولايات المتحدة سوف تجني أضعاف هذا المبلغ في وقت قصير من التجارة في البحر الأبيض المتوسط بعد عقد معاهدة السلام مع الجزائر ، وأوضح له أن البرتغال لن تلبث ان تعقد معاهدة صلح مع الجزائر ، وبذلك سوف ينفتح مضيق جبل طارق أمام سفن القرصنة الجزائرية التي سوف تأسر عددا من السفن التجارية الامريكية وتستعبد عددا كبيرا من المواطنين الامريكيين ، وهذا معناه دفع مبالغ طائلة لفديتهم .

كان يبدو على موقف دونالد صون بعض اللين ، وقد أعرب عن دهشته لانه لم يجتمع بالقنصل الفرنسي منذ وصوله الى الجزائر . وقد اتفقنا جميعا على انه من الغريب حقا ان قنصل فرنسا لم يؤد للسفير الامريكي زيارة مجاملة ،

ولكنني اخبرته أنه لا يمكنه أن يتوقع منه منة او مساعدة ، حيث انه بادر بابلاغ الداي بانه يحمل تفويضا مطلقا لعقد معاهدة السلام • ولكن السفير أعرب عن شكه في هذا الامر •

أقسمت له بشرفي على صحة ما قلت ، ثم ناشدته أن يبعث بمن يستدعي القنصل الفرنسي ليتناول الشاي معه ان شاء ، ولكنه رفض هذا الاقتراح استنادا الى اعتبارات البروتوكول • وبعد ذلك حدثته عن سلوك فالبير وعن شخصيته وعن الحوادث التي حالت دون حصوله على أي نفوذ اطلاقا ، وانه لم يكن ليفيدنا في شيء حتى لو أراد أن يتدخل في صالحنا • وبعد ذلك ، قلنا له مجتمعين انه اذا أخذ فالبير أي دور في قضيتنا ، فنحن سوف ننسحب جميعا •

وبعد ذلك ، قلنا للمستر دونالد صون انه لم يضع فينا الثقة التي نستحقها ، وانه لم يخبرنا قط بمدى سلطته وصلاحياته في هذه المفاوضات •

قال سلاون ان الكلونيل هامفريز حدثه بانه اذا تجاوز دونالد صون تعليماته بشأن المبالغ المحددة بخمسين أو ستين ألف دولار ، فان ذلك أمر لا أهمية له ، بالنظر الى خطورة الهدف الذي نسعى لتحقيقه • وقلنا له جميعا اننا بوصفنا مواطنين أمريكيين لا تحدونا أية حوافز سوى المصلحة الوطنية ، فاننا لا نعتقد أنه يوجد مسوغ لقطع غالمفاوضات متى كان في وسعنا الحيلولة دون ذلك •

وبناء على هذه الاعتبارات كلها ، اقترحت ان نتقدم برجاء الى الداي لكي يسمح للمستر دونالد صون بالاقامة في الجزائر حتى يذهب سلاون للاجتماع بالكولونيل هامفريز للحصول على تعليمات جديدة في الموضوع •

صرح سكجولد براند بانه اذا لم يكن هناك بديل ، فان هذا الحل سيكون أفضل من قطع المفاوضات كلية • ولكنه لاحظ أن الداي سوف يزيد مطالبه في هذه الحالة بناء على افتراض ان الكولونيل هامفريز قد وسع نطاق سلطة دونالد صون وصلاحياته •

وأخيرا ، اعترف دونالد صون بانه لم يكن يتوقع أن يتصرف الداي بمثل هذه السرعة ، وان كاثكارت يتمتع بكل هذا النشاط والحيوية وانه سيكلف نفسه بكل هذا المجهود باخلاص كما هو مقتنع بانه يفعل ، ومضى فقال ان الحد الذي وضع ليتفاوض على أساسه ، هو 650000 دولار ، بما في ذلك جميع تكاليف سفارته ، وانه لن يستطيع الخروج عن هذا النطاق •

قلت له انه اذا ترك الأمر لي ، فسيضمن الحصول على معاهدة السلام وفدية الاسرى بمبلغ اقل من هذا المبلغ بما يتراوح بين خمسين وستين الف دولار ٠

اتفق الجميع على هذا الاقتراح وارسلت مع اليهودي بكري الى كاتب الدولة الأول للحصول على مساعدته باستعمال نفوذه بعدما وعدناه بهدية ملائمة ٠ على أن الداي لم يستشره في هذه المفاوضات ٠

وهكذا تقدمنا باقتراح ينص على مبلغ 585000 دولار ، ووضع الاقتراح في غلاف ختم بختم السفير لحمله الى الداي في الوقت ذاته الذي أمر فيه الداي دونالد صون بمغادرة الجزائر ٠ وكذلك وعد بكري وسلاون بمرافقتي ولكن كلا منهما التزم بعدم التدخل في الحديث اثناء المقابلة ٠ وهذا الشرط قبلته ، ولا سيما بعدما لاحظت أن المستر دونالد صون يسيء الظن بي وبالنفوذ الذي أمارسه ، وقد رأيت أن يكونا شاهدين على سلوكي ٠

وبعدما ضبطنا طريقة تقديمنا لمقترحات السفير ، رجوت السفير ان يامر خدمه أن يحزموا حقائبه ويحدث أثرا يدل على أنه يستعد للسفر في نفس الصباح ، وقد وعد سكجولد براند بان يوجه رسالة الى الباشاغا الذي كان الواسطة مع وكيل سفينة جمهورية راجوزا ، لكي يرجوه أن يصدر أمره لقبطان السفينة ليكون على استعداد للاقلاع بسفينته بعد لحظات من أخباره بوصول السفير للرحيل ٠

وبعد ذلك أرسلت بمن يخبر البوابين بان السفير سيرحل في هذا الصباح وعليهم أن يبعثوا بالحمالين لينقلوا أمتعته الى الميناء ٠ وبعد ذلك أرسلت الى السجن بمن يبلغ الأسرى الامريكيين أن السفير على استعداد لحمل رسائل من يريد أن يوجه منهم رسائل الى أمريكا ٠

والغرض من كل هذه الترتيبات هو أن يبلغ سمع الداي بطريقة غير مباشرة أن السفير دونالد صون في طريقه الى الابحار حتى تزول من ذهنه فكرة انه يحمل تفويضا غير محدود ، أو انه مطلق السلطة كما أوحى اليه بذلك قنصل فرنسا ٠ وهذه الترتيبات كان لها التاثير المرغوب فيه ٠

وعلى الساعة السابعة صباحا ، أخذت مقترحات دونالد صون الى الداي وفي رفقتي سلاون وبكري ٠

أبلغت الداي أن السفير الأمريكي على استعداد للرحيل وانه سيكون في الميناء قبل الساعة الثانية ، وانه قد تجاوز الحدود التي رسمتها تعليماته في اقتراحاته الأخيرة ، وانه اضاف كل ما يستطيعه من ثروته الشخصية ، وذلك رغبة منه في عدم قطع المفاوضات ، وأنه يضع تحت انظار الداي آخر مقترحاته ٠

قرأت المقترحات وعلق عليها بان المبلغ المضاف زهيد جدا ، وقال ان القنصل الفرنسي قد ارسل اليه ترجمانه مرة اخرى ليخبره مؤكدا أن السفير دونالد صون يحمل تفويضا غير محدود وسلطة مطلقة ٠ طلبت الى سلاون وبكري أن يسجلا تاكيدات الداي التي سبق أن دحضتها بطريقة خيل الي انها كانت مرضية للداي ، ولكنه في الوقت الحاضر لم يعد من الضروري الدخول في مناقشات اخرى ، بالنظر الى أن السفير سوف يستقل سفينته في ظرف ساعة واحدة من الان ، اذا رفض سعادة الداي مقترحاته ، وقلت أن هذا الرفض سيكون دليلا على وقوع الداي تحت تاثير أقوال القنصل الفرنسي وادعاءاته ، وان الحكومة الامريكية سوف تقدم احتجاجا في هذا الشأن الى الحكومة الفرنسية بواسطة سفيرها لدى ملك فرنسا ٠

أجاب الداي قائلا :

« لقد خفضت ثلثي المطالب التي وردت في مقترحاتي الاولى ٠ واذا لم يكن في استطاعته الاجابة لمطالبي الاخيرة ، يمكنه أن يبحر في أي وقت يشاء » ٠

وعند ذلك ، ذكرت سعادة الداي بوعده بان يسمح بفدية الأسرى الامريكيين باتفاق منفصل عن معاهدة السلام التي يبدو الآن أنه من غير الممكن الوصول اليها ٠

اصطنع الداي ثورة كبيرة من الغضب وتفوه بكلام كثير بعيد عن الهدف ، ولذلك لم نصل الى اية نتيجة ٠

قلت للداي انني شديد الحسرة لان أرى أن عرضنا الودي قد رفض ، ونحن بلد يقع على مسافة بعيدة من الجزائر بحيث تستغرق الاتصالات معه عاما كاملا ، واننا لم نحمل قط السلاح ضد أي بلد اسلامي ، ولكنه بعد الان سوف يتحتم علينا تسليح انفسنا للدفاع عن مصالحنا ضد أعدائنا الذين رفضوا صداقتنا ٠

وعند هذه النقطة من حديثي جذبني سلاون بشدة من كمي بقصد منعي من الاستمرار في الحديث قبل أن يهدأ غضب الداي .

وقد لاحظ الداي هذه الاشارة بردي عليها قائلا انني انما جئت الى هنا لاقول الحقيقة . فانا لقيت معاملة حسنة من الداي في غضون عدة أعوام واشعر أن من واجبي أن أحاول منع فرض القنصل الفرنسي آراءه عليه ، هو او غيره من اعدائنا الذين يلوذون وراء ستار الصداقة ليدسوا لنا عنده . ان الولايات المتحدة لن تسعى للسلم بعد الآن ولكنها سوف تعمل للتسليح للدفاع عن نفسها ، ولكن سعادة الداي وعد بان يسمح بفدية الاسرى الامريكيين وهو الامر الذي استدر الآن منه شفقته ورحمته . فنحن ، يا أفندي ، قد بقينا في هذا البلد اكثر من عشر سنوات ، ونحن نرجوك أن تطلق سراحنا الآن .

وعند هذا انحنيت لاقبل يد الداي ، وعلى عكس ما كنت أتوقع ، فقد مد يده الي ، وكان يبدو عليه الاستغراق في التفكير العميق . هل كان مقتنعا بان القنصل الفرنسي قد فرض عليه رأيه أم لا ؟ ذلك لم يكن في وسعي التكهن به . ولكن المؤكد هو أن منظره تغير كثيرا .

وبعدما أخذ نفسا من السعوط ، أبدى الداي رغبته في أن أعيد عليه قراءة المقترحات الامريكية من جديد ، سطرا فسطرا وبتأن ، فاعدت قراءتها طبقا لمشيئته ، وعندما قال انني أمليت هذه المقترحات على السفير ، لم أتمالك عن أن أقول له ، واذا كان الامر كذلك ، فسيلاحظ انني أخذت بعين الاعتبار مصالحه الخاصة ، حيث أن مبلغ 24000 دولار من مجموع المبلغ الاجمالي قد خصص لسعادته شخصيا ولعائلته ، وأن المجموع الذي هو 585000 دولار مبلغ كبير . وانه أكبر كثيرا من مبلغ 279 000 دولار الذي دفعته هولندا للحصول على معاهدة السلام ، وانه حتى بالقياس الى سوابق اخرى فان هذه الشروط أفيد للايالة ، فأجاب الداي ، ولكن في غير حدة :

_ « انك تعرف كيف تحتال وتخادع وتقنع . فلو رفضت الآن شروطكم وطردت سفيركم ، لكان ذلك مصدرا لكثير من الغبطة والسرور في قلوب أعدائكم ، وستصبحون نكتة يتندر بها قناصل الدول في الجزائر مدة طويلة . اذهب وقل لسفيركم انني قبلت شروطكم لكي أغيظ البريطانيين الذين هم ألد اعدائكم والذين لا ارتبط معهم بعلاقات ودية في الوقت الحاضر ، اكثر مما اقبلها من أجل المبلغ الذي تتضمنه ، وهو مبلغ زهيد اشبه ما يكون بنفس من السعوط » .

وفي هذه اللحظة بالذات ، استنشق الداي حسن نفسا من السعوط بعدما اخذ كمية بين اصبعيه من صندوق كان في يديه ، قبل أن يعطس السعوط الذي كان في أنفه ، ثم مضى في تصريحه قائلا :

ـ « ولكن تذكر جيدا أن امريكا ستدفع الضرائب السنوية في شكل عتاد وأجهزة بحرية تبدأ في شحنها بمجرد عودة السفير الى بلده ، مـــع الهدايا التقليدية التي يدفعها القناصل في كل سنتين ، وعلى نفس مستوى هدايا هولندا والسويد والدانمارك » ٠

وقد اجبنا الداي بان هذا بالضبط هو الذي فهمناه ، ثم قبلنا يد الـداي وأسهبنا في الثناء على شخصه وعلى حكمته ، وقد كان ثناؤنا يتسم باخـلاص اكثر من الثناء الذي يتلقاه عادة ٠

وبعد ذلك قصدنا الى السفير دونالد صون لنقدم اليه تقريرا عن مهمتنا ، ولما أبلغناه النتيجة صاح « اي » (ومعناها : والله ! » «أنه قبل العرض فـي نهاية الامر ؟ » ٠

نصحت السفير بان يحتفظ بروح خيبه الامل ، حتى يعود من زيارة قصر الداي ، فان بعض أعدائنا قد يضرون بنا عنده ، لانه على الرغم من موافقته على شروطنا ، فان معاهدة السلام لم توقع بعد ، ولن يكون لوعده مفعول الا بعد ما نرى علمنا يرفع ضمن أعلام الدول ويتلقى التحية ٠

كنا قد احتفظنا بالبوابين والحمالين في حالة انتظار كما لو كان السمير حقيقة في طريقه الى الميناء للابحار ٠

وعلى الساعة العاشرة صباحا كنا على استعداد لمرافقة السفير الى القصر لتاكيد الاتفاق مع الداي ٠

الفصـــل الثانـــي عشـــر

كان كوهين بكري الذي لم يتلفظ بكلمة واحد ةاثناء المفاوضات مع الداي ، هو الذي كلفه الاخير بان يحمل الى السفير قائمة بمطالب الداي من الاجهـــزة والعتاد البحري في نطاق المعاهدة ، وهي على غرار ما تقدمه حكومة السويد الى الجزائــر ٠

وهذه المطالب نصحنا جميعا ـ بما في ذلك سكجولد براند ـ السفير بان يرفضها ، بالنظر الى ان السويد لم تدفع اي مبلغ من المال للخزينة في مقابل معاهدة السلام ، ونظرا لاننا وعدنا بدفع مبلغ 100000 دولار نقدا ، فلا يمكن أن ندفع مرتين ، مرة بالعتاد واخرى بالمال العين.

واثر ذلك ، قصدت الى القصر برفقة بكري واجتمعت بالداي ، واوضحت له ما تنطوي عليه هذه المادة من المعاهدة ، وبعد مناقشات حامية ، وافــق الداي على خصم قيمة العتاد البحري ، وقد قام كاتبه التركي بهذه العمليـــة وخصم مبلغ 60000 دولار من المبلغ الاجمالي الذي هو 100000 دولار الــذي تدفعه الولايات المتحدة للخزينة سنويا ٠ وهكذا ، وبناء على مذكرة حررها الداي باللغة التركية ، فقد اصبحت الولايات المتحدة مدينة للخزينة بمبلغ 40000 دولار ٠

وهذ هالعملية وافق عليها السفير دونالد صون ، ولو انه اقتر حاستبدال مادة البارود التي وردت في قائمة العتاد بمادة اخرى ٠ وقد اشرت في هذا السياق أمام السفير الى أن هذه ساعة مهمة ودقيقة ، ولا يليق الدخول فيها في جدال حول التفاصيل الثانوية ، وقلت له انه متى رفع علمنا وتلقى التحية وقدمت هدايا السلام ، سآخذ على عاتقي اقناع الداي بتعديل هذه المادة من المعاهدة لاحلال بضاعة اخرى محل البارود ٠

وهكذا تم ترتيب كل شيء على الساعة الحادية عشرة صباحا ، واتخذ موكب السفير دونالد صون الرسمي طريقه الى قصر الداي ، وقد كان هذا الموكب يتكون من السفير وسلاون وبكري وانا شخصيا ٠

وفي مجلس الداي ، أكدت له بناء على طلب السفير ، باسم الولايـــات المتحدة قبولنا لجميع البنود التي تحتوي عليها المعاهدة المعقودة بين الجزائـــر والولايات المتحدة ، والتي ارسلت نسخة منها مع قائمة العتاد والبـــارود المؤرخة في 8 سبتمبر -1795, الى الكلونيل هامفريز في 11 من نفس الشهر ٠

وقبل ان يتحرك الموكب الى القصر ، اخذت علما من الحرير كان دونالد صون قد احضره معه وطويته حول خصري • وبعدما انتهينا من التصريحات الرسمية وتقديم تحيات المجاملة للداي ، أخذت العلم وقدمته له ، قائلا انه ما دام السلام قد استتب بين الجزائر والولايات المتحدة ، فانني آمل في ان تقدم التحية الى العلم الامريكي في أقرب وقت ممكن •

اجاب الداي على هذا المسعى بقوله :

ـ « يبدو انك مصمم على رفع علمكم اليوم بالذات ، والا لما احضرته معك الى القصر بهذه الصورة • أذهب وأمرهم برفعه في المناسبات الرسمية كما جرت التقاليد ، سوف لا أخيب أملكم » •

أعرب لي الداي عن رغبته في أن ابلغ السفير دونالد صون ان في استطاعته أن يخرج الاسرى من مواطنيه من السجن ومن أعمالهم في البحرية اذا شاء ذلك • ولكن الداي أضاف أنه يعتقد أنه من الافضل بقاءهم حيث هم مؤقتا ، وذلك لانهم اذا خرجوا سوف يشربون ويسكرون وقد يشتمون الاتراك ، وفي هذه الحالة سيضطر الى معاقبتهم مرغما ، أو قد يعتنق بعضهم الاسلام •

وقد اجاب دونالد صون بانه لا يرغب في اخراجهم من السجن ثم انه لا يكترث ان تحولوا كلهم الى عرب او مسلمين •

ترجمت كلام السفير ولكنني اهملت ترجمة الجملة الاخيرة للداي ، حيث تراءى لي انها لا تليق بسفير يرعى مصالح مواطنيه •

وبعد ذلك ، تلفظ الداي بعبارات الثناء على شخصي وقال موجها الحديث لدونالد صون انه يمكنه أن يشكرني لحصوله على معاهدة السلام بشروط معتدلة ، ورغب منه أن يكتب رسالة بشاني الى سفارتنا في لشبونة والى « ملكنا » (يقصد رئيس الجمهورية) • ولكن هذه العبارات احرجتني كثيرا فلم استطع ترجمتها للسفير ، ولذلك قبلت يد الداي وتركت مكاني لسلاون ليتولى الترجمة بينهما •

قصدت الى البحرية ولم أخرج من هناك حتى رفع العلم الامريكي مع اعلام بقية الدول ، وكذلك رفع العلم الامريكي بعدما انزل علم الهدنة الذي كانت تحمله سفينة المستر دونالد صون الذي حضر الى هناك • وكذلك اعلن المنادي العمومي

ان الجزائر دخلت في علاقات السلم مع الولايات المتحدة ، ثم اطلقت المدافع 21 طلقة تحية للعلم الأمريكي . وهكذا ، فبعد وصول المستر دونالد صون بحوالي ثمان واربعين ساعة اقمت دعائم السـلام بيـن الجزائـر والولايات المتحـدة الامريكية الامر الذي كان موضع استغراب الجميع فـي الجزائـر ، الاصدقـاء والاعداء على السواء . كان الشخص الذي عقد هذا السلام رجل اعرج ، لا يفهم لغة سوى لغته ولا يحمل معه مالا ولا رسائل تقديم غير أوراق اعتماده ، وهـو محاط بالاعداء الذين لا يفتر نشاطهم .

ومن البحرية اتجهت الى منزل السفير دونالد صون لكي اهنئه ، وهنـاك تناولت معه ومع سكجولد براند طعام الغداء (الذي امرت باحضاره الينا) . وبعد الغداء ، انهمك كوهين وداود بكري ، ابن اخيه ، في اعداد الهدايا ، وذلك على الرغم من ان اليوم كان يوم عيد ديني لليهود ، ولم يقصدوا الى البيعة الا في المساء – واليهود الجزائريون متمسكون بالمناسبات الدينية اكثر مـن اليهود في اي بلد آخر في العالم ، ولكن مصلحة اليهودي الجزائري تجعله ينسى الاهه ويجعله يتغاضى عن جميع الاعتبارات الانسانية والاهية معا .

وفي المساء طلب مني القبطان اوبراين ان احصل له على اذن الداي بان يرسله دونالد صون ليحمل نص المعاهدة ورسائل السفير الـى الكولونيل هامفريـــز .

يجب أن أعترف أن هذا الطلب كان امتحانا قاسيا لصبري ولحسن نيتي ، بل انه كان أصعب ما واجهته حتى ذلك الوقت . فقد كنت تعبت من حالة الذل والهوان التي كنت أعيشها مدة طويلة ، وكنت في الحقيقة أنوي أن اكون أنا نفسي حامل المعاهدة الى هامفريز ، اذا سمح لي الداي بذلك . وتبعا لذلك ، فقد ترددت مدة غير قصيرة قبل أن أرد عن هذا الطلب . وقد فهم القبطان اوبراين سبب الحرج الذي كنت أشعر به ، وكذلك ناشدني باسم الوطنية أن اقـوم بهذا المسعى ، وقال ان الوضعية التي كنت فيها تتيح لي فرصة لتقديم خدمة جوهرية لوطني ، ولا سيما وأن دونالد صون غير قادر على القيام بالمهمة التي كلف بها ، وانني اذا استقلت من منصبي عند الداي ، فسوف يعين في هـذا المنصب شخصا آخر قد يكون عدوا للولايات المتحدة . وقال لي اذا وقع حدث ليس في الحسبان في غير صالحنا ، فسوف أتعرض ، اذا استقلت من منصبي، لكثير من النقد بوصفي مواطنا امريكيا . وزيادة على ذلك ، فان الداي قـد وعدني بان يستعمل نفوذه في صالحنا مع باي تونس لعقد معاهدة السلام معه، واذا استقلت من منصبي فانه من المرجع أن يتناسى هذ الوعد ، وان التضحية المطلوبة مني سوف تعزز شرفي الى الابد .

وكذلك صرح كل من اوبراين وسكجولد براند بانهما سوف يقدمان تقارير عن سلوكي الى هامفريز والى الحكومة الفيدرالية بصوره أتلقى معهـا الثنـاء والتقدير ٠

وهكذا ، وبناء على احساسي بواجبي الوطني وتقديرا لروابط الصداقـة التي كانت تربط بيني وبين القبطان أو براين خلال مدة عشر سنوات من الاسر ، وافقت ، ولكن ليس بدون احجام ، على طلبه ٠

وفي يوم الاحد 6 سبتمبر ، رافقت المستر دونالد صون الى قصر الداي لتقديم الهدايا الامريكية بمناسبة عقد معاهدة السلام ، وكثير من هذه الهدايا اشتريت من الداي نفسه ، ولا سيما ، البضائع التي تقدم للضباط من الدرجة الثالثة والرابعة ، وتتكون هذه الهدايا من الاحجار الكريمة والخواتم التي اعيدت اليه ، وكان الداي قد تلقاها هدايا حينما كان يشغل منصب الخازندار ومنصب فيكيلهارش البحرية ، ولم يعد في حاجة اليها ، فباعها في مقابل النقود ليتخلص منها ٠ وكان المشترون هم التجار اليهود الذين أعادوا بيعها لنا بسـعرهم الذي حققوا به ارباحا مضاعفة لحسابهم الخاص ٠

استغرقت مقابلة الداي نحو عشرين دقيقة ٠ قال الداي انه أصبح الآن رجلا متقدما في السن ، واوصى بالسرعة في البت في الامـر ، وقـد وعـده دونالد صون بانه سوف يعمل باقصى ما يمكن من السرعة ٠

عاد دونالد صون الى منزله ، ولم يلبث ان تلقى هدية من الداي ، وهـي عبارة عن عبد الماني شاب ، اسمه جوزيف كونينـج ٠ وهذا الشاب هو نفسه الذي فتح نافذة شرفته حينما توجه اليه سيدي علي ليبلغه وفاة سلفه الداي محمـد ٠

وبالاضافة الى هذا العبد ، اشتملت هدية الداي على حصان بربري جميل٠

قلت للسفير ان العادة جرت هنا باظهار الاحترام للداي في مثل هذه المناسبة ، وذلك باعطاء رسوله هدية جميلة ٠ فقال لي : « اعطه دولارا واحدا ، فانا لا املك قطع النقد الصغيرة » ٠

قلت له انه يجب عليه أن يقدم مبلغ عشـرين دولار على الاقل ، ولو ان ذلك غير كاف ، فقدمت من جيبي الخاص للرسول 10 سكينات ٠ وهذا المبلـغ رفض دونالد صون ان يسدده له ، قائلا انما طلب الي ان امنح رسول الداي دولارا واحدا ٠ وقد عرض أن يسدد لي دولارا ، ورفضت ذلك بكل احتقار ٠

تبينت ان نفس اوبراين تنطوي على كثير من الخصائص التي يتميز بها اليهود ، ولكن هذا الحقيقة لم اكن اعرفها في ذلك الوقت .

فقد حمل سكجولد براند على ان يبعث بترجمان القنصلية السويدية ومعه كوهين بكري الى الداي ليحصلا له على اذن بالسفر ليحمل المعاهدة والرسائل المشار اليها سابقا ، ولكن الداي رفض ان يمنح هذا الاذن للقبطان اوبراين ، قائلا ان سلاون حر (وأوبراين لا يزال عبدا) ويمكن لدونالد صون ان يوجه الاول في هذه المهمة .

وفي المساء ، تقدمت الى الداي بطلب الاذن لاوبراين بان يسافر في المهمة المذكورة ، وحاولت اغراءه قائلا انه سيكون من المفيد جدا وجود شخص في عين المكان يعرف نوع الأجهزة والعتاد الذي تحتاج اليه الجزائر ، وفي الحال منح لي الاذن المطلوب بدون تردد ، ولكنني لم أخبر أوبراين بذلك وتركته معلقا مدة من الوقت عقابا له على قلة ثقته ونفاقه . ونظرا لانه كان يفترض انني أرغب في حمل المعاهدة شخصيا ، حاول أن يتجاوزني مستعينا بقنصل السويد واليهود .

وكذلك حصلت على أربعة جوازات من الداي للسفن الامريكية لحماية أكبر عدد ممكن منها من غائلة قراصنة بلدان المغرب كلها ، بما في ذلك المغرب الاقصى(1) لمدة سنة واحدة .

نظرا لان المستر دونالد صون لم يقم بزيارة مجاملة لوزراء الداي عقب عقد المعاهدة بسبب كونه أعرج ، فقد قمت أنا بزيارتهم باسمه وقدمت لكل واحد منهم هديته . ولكنني لم أجد الا عددا صغيرا منهم في منازلهم .

ومن جهة اخرى ، وعدني الداي بان يعدل المادة التي تتعلق بالبارود في المعاهدة (500 برميل) ويقبل بضائع اخرى غير البارود ، كما طلب مني ذلك

---

(1) هذا النص لا يمكن فهمه الا اذا اعتبرنا ان كاثكارت الذي ظل مدة عشر سنوات في الاسر كان يجهل التطورات التي وقعت في سياسة بلده في المغرب ، حيث ان الولايات المتحدة كانت ترتبط بمعاهدة مع المغرب عقدت في سنة 1788 ، وتتمتع السفن الامريكية بموجبها بالحماية من القرصنة . وفي هذه الحالة يجب ان نفترض ايضا ان الداي حسن كان جاهلا بأمر هذه المعاهدة . ونحن على اي حال نتشكك في هذا التقرير ، وذلك لانه اذا كان للداي في تلك الاوقات نفوذ على ايالتي تونس وطرابلس ، وكلتاهما تابعة لتركيا ، فان سياسة سلاطين المغرب كانت مستقلة تماما عن الجزائر وعن تركيا في شئون القرصنة وغيرها .

راجع المعاهدة المغربية الاميركية في " العلاقات الديبلوماسية بين دول المغرب وامريكا " . طبع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ص٥٧ وما يليها .

المستر دونالد صون · ولكنني اعتقد أن هذه الصفقة لم تكن في مصلحتنا حيث أن تكاليف شحن البضائع الاخرى ستكون أكبر ·

وفي 7 سبتمبر ، رغب مني الداي أن اكتب مذكرة اضافية الى السفير الامريكي يقرر فيها انه يجب أن يكون العتاد والاجهزة البحرية التي سترسل الى الجزائر من أرفع الانواع ·

وفي هذا اليوم أيضا قدمنا كمية كبيرة من الهدايا لاصحابها · وبعد ظهر اليوم تلقيت النص التركي للمعاهدة ، قدمه كاتب الدولة ، ومعه الترجمة الانجليزية التي كتبتها أنا وقرأتها على الداي فيحينه ، وهي متوازية مع الاصل الذي يتكون من 23 مادة ، ومعها الجوازات الاربعة للسفن التي سبق ذكرها ·

وجه الداي هدية ضئيلة القيمة للمستر دونالد صون · وفي مساء هذا اليوم ، كانت لا تزال لدي بعض الأعمال مع الداي ، فاغتنمت الفرصة لكي اذكره بوعده بان يستعمل نفوذه لدى باي تونس وباشا طرابلس ، وقال لي انه سوف يبعث رسولا برسائل الى تونس لاعداد الباي لاستقبال مبعوث أمريكي ، وانه عندما تعود السفينة التي تحمل المعاهدة الى هامفريز في لشبونه ، سيكون رسوله قد عاد من تونس ومعه رد الباي ، ثم أكد لي انه سوف يستخدم نفوذه لدى تونس وطرابلس بحيث يضمن لنا شروطا في صالحنا لعقد السلام مع الايالتين ، شكرت الداي لحسن ارادته واكدت له أن حكومة الولايات المتحدة سوف تقدر صنيعه حق قدره ·

يوم الثلاثاء 8 سبتمبر . مكاتب القصر لا تمارس العمل في يوم الثلاثاء . تلقى المستر دونالد صون اليوم هدية من سيدي حمودة ، أحد اقارب الداي · وقد قضينا بقية اليوم في تسليم الهدايا لاصحابها ، وانتهينا من هذه العملية في اليوم التالي ·

يوم الاربعاء 9 سبتمبر · كنت اليوم منهمكا مع وزير الدولة لاعداد النسخة التي سترسل الى هامفريز من المعاهدة ، وأما المستر دونالد صون ، فقد كان منهمكا في كتابة الرسائل التي سترافقها ·

وفي هذه الاثناء ، قام سكجولد براند باستئجار سفينة شراعية ذات صاريتين من صاحبها ، السنيور « جيليرمو فرنسا » لتنقل القبطان اوبراين مباشرة الى لشبونة حاملا نص المعاهدة ورسائل دونالد صون ، على انه بعد

توقيع اتفاق في هذا الشان نشب نزاع بشان المدفوعات الاضافية التي تدفـــع للربان والبحارة ، حيث قال دونالد صون انه لم يفهم ان الاتفاق يشتمل على تلك المدفوعات ، ولذلك الغي الاتفاق كلية ، وقام القبطان اوبراين باستئجار قارب اسباني ينقله مباشرة الى مالقة ، ومن هناك سيتجه الى لشبونة . وهكذا ، فان ايجار هذا القارب يمثل زيادة أربعة أضعاف المبلغ الاضافي الذي رفض دونالد صون دفعه لصاحب السفينة الاولى ، وذلك بالاضافة الى المخاطرة بضياع المعاهدة والرسائل بسبب الرحلة المزدوجة التي يقوم بها في البحر والبر ، ولكن وبراين وصل سالما بالمعاهدة في نهاية الامر .

يوم الخميس 10 سبتمبر ، انتهى دونالد صون من تحرير رسائله . وقد ارسل الداي ياتجانا أنيقا غمده من الذهب مع وشاح من الحرير الصافـــي مطرز بالذهب هدية الى الكلونيل هامفريز ، كرمز لتقديره له .

يوم الجمعة 11 سبتمبر على الساعة العاشرة صباحا ، قدمت القبطان أوبراين بناء على طلبه الى الداي . هذه هي المرة الاولى التي يرى القبطان فيها القصر منذ أسره ، أي منذ حوالي عشر سنوات . وهذه هي المرة الاولى التي تحدث فيها الى الداي . (والقارىء سيدرك فيما بعد السبب الذي اسجل من أجله هذه الملاحظة بعناية) ، وقد قبل القبطان اوبراين يد الداي ورجله (لم ترقني هذه المبالغة في اهانة نفسه) ، قال له الداي انه رجل تقدمت السن وانه يوصيه بالاستعجال في البت في الامور لانه اذا مات ، فان خلفه لن يحمل عواطف الصداقة التي يحملها هو لامريكا ، ولربما خطر له أن ينقض كل ما ابرمه هو مع الولايات المتحدة ، اذا لم تكن القضية منتهية .

وقد وعده أوبراين بكل اخلاص ان يقوم بكل ما في استطاعته من المجهود بحيث يتم التصديق على المعاهدة وتصبح نافذة المفعول بسرعة ، ثم استأذن وانصرف .

ارسل الداي الى القبطان اوبراين عن طريقي بعشرين دولارا لكي يشتري بها الزاد الضروري لرحلته البحرية .

سألني القبطان أوبراين أن اقدم له خدمة شخصية وأعرض عليه شريطا دقيقا بتطورات المفاوضات ملخصا للمفاوضات ، ففعلت ذلك . وعند الزوال وصلتني رسائل المستر دونالد صون . وبعد ذلك رافقته الى منزل القنصل سكجولد براند الذي قد ماليه هدية وهي عبارة عن ياتجان تعبيرا عن تقديره له . ومن هناك قصد الى البحرية في رفقة سكجولد براند وبوجمان وسلاون وكوهين بكري واسرته وأنا معهم .

وعقب ذلك صعدت معه الى ظهر السفينة ، ولكنني لم أجد الربان فيها . وبعدما رجوت قبطان الميناء ان يغير اتجاه السفينة بحيث تصبح في مهب الرياح ، قصدت الى منزل قنصل اسبانيا لابحث عن الربان الاسباني ليسارع الى سفينته . وهناك تبادلت اطراف الحديث في عجلة مع قنصل اسبانيا .

وعلى الساعة الثانية بعد الزوال صعد الربان الى سفينته ونشر اشرعتها التي تتلقى الرياح الشرقية ، وصعد على متنها القبطان أوبراين بعدما قضى عشر سنوات وشهر واثني عشر يوما في قيد العبودية .

قصدت الى منزل دونالد صون حيث تناولنا طعام الغداء معا ، وقد اتفقنا على أن قضيتنا قد سويت الآن ، وأنه لا ينبغي ادخال اية تعديلات على الموقف، قبل أن يصلنا رد الكلونيل هامفريز ، الذي وجونا الا يتأخر لغير ضرورة . فاذا وصل مال المعاهدة ، أو على الاقل ، مال الفدية ، فان الداي سوف يطلق سراح الاسرى .

لو كانت لدي السلطة الكافية لجمعت المال الضروري للفدية هنا بكامبيالات محولة الى لندن ومرسيليا ولوغورن ، ولكن المستر دونالد صون لا يوحي بالثقة الكافية التي تدفعني الى تحمل اية مخاطر اخرى ، وهو يبدو عليه كثير من الجحود للمخاطر التي تحملتها قبل وصوله وبعد ذلك . والواقع أنه رجل حسود وسيء الظن وليس لديه من السمو الروحي ما يجعله يفهم أن يكون في امكان شخص أن يخاطربحياته دون أن تكون لديه دوافع اخرى سو ىحبه لوطنه والرغبة في الاستجابة لدواعي ضميره .

قد مدت للقبطان أوبراين مبلغ 10 دوبلون اسبانية (وهو ما يساو 160 دولار) من جيبي الخاص ليواجه بها نفقات رحلته وليشتري لنفسه كسوة لائقة وهدية للكلونيل هامفريز .

هنا ينتهي سردي للاحداث التي تخللت المفاوضات مع الجزائر ، تلك المفاوضات التي توجت بالمعاهدة الاولى بين ايالة الجزائر والولايات المتحدة ، ولكنه بقي الآن ان تدخل تلك المعاهدة في حيز التنفيذ ، وهو عمل سوف يواجه صعوبات غير قليلة .

الفصـــل الثالث عشـــر

اقدم فيما يلي صورة خلفية لعلاقات الولايات المتحدة بكل من فرنسا واسبانيا وبريطانيا العظمى خلال الفترة بين 1793 1796. تلك العلاقات التي ساحاول على ضوئها تفسير سلوك تلك الدول تجاه سياستنا مع دول المغرب .

عرضت في فصل سابق نوع العلاقات التي كانت تربط الدول الأوروبية ، وخصوصا ، فرنسا ، واسبانيا ، وبريطانيا العظمى ، بايالة الجزائر منذ انعقاد الصلح في سنة 1783 حتى الوقت الحاضر . ومن تلك الملاحظات التي سجلتها يمكن استخلاص الدوافع التي حملت تلك الدول على مقاومة مصالحنا في دول المغرب ، وفي الجزائر بصفة خاصة .

لقد جرت محاولات عديدة قام بها وكلاء يدعون انهم منتدبون من قبل الولايات المتحدة لاجراء محادثات للسلام ولتحرير الاسرى الامريكيين ، وهي محاولات لم تعرها حكومتنا أي اهتمام ، ولكنها احدثت انطباعات في اذهان الداي والوزراء الجزائريين كانت اشد ما تكون ضررا بقضيتنا ، كما كان من الصعب محوها .

وهذه الانطباعات ، مضافا اليها نفوذ الدول التي تتعارض مصالحها التجارية مع مصالحنا ، من شانها أن تجعل من المستحيل التوصل الى عقد معاهدة السلام مع الجزائر على أساس أية شروط ممكنة بالنسبة الينا لمدة سنوات اخرى ، وبالتالي ، فان جميع الاسرى الامريكيين الموجودين هنا كانوا سيبقون في قيد العبودية ويموتون في الجزائر . وأما تجارتنا ، فكان من المحتم أن تبقى تحت رحمة بريطانيا التي كان نفوذها قويا على البرتغال الى درجة كان يمكنها معها أن توقع من جديد كارثه مثل كارثة سنة 1723 (أسر عشر سفن امريكية) متى تراءى لها ذلك . ونحن نعرف جيدا سياسة هذا البلد بحيث لا يساورنا أي وهم في ان تمتنع عن استغلال كل فرصة مواتية لكي تضايقنا دون أن تخاطر بشيء يذكر أو يكلفها ذلك الا ثمنا زهيدا . وسلوك بريطانيا كله منذ معاهدة السلام التي عقدت في سنة 1783 ، حتى المعاهدة البغيضة التي عقدت بمساعيها وتحت ضمانها في سنة 1793 بين الجزائر والبرتغال، ينطوي على دلائل واضحة لا تقبل النقاش .

ولولا أن شخصا كرس كل جهوده لخدمة مصالح الولايات المتحدة منذ سنة 1787 (سنتان بعد أسره) حتى سنة 1795 (تاريخ أول معاهدة امريكية مع الجزائر) ثم حظي بعد ذلك بثقة الداي ورئيس الدولة الجزائرية ـ لولا أن هذا الشخص (يقصد المؤلف نفسه) قد تمكن من ازالة العقبات التي تعترض طريق

التفاهم الجزائري الامريكي ، لما كان هناك بديل امام الولايات المتحدة سوى ان تتخلى عن التجارة بواسطة سفن غير مسلحة ، أو تقوم ببناء اسطول حربي للدفاع عنها · وكلا الامرين لم تكن تسمح به علاقاتنا ببريطانيا وفرنسا ولا امكانياتنا المالية في ذلك الوقت ·

عندما ظهرت المبادرات الاولى للمفاوضات التي انتهت بعقد معاهدة السلام ، باعلان وصول الكلونيل هامفريز الى اليقانت مزودا بالسلطة للدخول في مفاوضات مع الجزائر ، بعد وقت قصير من اعتقال الجزائريين لعشر سفن أمريكية وأسرهم أكثر من مائة من مواطنينا (في نوفمبر 1793) ، أعلن الداي رفضه لاستقبال السفير الامريكي بدافع من الجشع اثر نجاح اسطوله ، ونتيجة لتوقعه الدخول في علاقات سلام مفيدة له مع البرتغال · وهذه العلاقة الجديدة كان من شأنها ن تضع تجارتنا تحت رحمة قراصنته · واذا لم يمكنه عقد السلام مع البرتغال ، فهو على الاقل يستطيع الوصول الى هدنة بفضل نفوذ بريطانيا مع البرتغال تضمن له الاستيلاء على عدد من سفننا وأسر مواطنينا ·

وبعدما خابت آماله هذه بوقت قصير أعلن الحرب على هولندا ، تلك الحرب التي استمرت حتى سنة 1794 ، حينما رضي بعقد معاهدة مفيدة له زادت من جشعه في نفس السة ·

وفي شهر اكتوبر من السنة التالية منح اذنا للكلونيل هامفريز بالقدوم الى الجزائر للتفاوض حول شروط اقامة دعائم السلام · ولكنه بعدما تلقى الاذن مباشرة ، سافر الى الولايات المتحدة · ولما علم الداي في شهر ديسمبر التالي بهذا الرحيل ، استنتج أن الولايات تعبث وتتلاعب به ، تماما كما كانت تلاعبت بسلفه بواسطة جون لامب في سنة 1786 ، وغير جون لامب من الوسطاء ·

وبعد ذلك ، سمح المنصب الذي كنت اشغله بجانب الداي بتبديد هذا الانطباع ، بل وتغيير شعور الداي بحيث أحسن استقبال سفيرنا لدى وصوله الى الجزائر · وكذلك كانت الفكرة التي أقنعت بها الداي بحسن ارادة الولايات المتحدة تجاه الجزائر هي التي عرضها ، أو بعبارة أدق ، فرضها على الديوان في فاتح يوليو 1795 · فانه لم يكن قد خطر على بال الداي حسن أن اجراء السلام مع الولايات المتحدةسوف يحبذه الشعب ، قبل أن أوعز اليه بذلك ·

وكذلك قمت باعداد اذهان بعض الوزراء بحيث اصبح رايهم يتفق مع رايه .
وكان ذلك يبدو كما لو كان بمحض الصدفة ، كما كان موقف الداي الجديد يبدو اختيارا سياسيا شخصيا .

وقبل قراره بفرض ارادته على الديوان ، كان ملاك سفن القرصنة والساسة الذين يساندون مصالحهم ، والجنود والضباط الذين يعملون في الاسطول ، كانوا يتهامسون بالقول بان السلام مع البرتغال التي تطالب به بواسطة وكلاءها بالحاح أفيد للايالة من السلم مع الولايات المتحدة التي لم تكن تملك سفينة حربية واحدة يمكنها ان تقف في وجه اسطولهم . وكانوا يقولون ان انفتاح المحيط الاطلسي (بعد السلام مع البرتغال) كله امام القراصنة للمطاردة ، سوف يضمن للايالة دخلا كبيرا من بيع الغنائم من السفن ومن فدية الاسرى الامريكيين والبروسيين وغيرهم من رعايا البلدان التي تقع على تلك الشواطيء والتي توجد حالة حرب بننها وبين الجزائر التي لا تملك أساطيل حربية تحمي سفنها التجارية .

ولمحاربة هذا الرأي ، راح الداي يؤكد أن الاجهزة البحرية والعتاد الحربي الذي ستتلقاه الايالة من الولايات المتحدة ، سوف يضمن استقلالها التام واستغناءها عن الدول الشمالية (الدانمارك والسويد وهولندا) فيما يتعلق بهذه الامور ، وبالتالي ، فلن يوجد هناك دافع للابقاء على علاقات السلام معها مدة أطول مما تقتضيه خدمة مصالح الايالة . وفي هذه الحالة يمكن اعلان الحرب عن واحدة أو أخرى من هذه الدول ، بالتداول ، وهو أمر من شانه أن يعود بغنائم وأموال أكبر من مواصلة الحرب مع الولايات المتحدة الامريكية التي زعم أنها سوف تعمد الى بناء أسطول حربي ليقوم بمهمة حماية سفنها التجارية ، اذا رفضت مبادراتها لاقامة دعائم السلام . وتقول الحجج التي يستند عليها الداي أيضا ، ان الدول الشمالية قد تعودت على دفع الضرائب للجزائر ، ولم تكن ترى في دفعها أمرا مهينا واجراء يمس كرامتها ، بالنظر الى أن الغرف التجارية في هذه الدول هي التي تتولى دفع تلك الضرائب وليست خزينة الدولة ، بحيث تبدو لها الضريبة ثمنا لامتيازات تتمتع بها تجارتها في البحر ، وليس اتاوة مفروضة على الامة . واما الامريكيون ، فهم ينحدرون من أصل انجليزي وتشبه عاداتهم وتقاليدهم وطرق تفكيرهم مثيلاتها عند الانجليز . وهذه الاعتبارات تجعله (الداي) يتخوف من أن يؤدي تضييع الفرصة لاضافة دولة مسيحية اخرى ، دولة العالم الجديد ، الى قائمة الدول التي تدفع الضرائب للجزائر ، الى فقد الشرف والدخل معا ، ولا سيما وانه علم من مصدر حسن الاطلاع ، أن الاموال التي تنفق من أجل تنفيذ المعاهدات

ولغير ذلك مما يتصل بالاتفاقيات انما تدفع من الحكومة العمومية ومن الميزانية التي هي ملك للامة ، وذلك بعدما يصدق عليها الديوان (البرلمان) الذي يمثل الامة كلها ، وحتى ملكهم (رئيس الجمهورية) لا يملك حق انفاق فلس واحد دون أن يحصل أولا ،على موافقة الديوان على السبل التي يصرف فيها ٠

لقد مكنني منصبي المزدوج ، بوصفي رئيس الموظفين المسيحيين في الايالة كلها ومديرا لمكتب الداي ، من تلقين الداي هذه الافكار والعواطف مدة طويلة قبل وصول أي مبعوث أمريكي معتمد الى الجزائر ، وكذلك كنت السبب الحقيقي والمباشر في تخفيض الدا يتخفيضا معتبرا لتكاليف معاهدة السلام ، بحيث لم يكن المبلغ الذي تم الاتفاق عليه في نهاية الامر يتجاوز ربع ما طالب به في بداية المفاوضات ٠ وكذلك قمت بدور كبير في كبح جماح غضب الداي الذي سببه حجز المال المتفق عليه لتنفيذ المعاهدة الجزائرية الامريكية بعد المصادقة علياه ، وهو عمل مشين لنا لا يوجد ما يسوغه ٠ وهذه القضية هي التي بعثني الداي لمحاولة حلها في سفينة خاصة من نوع « البولكا » توليت قيادتهـا بنفسي بمساعدة ملاحين من العرب ، أحمل معي رسالة منه الى رئيس الولايات المتحدة ، في شهر مايو 1796 ، وكذلك حملت معي رسائل من بارلو (Barlow) الى اليقانت ولشبونه والولايات المتحدة ، وقد كان من نتائج هذه الرحلة انقاذ السلام بين البلدين ٠

فقد مرت ثمانية أشهر منذ توقيع معاهدة السلام دون أن تقوم الولايات المتحدة بتنفيذ بند واحد من بنودها ، سواء في ذلك ما يتعلق بدفع المال العين، أو العتاد والاجهزة البحرية المستحقة للجزائر ٠

وصل المستر بارلو ، ممثل الحكومة الامريكية الى الجزائر قبل رحيلي في هذه المهمة بشهرين ٠ وبعد شهر واحد من وصوله ، اضطر الى التضحية ببارجة حربية مسلحة بستة وثلاثين مدفعا قدمها للداي لترضيته وللحصول على مهلة ثلاثة اشهر اخرى في انتظار وصول المال المستحق له ٠ وقد اتخذ بارلو قراره بالتضحية بالبارجة على الرغم من انني تمكنت من الحصول على مهلة من الداي لمدة ستة اشهر في مقابل مبلغ 20 000 « سكوين » اضافي ، كما عرضت على بارلو ان احصل له على هذا المبلغ ليدفعه نقدا في الحال وذلك بفائدة 2% شهريا ٠

ولكن بارلو راى من الافضل ان يعد الداي بارجة قدر هو قيمتها بمبلغ 45000 دولار ، والتي اكدت له ان قيمتها تزيد عن 100000 دولار ٠

وعندما اتخذ بارلو هذا الاجراء اعتمد اساسا على نصيحة يهودي خدعه ، كما اعترف بذلك هو نفسه في فترة لاحقة ٠

ولكنه حينما وجهني الداي في مهمة الى الولايات المتحدة ، اتاح لنا مهلة تسعة اشهر ، وهي فترة كافية لكي نقوم بتنفيذ تعهدنا • وهذه المهلة لم تكلف الولايات المتحدة فلسا واحدا • وزيادة على ذلك ، فان الحكومة الامريكية لم تسدد لي نفقات هذه الرحلة الا جزئيا ، وبعد القيام بها بعدة سنوات •

عندما وصل دونالد صون الى اليقانت في شهر اغسطس 1795 ، بلغ غضب الداي أقصى حده بسبب ما اعتبره اهمالا من الولايات المتحدة ، ومع ذلك، فقد تمكنت من ازالة كل انطباع في نفسه من شانه أن يحمله على اساءة استقباله ، بل وأكثر من ذلك ، فقد بعثت اليه بجواز سفر جزائري وحصلت له على اذن من الداي بان تحمل السفينة التي تقله علم الهدنة الذي يتمتع برفعه بالحصانة • فهذه الاجراءات كان الداي يعتبرها منة كبيرة وامتيازا لا يوجد له مثيل في تاريخ معاملة الجزائر للدول •

وبعد وصول دونالد صون الى الجزائر مكنته من الحصول على معاهدة للسلام في ظرف أقل من ثمان وأربعين ساعة • لقد تم تحرير نصوص المعاهدة بدون أن يناقش كلمة واحدة منها بل ودون ان يراها ويطلع عليها قبل ان تقدم اليه جاهزة لحمل توقيعه ، كما جرت المفاوضات بشانها دون أن يكون له أي دور فيها سوى الرفض أو القبول •

كان الداي قد جدد معاهدات السلام بين الجزائر والسويد وهولندا قبل وصول دونالد صون الى الجزائر ، وتلقى من هاتين الدولتين منحا وهدايا معتبرة ثمنا للسلام ، بل واخذ عدة سفن من هولندا ، الامر الذي زاد من جشعه• وهذا الاعتبار يسوغ في حدود معينة ، توقعه ان تكون ترضياتنا متناسبة مع أهمية معاهدة السلام بالنسبة الينا •

ونظرا لان الداي يحتفظ باكثر من 100 أسير امريكي ، فقد حمله قنصل بريطانيا على الاعتقاد بأن امريكا سوف تفديهم بأي ثمن يحدده هو ، وقد كان يرى أنه في وضع ممتاز يسمح بفرض تكاليف باهضة ثمنا للمعاهدة ولا يسع أمريكا رفض مطالبه •

كانت الدانمارك والبندقية تخشيان اعلان الجزائر الحرب عليهما اذا وقعت معاهدة مع الولايات المتحدة ، ولذلك فقد كانت كل واحدة منهما تعارض مساعينا •

واما بلاط السويد ، فعلى الرغم من انه كان يميل الينا ويحمل شعورا وديا نحونا ، فقد رفض كل وساطة في صالحنا ٠

وفي هذه الاثناء ، كلف كل من قنصل اسبانيا وقنصل بريطانيا والاب مدير المستشفى الاسباني والدون جوان كاريجو ، احد كبار التجار الاسبان في الجزائر ـ كلفوا من قبل البلاط البرتغالي بالسعي لحصول البرتغال على معاهدة مع الجزائر على اساس شروط معقولة ، ومنحوا السلطة ليعرضوا مبلغ 100000 دولار اكثر من المبلغ الذي ترضى الولايات المتحدة بدفعه ، حتى تحصل على معاهدة دوننا نحن ٠

وقد فاتحني هؤلاء السادة في الامر ، وعرضوا علي من المال ما هو كفيل بان يضمن استقلالي المادي مدى الحياة ، ولكنني رفضت هذه العروض بكل ازدراء ٠

وكذلك ابلغ قنصل فرنسا الداي بانه يستطيع أن يتذرع بالصبر في المفاوضات ، لان دونالد صون يملك سلطة تسمح له بدفع مبالغ غير محدودة في مقابل معاهدة السلام ٠

كانت سياسة الحكومة الامريكية تقوم على الاعتماد على وساطة فرنسا لصالحنا في بلدان المغرب ، ولكنه لو كان في نية هذا البلد أن يقوم بالتزاماته التي تنص عليها المادة 8 من المعاهدة الامريكية الفرنسية التي عقدت في السادس من شهر فبراير 1778 ، لوجدت اكثر من فرصة ملائمة خلال الفترة التي تمتد بين معاهدة الصلح في سنة 1783 ،وحادث اسر سفننا العشر في سنة 1785 ٠ ولكن الحقيقة التي لا ريب فيها هي ان فرنسا لم تكن قط تضمر نية تقديم اية خدمة لنا من اي نوع كان ٠ واما الآن ، ومنذ عقد « جون جاي » (Joh Jay) معاهدة 19 نوفمبر 1794 مع بريطانيا ، فقد اصبحت العلاقات الامريكية الفرنسية على اسوا ما تكون ، الامر الذي يحول دون استخدام ذلك البلد لنفوذه في صالحنا في الجزائر (ونفوذ فرنسا في تلك الفترة ، على كل حال ، كان اضعف ما يمكن) ، وذلك لو فرضنا ان فرنسا لا تستطيع انتعمل ضد مصالحنا ٠

وفيما يتعلق بالوعود التي قطعتها فرنسا وبتعهداتها بان تقدم لنا يد المساعدة (والراي السائد في بعض الدوائر باننا مدينون لفرنسا بممارسة نفوذها في صالحنا اثناء المفاوضات لعقد معاهدات مع دول المغرب) فانني على

استعداد لاثبت بصورة قطعية عكس ذلك ، وانها استخدمت النفوذ القليل الذي كان لها في المغرب لتقاوم مصالحنا ، وان حالة العلاقات بين البلدين في ذلك الوقت كانت على درجة من السوء بحيث لم يكن يسع فرنسا ان تسلك سلوكا غير ذلك وتحتفظ بدرجة من الاحترام لنفسها .

كان الاميرال موريس (Morris)، قد كلف بمهمة لدى الحكومة الفرنسية بان يسعى للحصول على وساطة فرنسا في صالحنا لاجراء مفاوضات مع دول المغرب ، وقد فوض المسيو « شانموط » (Chanmout) لهذه الغاية ، ولربما كانت جهود المسيو شانموط الذي كان يعيش في سويسرا ولم يقترب قط اكثر من ذلك من الجزائر ، هي التي اسفرت عن المحاولات المتواضعة التي قام بها مسيو « باريط » (Parrett) ، والتي لم تسفر على شيء اكثر من غرس اقوى شعور الاحتقار لنا بوصفنا امة في نفس الداي ، ذلك الشعور الذي حمله على ما يشبه التصميم على الا يستقبل اي شخص ياتيه من طرف الولايات المتحدة لكي يتفاوض معه في قضية السلام .

وبعد ما تولى المستر مونرو (Monroe) (1) مهام منصبه كوزير مفوض في باريس عزل المستر موريس الذي كان يجب الا يمين مطلقا .

وعندما وصل مونرو الى باريس (اغسطس 1794) كان شعور عدم الرضا يسود دوائر الحكومة الفرنسية نتيجة للمعاهدة المشار اليها مع بريطانيا ، اعتقادا منها بان « جاي » ارسل الى انجلترا وهو يحمل شعورا غير ودي لفرنسا ، وان بعثة مونرو الى باريس انما اوفدت بقصد التضليل وذر الرماد في العيون ، وانه بالنظر الى اننا نفكر في اقامة اتحاد مع انجلترا ، فان مهمة بعثة مونرو اجراء سياسي يستهدف الهاء وخداعها ، فرنسا .

ومهما يكون من امر ، فان مونرو استقبل في 15 اغسطس استقبالا احسن مما اقنعته بعض المظاهر ان يتوقع ، وقد جاء في تقرير بعثة مونرو الى وزير الخارجية بتاريخ 12 فبراير 1795 ، قوله : « انه وجد امورنا في باريس في اسوا حالة ممكنة » .

---

(1) جيمس مونرو : سياسي امريكي ولد في ولاية فرجينيا (1758 ــ 1831) تولى مختلف المهام ، ومنها سفارته في باريس ، قبل ان ينتخب رئيسا للولايات المتحدة 1817 ــ 1825) . وقد ارتبط اسمه في السياسة الخارجية الامريكية خصوصا بالنظرية المعروفة تحت اسم " نظرية مونرو" التي اعلنها سنة 1793، والتي تستبعد كل تدخل أوروبي في شئون القارة الامريكية والتدخل الامريكي في الشئون الاوروبية.

كانت المعاهدة التي تربط البلدين قد خرقت وتجارتنا تقاوم كل بضاعة منها وفي جميع الدوائر ، وقد اخذ بحارتنا واسرت سفننا ، وكثيرا ما وضعوا في السجن وتلقوا معاملة تشبه معاملة اسرى الحرب ٠

كان وزيرنا المفوض في باريس لا يتمتع بثقة الحكومة الفرنسية ، وكان موضع الحسد وسوء الظن ٠ وزيادة على ذلك ، فقد كانت الحكومة الفرنسية مقتنعة باننا على وشك التخلي عن محالفتنا فرنسا لنرتبط بعلاقات جديدة مع انجلترا ، وان العمل لتغطية هذا التطور هو المهمة التي أرسل من اجلها مونرو الى باريس ٠

ونظرا لان هذه بالذات هي الفترة التي بدأت فيها مفاوضاتنا مع دول المغرب ، فلم يكن من المعقول أن نتوقع أو نعتقد أن فرنسا التي تشبعت بهذه الانطباعات ، سوف تتدخل وتستعمل نفوذها في صالحنا ، وذلك حتى لو كان نفوذها قويا كما تدعي ٠ وأنا سبق لي أن أوضحت أن هذا النفوذ لم يكن له وجود اطلاقا ٠

كانت الانتصارات التي أحرزتها الجيوش الفرنسية لا تثير شعور الخوف في الداي الذي يعرف جيدا أن فرنسا ليست في وضع يسمح لها بتجهيز اسطول لترسله لغزو الجزائر ٠ ومن المعلوم أن نفوذ أية دولة في الجزائر لا قيمة له ما لم يوح به شعور الخوف أو الامل في الكسب ٠

كان وصول معاهدة « جون جاي » الى الولايات المتحدة في شهر مارس قد صادف وورود الاخبار بأن الحكومة البريطانية أصدرت أوامر الى اسطولها بأن يقوم من جديد بعمليات الاستيلاء على السفن التي تحمل المواد الغذائية المتجهة الى فرنسا ، في الوقت الذي وصلت فيه الصحف التي نشرت على أعمدتها نص معاهدة « جاي » الى فرنسا ـ تلك المعاهدة التي تعرضت في تلك الآونة لكثير من النقد في أمريكا ، حيث كان يبدو انها انما نشرت لكي تحدث أسوأ أثر ممكن ٠

وكذلك كان شهر أغسطس وسبتمبر من سنة 1795 ، فترة أبعد ما تكون ملاءمة لترجي فرنسا بان تتدخل لصالحنا في بلدان المغرب ، بأي شكل من الاشكال ٠ فهذه كانت هي الظروف التي أجرينا فيها مفاوضاتنا والتي بذلت فيها المجهودات التي عرضتها في الصفحات السابقة ، من أجل قضيتنا ٠

ومن ذا الذي يستطيع أن يعتقد انه من الممكن أن تستعمل فرنسا نفوذها في مصلحتنا في هذه الظروف وفي الظروف التي تلتها ؟ الواقع انه من غير المعقول أن ننتظر منها شيئا من ذلك ٠

في منتصف شهر سبتمبر 1795 ، صرح المستر مونرو باننا نفقد كل يوم شيئا من نفوذنا في فرنسا ، فان الحكومة الفرنسية لم تعد تصدق تصريحاتنا الودية تجاهها ، وأن هذه الحالة تدعو الى التخوف من خطورة النتائج التي ستترتب على التصديق على المعاهدة الامريكية البريطانية ، وان هذا التخوف لا ينقص من حدته الا المعارضة التي لقيتها هذه المعاهدة من الشعب الامريكي ·

وبالنظر الى أن المعاهدة الجزائرية الامريكية قد وقعت في يوم 5 سبتمبر ، 1795 ، فانه لما يتنافى مع منطق الاشياء أن نثق في اخلاص فرنسا ، او نفترض حتى مجرد الافتراض ان في امكانها أن تساعد مفاوضاتنا باستعمال نفوذها ، في الوقت الذي كانت فيه أعمالنا سببا في تزعزع ثقتها ، وبالتالي كان علينا أن نتوقع موقفها ·

انني استطيع ان أستمر في بحث هذه القضية طويلا واسجل عدة صفحات، ولكنه بالنظر الى انني لا أستهدف أكثر من اثبات ان علاقاتنا مع فرنسا تجعل من المستحيل توقع قيام هذا البلد بتقديم أية مساعدة لنا في مفاوضاتنا ، وانه لا يستطيع تقديم مثل هذه المساعدة حتى لو أراد ذلك ، فاني لا أرى من الضروري الآن الا أن اثبت أنه لم يقع أي تغيير في الوضعية يجعل فرنسا اكثر سماحة تجاه قضيتنا ، حتى نهاية مفاوضاتنا مع جميع دول المغرب ، وان اقيم الدليل القاطع أيضا على أن فرنسا لم تكتف بالامتناع عن تقديم مساعدة ، كما تلزمها بذلك المادة 8 من المعاهدة الامريكية الفرنسية التي عقدت في سنة 1778 ، بل هي ، أكثر من ذلك ، كانت تعارضنا وتقاوم مصالحنا في جميع المناسبات ، نتيجة لما يسمونه بتعلقنا بالمصالح البريطانية ·

في أوائل شهر اكتوبر ، قابل المستر مونرو الذي لم يكن على علم بعقد معاهدة السلام مع الجزائر في الشهر السابق ، وكان يرافقه المستر بورفيانص (Purviance) قابل المسيو جان دوبرى (J. Debry) ، عضو لجنة الانقاذ الوطني والمكلف بدائرة الشئون الامريكية ليطلب اليه ان تبذل الحكومة الفرنسية مساعيها الحميدة من أجل مفاوضاتنا مع الجزائر · وقبل ذلك بوقت قصير (5 يوليو) تقدم مونرو بطلب مماثل الى لجنة الانقاذ الوطني · وقد جاء في التقرير الذي وجهه مونرو الى وزارة الخارجية الامريكية في أول اغسطس قولـه :

« يسرني ان ابلغكم أن هذه الحكومة (الفرنسية) سوف تمدنا بتأييدها الكامل في مفاوضاتنا مع الجزائر » ·

ولكن فرنسا لم تمدنا بهـــذا التاييد ابـدا . فلو امدتنا بـاي تاييد او مساعدة ، لما أحتاج مونرو الى القيام بمسعى لدى جان دبر يـ ذلك المسعى الذي وقع بعد توقيع المعاهدة بشهر كامل ...

كان هذان المسعيان هما الطلبان الوحيدان اللذان قدمتهما الولايات المتحدة رسميا الى فرنسا في الموضوع منذ عز لموريس ولكن كليهما لم يسفر عن نتيجة . واذا اعتبرنا الجانب الذي لا يبشر بمستقبل زاهر في علاقاتنا مـع فرنسا ، فان المرء يحتاج الى ايمان قوي لكي يعتقد أن هذا البلد سوف يفي بعهوده ، اذا كان قد قطع اية عهود اطلاقا .

ومهما يكن الامر ، فاننا قد قمنا بمفاوضاتنا مع الجزائر بدون مساعدة فرنســـا .

فقد اعتمدنا كما ينبغي أن نعتمد دائما ، على مواردنا الخاصة ، وانه لما يثلج صدر الوطني الغيور أن يعرف اننا عقدنا السلام مع الجزائر باستقلال تام ودون أن نحتاج الى نفوذ فرنسا أو أية دولة اخرى على وجه الارض ، واننا قد تحررنا من ثقل كل دين أو شكر لاحد .

انه لمن الجدير بالتسجيل ان المحادثات التي جرت في الاجتماع المذكور لم تلبث أن تحولت من موضوع المساعدة التي تقدمها الينا فرنسا ، الى موضوع المعاهدة التي عقدتها الولايات المتحدة مع بريطانيا ، وقد كان مواطن فرنسي يعيش في أمريكا ارسل الى حكومة بلده نص المعاهدة المذكورة الذي نشرتـه الصحف مع خبر تصديق مجلس الشيوخ عليها ، وارفقها ذلك المواطن بتعليقات من عنده . وفي سياق الحديث عنها ذكر دوبري لمونرو « ان لجنة الانقـــاذ الوطني قد تلقت هذه المعاهدة ثم اشار الى شعور السخط الذي اثاره فــــي الحكومة » .

فهل يصدق اشد الناس سذاجة ان فرنسا كانت تنوي في هذه الظروف تاييد مصالحنا ومساعدتنا في المفاوضات ، في الوقت الذي كانت تفترض فيه ـ وبحق ـ اننا تخلينا عن صداقتها وعن مصالحها ـ ولا سيما وأن حصولنا على حرية الملاحة التجارية في البحر الابيض ، امر من شانه ان يخلق منافسة جدية للتجارة الفرنسية ـ مع العلم بان الغرفة التجارية في مرسيليا كانت تمثل الد اعدائنا .

في يوم ٢٧ أكتوبر (١٧٩٥) حلت الجمعية الوطنية الثورية (Convention) (1) وتولى الحكم مكانها مجلس الادارة الخمسية (Directoire) (2) وفي نفس الوقت وصل فانسيت (Foncet) الى فرنسا حيث وجد في انتظاره احكاما مسبقة وسخطا على المعاهدة وعداء لمصالحنا .

وفي يناير 1796 ، وصل الى فرنسا كتاب صغير وضعه المستر راندولف يحتوي على وثائق أقل ما يقال فيها انها لا تنطوي علـى احتـرام للحكومـة الفرنسية حيث تصف بعض هذه الوثائق أصدقاء الثورة الفرنسية بانهم أنصار الحروب والاضطرابات .

وعقب ذلك بوقت قصير ، القى رئيس الولايات المتحدة خطابا لافتتاح دورة الكونجرس السنوية نوه فيه بحالة الرخاء والازدهار الاقتصادي الذي تمر بـه الولايات المتحدة وقارن هذه الحالة بحالة بعض البلدان التي تعاني المجاعـة وتفكك النظام الاجتماعي . وكذلك انطوى هذا الخطاب على كثير من الثناء على الفوائد التي تجنيها الولايات المتحدة من التراضي والتصالح مع بريطانيا ، كما نوه بحسن الاستعداد الذي تبديه تلك الدولة نحونا . وهذا الخطاب لم ينطو على ذكر لفرنسا أو أية اشارة لها ، ما عدا الملاحظة التي تتعلق بحالة المجاعة وهي اشارة فسرتها الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت بانها هي المعنية بها .

وفي يونيو سنة 1796 ، وردت الاخبار بان مجلس النواب الامريكي صدق بدوره على المعاهدة الامريكية البريطانية ، وهذا الاجراء قضى نهائيا علـى الانطباعات التي علقت باذهان الفرنسيين نتيجة للمعارضة الشعبية التي واجهتها المعاهدة في مبدأ الامر . والمؤكد ان الاجراءات التي اتخذناها في ذلك الوقت لم تكن تستحق احترام الجمهورية الفرنسية أو تقديرها .

---

(1) هى الجمعية الوطنية التى حلت محل الجمعية التشريعية في 21 سبتمبر 1792 ، وحكمت فرنسا حتى يوم 26 اكتوبر (وليس 27 كما يقول المؤلف) 1795 . ومن اهم اعمالها ، اعلان الجمهورية واصدار حكم الاعدام على لويس السادس عشر . وقد كانت في مبدا الامر تضم ثلاثة احزاب قبل ان تسلم زمام الحكم الى لجنة الانقاذ الوطني التي حكمت البلاد بالرعب ، وقد نجحت الجمعية الوطنية الثورية في دحر جيوش الحزب الملكي وقضت على ثورة الفيدراليين كما هزمت الجيوش الاوروبية المتحالفة .

(2) هو مجلس الحكومة الذي تولى الحكم في فرنسا من 26 اكتوبر (1795) حتى 9 نوفمبـر 1799 ، وكان يتكون من خمسة مديرين (Directeur) ، ومن هنا تسميته . وكان يساعده مجلسان ، مجلس الكبار ومجلس الـ 500 ، ويقوم على اساس نظام جمهوري بورجوازي . وفي عهده قام نابليون بحملة على مصر واعلنت فرنسا الحرب على النمسا ، وانجلترا ، وقام التحالف الاوروبي الثاني ضد فرنسا ، وواجهت البلاد في ظله مجاعة وازمة مالية .

فبأي حق اذا ، كنا نامل ونتوقع استعمال فرنسا لنفوذها في صالحنا في مفاوضاتنا مع دول المغرب ؟ أن هذا الامل ليكشف فينا عن روح الادعاء وعن ميل يقرب من ابشع أنواع التسول والاستعطاف .

ومع هذا كله ، فان مونرو قد تلقى في 30 اغسطس (1796) مذكرة من وزير الشئون الخارجية الفرنسي يعلن اليه فيها ان وكيلنا قد حصل على هدنة من ايالة تونس وايالة طرابلس ، بفضل مساعدة فرنسا .

كانت رسالة « هركيولي » الى حكومته مؤرخة من الجزائر في 12 يونيو ، 1796(1) ، وفي نفس الوقت تقريبا ، كان الاخير قد صرح لبارلو بان من واجبه ، بوصفه مواطنا فرنسيا ، أن يعارض مصالح الولايات المتحدة ، بسبب ما أسماه بتعلق حكومتنا بالمصالح البريطانية (راجع رسالة بارلو الى وزير الخارجية الامريكية بتاريخ 17 أغسطس 1797) .

فهل يحتاج الامر الى مزيد من الادلة على أن فرنسا كانت تلعب دورا مزيفا مضللا معنا على طول الخط ؟ لا أعتقد ذلك .

والحقيقة التي لا تقبل الشك والجدل ، هي أنني أنا الذي حصل شخصيا على هدنة مع باي تونس لمدة ثمانية اشهر ، في 8 نوفمبر (1796)، وذلك بناء على تدخل الداي حسن في صالحنا لدى الايالة التونسية .

وفيما يتعلق بايالة طرابلس الغرب ، فان السفينة « صوفيا » التي كان يستقلها القبطان اوبراين ، قد أسرتها سفينة قرصنة طرابلسية في شهر سبتمبر 1796 ، وارغمتها على البقاء في طرابلس . وبالتالي ، فانه لم تعقد اية هدنة بين الولايات المتحدة وأيالة طرابلس في ذلك الوقت ، كما ادعى الوزير الفرنسي . وأكثر من ذلك ، فان قنصل فرنسا في طرابلس المسيو « جيز » (Guise) قد هنا باشا طرابلس بمناسبة استيلاء اسطوله على الغنيمة الامريكية ، وحاول اقناع الباشا بان يحتجز السفينة الامريكية ويصادر الأموال التي كان يحملها بارلو — وهي الاموال التي وجهتها الحكومة الامريكية الى داي الجزائر لفدية الاسرى الامريكيين .

ولكن قنصل فرنسا خاب في مسعاه ، بسبب حماية الجواز الذي تحمله السفينة بتوقيع الداي ، وقد كان الجواز واحدا من أربعة جوازات حصلت عليها من الداي ، قبل مغادرتي مدينة الجزائر مباشرة ، في شهر مايو ، 1796 .

---

(1) غموض في النص لا سبيل الى توضيحه .

لقد اطلق باشا طرابلس سراح السفينة « صوفيا » وبحارتها وربانها واعاد مبلغ المال العين الذي تحمله والذي يبلغ 220 000 دولار ، ومن ثم ، فان الانصاف يقضي بان نقول ان الولاية المتحدة قد استفاد تمن المعاهدة الجزائرية الامريكية التي منحت « صوفيا » جوازا بموجبها ، على الاقل ، مبلغ 250000 دولار ، وذلك بالاضافة الى النتائج التي كانت ستترتب على خسارة ذلك المبلغ. فان من المحقق انه لو لم يصل ذلك المبلغ الى الجزائر ، او مبلغ يساويه في فترة لاحقة ، ان الاسرى الامريكيين سيبقون في الجزائر مدة اخرى لا يمكن تحديدها .

ونتيجة لحجز السفينة « صوفيا » جرت مراسلة بين داي الجزائر وباشا طرابلس ، كان من نتائجها اتفاق الطرفين على وقف اعمال العدوان . وفي 4 من شهر نوفمبر التالي ، عقدت معاهدة السلام والصداقة بين ولاية طرابلس والولايات المتحدة الامريكية .

ولكن حكومة الادارة الخمسية الفرنسية التي رأت اننا نجحنا في عقد معاهدة مع الجزائر وتونس بدون مساعدتها ، بل ورغم استعمال فرنسا نفوذها ضد مصالحنا ـ ذلك النفوذ الذي بالغت في تقديره ـ ابت الا ان تحمل حكومات العالم وحكومتنا نفسها على الاعتقاد ، بانه بالرغم من كل ما تشكو منه في سلوكنا ، فهي ، مع ذلك ظلت وفية لصداقتنا وعلى حسن الاستعداد تجاهنا ، وبذلك أضافت الزيت الى نيران الخصام المشتعلة في قارتنا .

أن كل ما مارسه " هيركيولي" من التدخل في شئوننا ، ينحصر في كونه أوصى بارلو بفمنين (Famnin) (١) الذي كان شخصا سيء الاخلاق لكي تستخدمه الولايات المتحدة في المفاوضات لعقد معاهدة ، وقد كان هذا الشخص سببا في كل ماشعرنا به من الحرج فيمابعد ، بل أن هيركيولي نفسه اعترف ، فيما بعد بانه خائن .

---

(1) ورد اسمه في مصادر اخرى برسم « فامين» (جوزيف) . وهو تاجر فرنسي مقيم في تونس استعان به بارلو لعقد معاهدة مع الباي ، ولكنه لم يتمكن الا من عقد هدنة لمدة ستة اشهر ، ولم تكد تدخل في حيز التنفيذ حتى خرقها التونسيون باستيلائهم على السكونة الامريكية «ايلزا» وطالبوا امريكا في مقابل تحرير اسراها واطلاق سراحها بمبلغ 10000 دولار . وفي هذه الظروف التجا بارلو الى الداي لطلب وساطته . ولما تقاعس الباي في الاستجابة لطلب الداي ، ابلغ هذا الاخير تونس بانه سيستخرج امرا من الباب العالي لحمله على عقد السلام مع الولايات المتحدة ، وبانه سيمنح لجميع السفن الامريكية جوازات ، ولو اسر الباي واحدة منها لطالبه بتعويض يبلغ اربعة اضعاف السفينة التي يحتجزها . انظر تفاصيل اخرى في كتاب ايروين « العلاقات الديبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة » المصدر المذكور، ص 126 وما يليها .

والواقع انه كان من واجب المستر بارلـو أن يقصد بنفسه الى تونس بعدما وعد الداي بتقديم بارجة اليه ، ولا يضع ثقته في صنيعة من صنائع الباي ، ضحى بمصالحنا . فبعدما وعده الداي بانه سوف ينتظر وصول المال الامريكي ، لم يبق امامه ما يصنعه في الجزائر ، قبل وصول ذلك المال . وبذلك كان يمكنه ان يستغل فترة الانتظار في التفاوض مع الباي لعقد معاهدة توفر علينا كثيرا من القلاقل والمتاعب والنفقات ·

الى هنا اعتقد انني قدمت ادلة كافية لتدعيم كل ما ادعيته ، وقد كان يمكنني أن اختتم هذا الفصل ، لولا أن ظروفا جديدة ظهرت بعد تعيينها مفاوضا قد يكون من شأنها نقض بعض الاحكام والنتائج التي توصلت اليها وتكون موضوعا لاختلاف الاراء · وهذه الظروف أريد تسجيلها هنا ·

عين الكلونيل هامفريز « قوميسارا » مفوضا من قبل الولايات المتحدة ، ومنح سلطات كاملة للتفاوض وعقد معاهدات مع جميع دول المغرب ، وذلك بتاريخ 21 مارس 1793 · ولكن المفوض الامريكي لم يحاول القدوم الى الجزائر الا بعد ذلك بثمانية أشهر ، أي في 11 من شهر نوفمبر التالي ·· وقد كان ذلك عقب وقوع عشر من سفننا في الاسر غنيمة للجزائريين ، وكان على متنها أكثر من مائة من المواطنين الامريكيين · وهذه الكارثة كانت نتيجة مباشرة لعقد معاهدة غادرة بين الجزائر والبرتغال ، بواسطة بريطانيا التي ضمنت البرتغال ·

فلو وصل هامفريز الى الجزائر قبل عقد هذه المعاهدة (وأما سبب عدم وصوله ، فهو يعزوه الى الحكومة) لما وقعت سفننا غنيمة ولما أسر واستعبد مواطنونا ، ولامكن الحصول على معاهدة السلام مع الجزائر بتكاليف منخفضة نسبيا ومعتدلة ·

ولكنه بالنظر الى أن الوقت الذي قدم فيه طلبا للقدوم الى الجزائر لم يكن ملائما ، فقد رفض طلبه · وبعد ذلك لم نسمع شيئا من أخباره ، حتى يوم 7 من شهر اكتوبر ، 1795 ، حين واجهتنا كثير من المتاعب واحتجنا الى استعمال كثير من اللباقة ، قبل أن يعدنا الداي باستقباله ·

ولكنه بعدما تلقى اذن الداي له بالقدوم ، سافر الى الولايات المتحدة ، بدلا من أن يقدم الى الجزائر مباشرة ، وهذا الرحيل فسره الداي على انه تلاعب به من طرف الولايات المتحدة ، مما حمله على نقض الاذن الذي كان قد أصدره · وفي يوم 7 نوفمبر ، صرح مونرو بقوله انه فيما يتعلق بالاعمال مع الجزائر قد كتب اللى « شومونط » ، وهو سيد من سويسرا ليعلمني باخبار المفاوضات التي كلف الكلونيل هامفريز بالقيام بها في الجزائر ·

ويبدو أن شومونط هذا هو الذي كلف « بارّيت » بالاتصالات التي قام بها والتي لم ينجم عنها اي خير لنا .

وفي 11 نوفمبر ، كتب مونرو الى الكلونيل هامفريز يبلغه ان وزير الخارجية قد اخبره بانه مزود بالسلطة الضرورية للتفاوض مع ايالة الجزائر ، ولكنه يرى من جانبه أنه لا فائدة في اجراء اتصالات مع السلطات الجمهورية في الموضوع قبل أن يحاط علما بالحالة التي طلب اليه تقديم معلومات عنها .

وفي رسالة له في الموضوع الى وزير الخارجية بتاريخ اول فبراير 1795 ، قال فيها انه بلغه ان الكلونيل هامفريز قد ابحر من لشبونه في اتجاه الجزائر ، وانه قد ترك في جهل تام فيما يتعلق برغبات الكلونيل وتاريخ سفره والخطة التي ينوي انتهاجها . وقال انه يتخوف من الحرج الذي يلازم الحرب وغير ذلك من الظروف ، أن يكون من الصعب تنسيق خطة العملية ، وان هذا التنسيق قد أصبح في الوقت الحاضر ، على كل حال ، مستحيلا تماما .

وفي رسالة بتاريخ 8 مارس، أبلغ وزير الخارجية الامريكية مونرو ان الكلونيل هامفريز الذي كان المفروض ان يكون في الجزائر يوجد حاليا في فيلاديفيا . وقد أجاب مونرو وزير الخارجة في 17 مايو ، قائلا ان رسالته الاخيرة قد حملت اليه المعلومات الاولى التي يمكن الوثوق بها بشان عودة الكلونيل هامفريز الى الولايات المتحدة ، وان الكلونيل سوف يعود مزودا بآراء الوزير فيما يتعلق بالدول التي تمارس القرصنة على الشواطىء الافريقية .
ومضى مونرو ، فقال :

« لقد أكدت لكم منذ وقت انه سيكون من السهل الحصول على مساعدة هذه الحكومة (الفرنسية) فيما يخص هذا الموضوع ، وانه لمن المحقق أن مساعدتها (في المفاوضات) مع كل واحدة من حكومات المغرب ، وخصوصا ، مع أيالة الجزائر التي ترتبط معها بعلاقات صداقة متينة ، سيكون لها أثر فعال . فهذه الدول تعرف أن فرنسا دخلت في حرب مع النمسا واسبانيا وانجلترا والبرتغال الخ ، وانها هزمتها جميعا ، وبالتالي ، فهي تستنتج أن فرنسا أقوى من كل تلك الدول مجتمعة وتحترمها على هذا الاساس . وقد قيل لي أكثر من مرة في محادثات خاصة مع أعضاء لجنة الانقاذ الوطني أن الحكومة الفرنسية مستعدة لان تقدم لنا جميع الخدمات التي تستطيعها فيما يخص هذا الموضوع » .

ذلك هو الرأي الذي تحاول الحكومة الفرنسية أن تقنع به الامريكيين . ولكن لننظر في حقيقة القضية .

لقد تعرضت فرنسا لاهانة الجزائر ولنهب اموالها اكثر من مرة • وفي العهود الاخيرة لم يعد لامة من الامم نفوذ في الجزائر الا اذا كانت دولة يخشى جانبها ، أو يرجى نفعها • ودول المغرب تعرف أن فرنسا منهمكة في حرب تستنزف كل قوتها ومواردها ، كما تعرف أن بريطانيا تحتفظ ببوارجها في الموانىء المغربية ، وبالتالي ، فليس هناك وقت أفضل من هذا الوقت لاطلاق القراصنة وراء سفنها (فرنسا) التجارية • وطالما كانت لدى فرنسا تجارة لم تتردد الجزائر في نهبها • ولكنه بالنظر الى عدم وجود تجارة لدى فرنسا ، فان الجزائر قد كفت عن نهبها وعن اهانة العلم الفرنسي ـ لانها لا تستطيع ان تجني ثمرة ملائمة من ذلك ـ والجزائر ، على كل حال ، لا تخشى الاسلحة الفرنسية •

ونحن نملك ادلة كافية لاثبات انه على الرغم من وعود الحكومة الفرنسية لوزيرنا المفوض ، فهي لم تكن قط تنوي انجازها ، ولو اعتمدنا على المساعدة الفرنسية لتحملنا نفقات باهضة ولغير نتيجة ، ولكان من المحتم أن نفشل في نهاية الامر ، ونصبح أضحوكة بسبب سذاجتنا وثقتنا في عهود فرنسا •

وقد جاء في رسالة لوزير الخارجية الى مونرو ، مؤرخة في 15 فبراير ، 1795 ، تلقاها بعد رسالة 8 مارس المشار اليها ، ما يلي :

« شعر الكلونيل هامفريز ، وزيرنا في لشبونة ، بخيبة أمل فيما يتعلق بالمبالغ المطلوبة لتحرير اخواننا الاسرى في الجزائر ، فعاد الى هنا لكي يتباحث في الموضوع • وسيعود بعد بضعة أيام وهو مزود بكل ما يحتاج اليه • وعلى الرغم من اننا لم نسمع شيئا مؤخرا بشأن وساطة فرنسا الودية لدى الداي ، فنحن نرجو أن نستخدم نفوذ حليفتنا في قضية انسانية كبيرة » •

وفي رسالة اخرى مؤرخة في 2 مايو ، يقول وزير الخارجية :

« لقد أبحر الكلونيل هامفرايز منذ ستة اسابيع (منتصف شهر مارس) مكلفا رسميا بمهمة اجراء مفاوضات مع الجزائر • ولعلك ان تكون قد اجتمعت به شخصيا قبل ان تصلك هذه الرسالة ، وسوف يرضيك أن رغبتنا في هذا الموضوع وفي كل مناسبة اخرى ، هي التزام جانب الحذر والكياسة مع مع اصدقائنا وحلفائنا » •

وصل الكلونيل هامفريز الى جبل طارق قادما من الولايات المتحدة في 17 مايو ، وقد تلقينا الرسالة التي وجهها الينا بتاريخ 18 مايو ، وصلتنا في 16 يونيو ، وعقب تحرير هذه الرسالة مباشرة ، سافر الى فرنسا ، وهو لا يزال يسعى وراء النفوذ الفرنسي الذي لن يعثر عليه أبدا ، لحسن حظنا •••

وفي 5 يونيو ، قدم مونرو مذكرة الى لجنة الانقاذ الوطني يعرض فيها لموضوع زيارة الكلونيل هامفريز • وفي 1 اغسطس ، كتب الى وزير الخارجية يقـــول :

« يسره أن يبلغه أن الحكومة الفرنسية ستقدم لنا تاييدها الكامل فــي مفاوضاتنا مع الجزائر » •

ولكن هذا التأييد لم يمنح لنا قط ، وعلى كل حال ، فحتى لو كانت الحكومة الفرنسية مخلصة ، فان ذلك التأييد لم يكن ليفيدنا فــي شيء ، وذلـك لان معاهدتنا وقعت يوم 5 سبتمبر التالي •

وفي أول سبتمبر ، كتب مونرو مذكرة الى قوميسار الشئون الخارجية في لجنة الانقاذ الوطني يبلغه فيها أن الحكومة الامريكية قد عينت المستـــر بنجمين هيتشبورن (B. Hetchbron) وزودته بالتفـويض الكامل للدخول في مفاوضات مع الجزائر ، وهو لا ينتظر سوى تعليمات الحكومة الفرنسية الى قنصلها في الجزائر ، وقد طلب بمنح جوازات السفر لاربعة أشخاص •

اعتذر المستر هوتشبورن عن المهمة وكلف بها في مكانه المستر بارلـــو (Barlow) الذي قبل القيام بهذه المهمة • لم يعين بارلو في هذه المهمة لمواهبه (وانا لا أشك في أن لديه مواهب ولكنها لا تصلح في بلاد المغرب كما سنرى)، وهو لم يعين في هذه المهمة لخدماته السابقة ، فان مكانته في الدرجة الثانية في قائمة الترشيحات للترقية ، وانما هو عين لملء الفراغ •

وفي ٣ أكتوبر ، كتب مونرو الى الكلونيل هامفريز يقول انه بلغـــه ان معاهدة عقدت بين الجزائر والولايات المتحدة بدون مساعدة فرنسا ، وانـــه يحتقر فكرة جعلنا مدينين للقنصل الفرنســي فالبير ، ويمضــي فيقـول ان هيركيولي لم يكتب شيئا في الموضوع (وكيف يكتب شيئا وهو لم يسافر الى الجزائر منذ عدة شهور وحتى بعد توقيــع معاهدتنا مــع الجزائـــر ؟) وان التعليمات الوحيدة التي زود بها هو في الموضوع ، هي أن يسعى للحصول على استعمال نفوذ الجمهورية الفرنسية لدى الداي لكي يوقف أعمال الحرب ضـد الولايات المتحدة •

ان هذا الطلب لاطائل وراءه ، لان السماح بحلول سفير في أي بلد من بلاد المغرب ، يتضمن وقف اعمال الحرب حتى يغادر السفير ذلك البلد ، ولو اسر الاسطول الجزائر خمسمائة سفينة لبلد محارب اثناء المفاوضات لاطلق الداي

سراحها جميعا بدون قيد ولا شرط ، ولو ان الدولة المعتدى عليها قد لا تتلقى تعويضا عما يكون البحارة قد اخذوه من الافراد من رعاياها ٠

وهكذا ، فان المعلومات التي افاد بها هيركيولي المستر بارلو والتي نجد صداها في الرسالة المذكورة أعلاه ، لا تتفق مع الحقيقة ٠

وفي رسالة لوزير الخارجية الامريكية الى مونرو ، بتاريخ 4 اكتوبر :
« تلقيت قائمة بالهدايا التي تلائم الجزائر والتي وعدت الشركة ان تقوم باعدادها ، مع قائمة خاصة بالهدايا التي تلائم الداي ووزرائه » ٠

فاذا كانت القائمة تتكون من البضائع التي بعثوا بها الى بارلو ، فهم قد خدعوه ٠ فان هذه البضائع لا تتفق مع حاجات ايالة الجزائر ، ولا سيما ملابس السيدات التي كلفت في باريس مبلغ 14,462 جنيه ، والتي لم تستعمل قط ٠ وأنا قد اتيح لي أن أرى بقاياها في منزل أحد القناصل في الجزائر ، حينما كنت استعد للسفر الى تونس وطرابلس في سنة 1799 ، وكذلك شاهدت زهرية كانت ضمن تلك الهدايا ، وقد أعادها الداى الى بارلو، وكانت قد كلفت مبلغ 2400 جنيه في باريس ٠ وقد وجهت بعض هذه الهدايا فيما بعد الى باي تونس في سنة 1799 ، والبعض الآخر الى باشا طرابلس ، وذلك لان قيمتها اكبر من أن تعطى لاناس في درجة أقل ، وهي أقل من ان تقدم لاشخاص من الدرجة الاولى ٠ وكذلك كانت هدايا اخرى تتكون من ملابس السيدات وصناديق السعوط الخ ، وتبلغ قيمتها 50000 دولار ، لا تصلح لاستعمال من قدمت اليهم فرموها جانبا ٠

وأما الهدايا التي كانت تستجيب للغرض منها فقد كان ثمنها اغلى كثيرا من الثمن الذي تباع به في متاجر اليهود في الجزائر ٠

وقبل هذه الفترة ببضعة أشهر ، طلبت الى منتوجمري ان يوجه الى الكلونيل هامفريز قائمة بالهدايا القنصلية التي قدمتها الدول الواهبة الى الداي والشخصيات الجزائرية في سنتي 1792 و 1794 ، حيث أنه لم يكون من الضروري أن نكون مدينين للحكومة الفرنسية اطلاقا سواء بتقديم مثل هذه القائمة الينا ، أو بشراء الهدايا نفسها ٠

وأخيرا ، غادر بارلو باريس ، وبعد جولات ودورات لا يدري احد أين وصلت به ، ارست السفينة التي كانت تقله في خليج الجزائر في يوم 4 من شهر مارس 1796 ، ونزل الى البر في اليوم التالي ، وذلك بعد توقيع المعاهدة الجزائرية الامريكية بستة اشهر بالتدقيق ، وعقب عقد الهدنة مع تونس باربعة أشهر ٠

ومع ذلك ، وبكل اجحاف ونكران للخدمات التي قدمتها قبل وصوله الى الجزائر ، فقد اعتبر خطأ انه الوكيل الامريكي الذي انجز كل شيء ، وعزا اليه اولئك الذين عينهم الشعب للتعبير باسمه عن الاعتراف بالجميل كل الفضل فيما تم انجازه ، وذلك بدون مسوغ ، كما سنرى ٠

وأما المعارضة التي واجهناها من ممثلي اسبانيا ، فقد يكون مرجعها الى حالة عدم الاستقرار التي كانت تمر بها علاقاتنا مع ذلك البلد ، فيما يتصل برسم الحدود وبالملاحة في نهر المسيسبي ، وكذلك الى حسدها لنا لثروتنا المتزايدة وعدد سكان بلدنا الكبير ، وذلك بالاضافة الى العنا يةوالعطف الذي تسبغه مصالح حليفتها وصديقتنا ، ملكة البرتغال ، البلد الذي تفضله على الولايات المتحدة التي تكره المذهب الديني الذي تعتنقه والنظام الجمهوري الذي اعتمدته ، وكذلك ترى اسبانيا أن هذا النظام من شانه ان يعجل بنهاية مستعمراتها في القارة الامريكية ٠

فليسمح لي اذا أن أقرر أن المهمة التي انجزتها في خضم من الصعوبات التي كانت تحيط بي ، كانت مهمة شاقة وفي ظروف لم يتح الوقت فيه بعد لدستورنا الحالي لكي يسري مفعوله السعيد ليشمل الناحية المالية الاتحادية ، وكذلك كنا لا نزال تحت وطأة الحرب مع الهنود الحمر والثورة التي وقعت في المناطق الغربية ٠ وهذه المناطق كانت الثورة فيها متواصلة كما كانت في زمن حرب التحرير ٠

ولهذه الاعتبارات كلها ، كانت الخزينة الاتحادية خالية الوفاض بحيث اننا لم نكن نملك سفينة حربية واحدة يمكنها ان تحمي سفننا التجارية ، وذلك بالاضافة الى انه يوجد من بين مواطنينا اكثر من مائة رجل يرزحون في قيود الاستعباد ٠

أحمد الله الذي وجهني وأنا في قيد الاسر وتحت نير الاستعباد ووفقني الى المخاطرة بحياتي أكثر من مرة من اجل المستعبدين والى ازالة العقبات التي كانت تعترض طريق السلام بين بلدي وبلدان المغرب ٠

* * *

الفصـــل الرابـع عشر

اعود الى موضوع مفاوضاتنا مع دول المغرب ، وخصوصا ، مع الجزائر ، منذ رحيل القبطان أوبراين عن الجزائر حاملا معه وثيقة المعاهدة ، في 11 سبتمبر 1795 ، حتى سفري الى فيلاديفيا في 12 سبتمبر 1796 ، عن طريق اليقانت ولشبونه ، حاملا معي رسائل متعددة ، ورسالة من الداي حسن الى رئيس الولايات المتحدة الامريكية .

كنت قد ذكت أن المستر دونالد صون وصل الى الجزائر في يوم ٣ سبتمبر ، وانني تفاوضت مع الداي بشأن المعاهدة حتى انتهينا الى اتفاق على بنودها ثم أخذتها لدونالد صون لتوقيعها وأن أوبراين قد حمل معه نص هذه الوثيقة الى الكلونيل هامفريز يوم 11 سبتمبر 1795 .

وفي يوم 13 من الشهر ، انتقل دونالد صون الى منزل قنصل السويد في الريف ، على مسافة 4 أميال من مدينة الجزائر ، وقد تركنا على احر من الجمر حول توقع وصول أموال المعاهدة ، بعدما أخبرنا أن الكلونيل هامفريز أبلغه أن هذه الاموال جاهزة للنقل بحرا ، وأن الجزء الاكبر منها موجود في لشبونة .

وهذه الاخبار زادت من قلق الداي الى حد كبير ، ولا سيما وان اليهـــود أقنعوه بأن مال المعاهدة سوف يصل في ظرف شهرين أو ثلاثة اشهر على أكثر تقديـــــر .

فلو وصل هذا المال في الوقت الذي كان يتوقعه الداي لجنبنا ذلك كثيرا من القلق والمتاعب والنفقات ، وهي الامور التي واجهناها في مرحلة تالية ، حيث اضطررنا الى دفع تكاليف اضافية تشكل ضعفي المبلغ الذي نصت عليه المعاهدة لتحقيق السلام ولفدية أسرانا .

قبل أن يغادر دونالد صون المدينة ، أغلق باب منزله بالمفتاح ، وأخبر خدمي الذين وضعتهم في خدمته انه لا يحتاج الى خدمتهم في المستقبل . ومن جهة اخرى ، قال انه لا يعرف لماذا أهيىء له مائدة زاخرة بالمأكولات ، مثل ما افعل دائما ، حيث أن القليل من الطعام العادى يكفيه ، وأضاف أنه ربما كان القصد من ذلك رشوته والمضاربة به ، وأن ذلك خطأ كبير .

قلت له ان الامر غير ذلك ، وانه ينبغي أن يحتفظ بشكواه حتى تقدم اليه فواتر الحساب ، وأن مواطنيه سوف يشعرون بالحسرة لان يروا أن سفير بلدنا يعيش على مستوى أقل من مستوى معيشة قناصل الدول الشمالية .

والحقيقة هي أنني كنت أقدم التموين والمواد الغذائية للسفير من مخازني الخاصة ، وقد كان طعامه للغداء يطبخ له كل يوم في حانتي ، وأما طعـام العشاء والفطور فيقوم باعداده خدمي في منزله ، وهو لم يدفع قط سنتيما واحدا في مقابل التموين أو في مقابل الخدمة •

وعندما خرج دونالد صون الى الريف ، أهمل ان يترك معي المعاهدة لكي آخذ عنها نسختين اخريين ، فقد سبق أن طلبت اليه وضع أربع أخرى ، واحدة لوزارة الخارجية ، وواحدة للكلونيل هامفريز ، وواحدة يحتفظ بها في أرشيفات القنصلية ، وواحدة يحتفظ بها في أرشيفات قصر الداي • ونسخة الداي لم يعدها دونالد صون الى القصر بعد توقيعه عليها ، وتبعا لذلك ، فان عثمان خوجة لم يتمكن من أخذ نسخ عنها •

وفي ٢١ سبتمبر ، كتبت الى دونالد صون أرجوه أن يرسل الي النسخة الاصلية لهذه الغاية ، فتلقيت منه الرد التالي :

سيـــدي ،

تلقيت مذكرتك التي تتعلق بنسخ صور للمعاهدة • سوف احضر غدا الى المدينة ويعمل الضروري • انني لم أكن مهملا كما تعرف جيدا ، فقد ضايقتك بان طلبت اليك الحصول على نسخ اخرى قبل رحيلي عن المدينة •

مع فائق التقدير

21 سبتمبر 1795 دونالد صون

وفي يوم 22 من الشهر ، عاد الى المدينة وقدم الي النص الاصلي للمعاهدة ورجاني أن أعيد اليه نفس النص ، حيث أنه وضع بعض الهوامش عليه ، كما رجاني الا أقوم بكتابة النسخ الانجليزية ، حيث انه يرغب أن يقوم هو بذلك شخصيا • فالنسخة موضوع الحديث هي النسخة الاصلية للمعاهدة ، وهي مكتوبة بخطي ، والنسخ الانجليزية الثلاث الاخرى ، قام بنسخها عن الاصل، المستر دونالد صون بخطه •

كان يبدو على المستر دونالد صون عدم الرضى ، ولا سيما وان الوقـت وقت الغداء ولم يجد على مائدته طعاما لياكله • فان الرجل يحب الطعام اللذيذ كبقية الناس ، ولكن هذا الخلل تمكنت من معالجته بان امرت أن يحضر الطعام الذي أعد لي ، الى منزله ليتناوله معي •

وبعد الغداء بدا على مزاج دونالد صون تحسن ملحوظ ، وبعد ان صافحني قال لي : « آمل أن نتناول طعام العشاء معا في نادي صيد السمك (الذي كان يتمتع بالعضوية فيه) قبل ان تمر سنة اخرى » . واثر ذلك ، عاد الى منزل قنصل السويد في الريف .

وفي يوم 28 ، عاد الى المدينة وطلب مني وثيقة المعاهدة . ولكن النسخ لم تنجز بعد ، بسبب الحركة الكثيرة في القصر نتيجة لصرف مرتبات الجنود فيه ، بل ولا يمكن انجاز هذا العمل الا بعد مضي أربعة أو خمسة أيام اخرى . وهذا التأخير كان مثارا لغضب شديد من دونالد صون الذي قال انه يريد اتمام عمله ولا يوجد ما يرغمه على الانتظار لانتهاء ما يجري في القصر . وقد أجبته بانه ، بالتأكيد ، مرغم على الانتظار ، وأن الداي ووزير الدولة سوف لا ينتظران تحركاته هو .

غادرني دونالد صون في حنق وغضب ، ثم رحل عن المدينة مرة اخرى الى الريف .

ولما كنت متخوفا من أن يتهور ويتفوه أمام قنصل السويد أو ترجمان القنصلية بكلام قد يمس الداي أو حكومته ويثير غضبه ، فقد طلبت الى وزير الدولة أن ينتهي من كتابة نسختيه بالتركية في أسرع وقت ممكن .

أخذ الوزير النص الأصلي الى منزله واشتغل عليه واعد نسختين منه بالتركية وقدمهما الي كاملتين مختومتين بختم الدولة ، وذلك في أول شهر اكتوبر 1795 .

وفي اليوم التالي ، وهو يوم جمعة والاعمال معطلة في القصر ، قصدت للغداء الى منزل سكجولد براند ، واصطحبت معي النسختين . ولما ناولتهما الى المستر دونالد صون ، شكرني على متاعبي بالعبارة التالية :

« ها أنت قد حصلت عليهما أخيرا ... اليس كذلك ؟ » .

وفي يوم 6 اكتوبر ، تلقينا رسالة من المستر « ايتيان كاثالان » (Etien Cathalan) يخبرنا فيها ان أنباء معاهدة السلام قد وصلت الى باريس والى جميع مدن موانىء فرنسا . وفي 10 أكتوبر ، وصلت الى ميناء الجزائر سفينة اسبانية شراعية ذات صاريتين قادمة من اليقانت استأجرها منتوجمري لشحن الحبوب (القمح) وعلى متنها المستر « هيوبويد » الذي حمل معه طردا موجها الى دونالد صون .

رغب مني الداي أن ارافق بويد الى دونالد صون ، وسألني عن الغرض الذي جاء اليه من أجله ، وقد اجبت سعادته بانه كاتب لمنتوجمري وأنه يحمل رسائل الى سفارتنا ٠

تلقى دونالد صون اخبارا مفادها ان أوبراين وصل الى مالقة يوم ١٧ ونزل بها يوم 19 ، ثم سافر منها الى لشبونه يوم 20 سبتمبر ٠ وهكذا ، فبعد 25 يوما من وصول دونالد صون الى الجزائر ، كانت معاهدة السلام على مكتب الكلونيل هامفريز في لشبونه ٠

وفي يوم 11 اكتوبر ، أعلنت للداي وصول القبطان أوبراين الى مالقة وسفره منها الى لشبونه ، وقد سر لهذا الخبر كثيرا ٠ سألني المستر دونالد صون أن أطلب الى الداي أن يصدر اذنه بشحن السفينة الاسبانية بالقمح ، فقلت له ان الطلب سابق لاوانه وانه اذا تقدم به ، فسوف يتلقى نفس الرد الذي قدم الى جورج سميث في الموضوع منذ وقت قصير ٠ وقلت له كذلك أن كل أمر فيه فائدة لوطني سأقوم به لدى الداي بسرور وعن طيب خاطر ، ولكنه من الافضل أن يقوم باعماله الشخصية بنفسه ، فكان جوابه انني قد أصبحت متشددا في الازمنة الاخيرة ٠

قلت له أقل من عشر ما يستحق أن يقال له ، وأضفت انني أشعر أنه من غير المفيد ومما يُحط بالكرامة أن يطلب الانسان منة وهو متأكد من أن طلبه سيرفض ٠

قال لي انه قدم وعدا الى منتوجمري بشأن هذه الشحنة وانه يطلب الي أن أحاول الحصول على اذن من الداي ، وأنه لو رفض الداي منح هذا الاذن يكون هو قد قام بواجبه واخلى عهدته ٠ قبلت أن أقوم بهذه المهمة ولكنني قلت له ان هذه ستكون المرة الاخيرة التي أتدخل فيها في شئونه الخاصة ٠

عرضت طلب دونالد صون على الداي فغضب له ، كما توقعت ، غضبا شديدا وقال لي :

ـ « يجب أن يسوي قضايا بلده أولا ، ثم نتحدث بعد ذلك عن الامور التجارية ٠ قل له انه ليس لدينا أي قمح نستغني عنه ، ومتى وجد لدينا فائض، سنخبره بذلك » ٠

كان المستر بويد قد حمل الى رسالتين من المستر منتوجمري جاء في احداهما ان الشحنة المطلوبة عبارة عن عملية تجارية شريكه فيها هو المستر دونالد صون ٠

وفي يوم 18 من الشهر ، أبحرت السفينة في اتجاه وهران ، بعدما وقعت اتفاقا مع دار بكري ، لشحنها بالحبوب .

أبلغني المستر بويد أنه توجد في البحر الابيض عدد من السفن الامريكية. وتبعا لهذه المعلومات كتبت منشورا ووجهته الى قناصلنا في الموانىء الواقعة على الشواطىء الشمالية للبحر الابيض ، أعلمتهم فيه بالتسوية السلمية التي تمت بيننا وبين الجزائر ، وحذرتهم من أخطار القرصنة التونسية والطرابلسية، وأوصيتهم بان يعملوا بجميع الوسائل للحيلولة دون اقدام السفن الامريكية على الملاحة في البحر الابيض المتوسط ريثما يتم التوصل الى عقد معاهدات مع كل من تونس وطرابلس .

في يوم 13 أكتوبر ، اقترح المستر دونالد صون أن يقوم بزيارة الشخصيات الكبيرة المقربة من الداي ، ووزراءه ، قائلا أنه قد منعه عن القيام بهذا الواجب حتى الآن ، داء النقرس الذي يشكو منه .

وقد أرسل الي سكجولد براند ، قنصل السويد ، يطلب مني أن أرافقه في هذه المهمة . ونظرا لان دونالد صون لا يملك أي مال ، فقد سلفته 100 سكوين في قطع نصف سكوين ليوزعها على أفراد منزل الشخصيات التي يزورها ، وقد أوضحت له بعناية أن التقاليد تقضي بان يوزع ما يتراوح بين 10 و 12 سكوين في كل منزل يدخل اليه .

أخذ دونالد صون المبلغ مني ثم طلب الى سلاون أن ياتيه بقبعته ويرافقنا . ولما وصلنا الى جوار منزل رئيس الوزارة دار به دورة أو دورتين ثم قال : « ان مترجما واحدا يكفيني » . وعند ذلك ، تمنيت له ليلة سعيدة ، وقلت انه لو لم يطلب الي مرافقته ، لما تطفلت على هذه المهمة .

ولما ذكرت هذه الحادثة لسكجولد براند في الليل، قال أن هذا من أعمال الرجل وسلوكه ، ثم تساءل كيف استطاع الكلونيل هامفري أن يفوض في مهمة مثل هذه رجلا لا يتمتع بالمؤهلات الضرورية ، واضاف انها لا يتصور وجود رجل آخر في الولايات المتحدة كلها ذي أطوار أشد غرابة منه .

وفي يوم الاثنين ، 19 أكتوبر ، اجتمعت بالآغا (قائد الجيش) في عمل رسمي وتطرق الحديث الى دونالد صون الذي أبدى سخطه عليه ، قائلا انه عندما قام بزيارته أحسن استقباله وأولاه عناية خاصة ، ولكنه عندما خرج من منزله لم يترك للخدم سوى 4 سكوينات .

ان هذه الشخصيات ترى انه كلما كان تقديرك واحترامك للواحد منهم اكبر ، كانت هديتك لخدمه أغلى واهم ، وهذا تقليد متبع لا يفكر أحد في الخروج عنه ، ولكن تقديم هدية قيمتها أربع سكوينات يساوي قولك للشخصية « انت شخص ضئيل القدر ، وليس لك نفوذ ، فلا تستطيع أن تنفعني أو تضرني ، وبالتالي ، فان أربع سكونات تكفي لخدمك » ·

قال لي الآغا ان بابا (الداي) حسن يحب امريكا ، وهذا كاف لنا ، وانه هو والوزراء لا قيمة لهم فيما يخص المسيحيين ، وأضاف في لهجة ذات مغـزى قوله ، ان بابا حسن متقدم في السن ، يعني انه سوف لا يعيش الى الابد ·

لقد أخطأ المستر دونالد صون خطأ فاحشـا فـي عـدم احترامـه للتقاليد الجزائرية العريقة · والواقع انه جرح احساس جميع الذين يملكون السلطة لنفعنا أو لالحاق الضرر به هو شخصيا · فان المرجح أن أحد هؤلاء الوزراء سوف يصبح دايا فيما بعد ، والمؤكد انه سوف لا يتردد في الانتقام لكرامته التي أهينت حينما كان يشغل منصبا أقل في الماضي· والتركي لاينسى اهانة أبدا· ومائة سكوين تنفق بحكمه في الوقت المناسب، قد توفر على أمريكا الافا في المستقبل· وزيادة على ذلك، فان قضيتنا لمتسو بعد بصفة نهائية، وما من أحد يعرف نوع الصعوبات التي ستواجهنا، ومن هنا ضرورة تغذية حسن النية والعواطف الطيبه بين هؤلاء الناس· واذا كان من الواجب علينا أن يفرضوا علينا لا يزيد عن مائة دولار ·

والواقع انه توجد أوقات في الحياة لايكون توفير المال فيه اجراء اقتصاديا ، والحالة التي بين أيدينا واحدة من تلك الحالات ·

أراد الاخوان سكجولد براند تخفيض عدد السفن التي يملكانها ، فعرضا علي للبيع سفينة شراعية ذات صاريتين كانت راسية في الميناء بشحنتها التي تبلغ 2800 (؟) وهي متجهة الى جزر الهند الغربية ، وذلك بسعر معقول ·

وعد الداي أن يسير الحجاج على متن هذه السفينة الى الاسكندرية ثم الى مكة ، ومنحني جواز سفر صالح لجميع أنحاء الامبراطورية العثمانية ، بما في ذلك تونس وطرابلس ، وزودني برسائل الى باي تونس وباشا طرابلس ، ولكنه رفض أن يسمح لي بالسفرِ على متن تلك السفينة كربان ، وفي مقابل ذلك ، وعد بان يرسل قبطانا أمريكيا لقيادتها ·

وفي هذه الظروف كتبت رسالة الى دونالد صون في يوم 23 من الشهر . لاطلب اليه أن يمنح لي شهادة بان هذه السفينة ملك لشخص امريكي مواطن للولايات المتحدة ٠

وقد رد على طلبي بالرفض .

خرج سكجولد براند من المدينة وعاد الى منزله بالريف ليقول لدونالد صون انه « يتصرف تصرفا غير كريم في هذه القضية حيث عمل لاحباط مسعى ونية المستر كاتكارت الذي قدم اليه شخصيا والى وطنه خدمات جلى ، وانه (دونالد صون) لم يكن ليحصل على معاهدة السلم مع الجزائر بشروط ملائمة مثل التي عقدت على أساسها ، لولا مساعيه المتواصلة قبل ذلك بعدة سنوات حين لم يكن هو قد عين في مهمته ، وذلك بدون مقابل سوى ما تلقاه من الاهانات ٠ واكثر من ذلك ، فهو قد وعد بتقديم نفس الوثيقة لمستر « بايلي » الذي طلبها منه منذ بضعة أيام ، حينما عزم على شراء سفينة تابعة للبندقية وقعت غنيمة في يد القراصنة » ٠

انكر دونالد صون أن يكون قد قدم وعدا لبايلي في هذا الموضوع ، وبعد ذلك خرج من بيت قنصل السويد دون أن يستاذن منه وعاد الى المدينة ماشيا على الاقدام ، وذلك على الرغم من أن القنصل أرسل اليه أحد خدمه ليلحقه بجواد رفض أن يمتطيه ٠

وهكذا ثار الآن مشكل جديد بينه وبين سكجولد براند الذي أغضبه دونالد صون عندما غادر منزله فجاة ودون استئذان ٠ وقد قال انه اذا عاد الى منزله مرة اخرى ، فسوف يستقبله بادب ، ولكنه اذا لم يعد ، فانه لن يقوم بزيارته ، ولكن دونالد صون عاد الى منزل قنصل السويد في نفس اليوم لتناول طعام الغداء على مائدته وبدون اية شكليات ، وكأنه لم يقع حادث سيء ٠

وفي نفس اليوم اخبرني سعادة الداي بانه سيقوم بانجاز وعده ، وأملى علي الشروط التي يعقد السلام على أساسها بين الولايات المتحدة والايالة التونسية ، ورغب مني أن أحملها الى دونالد صون ، وقال لي انه اذا وافق عليها يمكن الاطمئنان الى أن السلام قد استتب منذ الآن بين البلدين ٠

اجتمعت بدونالد صون في منزل قنصل السويد ، وبعدما نظر في شروط المعاهدة مع تونس وتفحص موادها ، قال لي انه ليس لديه أوامر من الكلونيل هامفريز للتفاوض مع تونس ٠

عدت الى الداي وابلغته ان دونالد صون ينتظر تعليمات مـــن الكلونيل هامفريز في الموضوع ، ورجوته ان يعتبر المفاوضات مع تونس مفتوحة ، وان يكتب من طرفه الى باي تونس ليرجوه ان يكف عن اعمال القرصنة ضد السفن الامريكية ، ريثما تصل التعليمات من لشبونه ، وفي نفس الوقت ، اعربت له عن رايي بان الولايات المتحدة لن تدفع اكثر من 50000 دولار ، في مقابل معاهدة السلام ، بما في ذلك هدايا من العتاد والاجهزة البحرية ، وان الامريكيين سوف لا يرضون بدفع ضريبة لتونس او لطرابلس • وكذلك قلت للداي ان امريكا تريد تسليح نفسها في وقت قريب حتى تتمكن من حماية سفنها التجارية . وقلت للداي ايضا انه اذا كتب للباي ، فينبغي أن يزيل من نفسه كل امل فـي الحصول على ضريبة سنوية ، اذا كان متعلقا بمثل هذا الامل •

قال لي الداي انه اقترح هذه الشروط مراعاة لمصالحنا ، وانه سوف يكتب الى الباي في هذا الموضوع ، ويفعل كل ما يستطيع من الخير بدون ان يلتزم باي شيء : « فانا مسلم اولا وقبل كل شيء » •

واصلت محادثتي بعد ذلك مع الداي ، ثم كتبت رسالة ضمنتها تفاصيـل تصريحات الداي الى الكلونيل هامفريز في لشبونة ، بتاريخ اليوم نفسه •

الثلاثاء 27 اكتوبر • كلفت من قبل الداي بالحصول على رسائل تقديم وتوصية لابن الرايس ابراهيم وعدد من رفقائه ، موجهة الى وزرائنا المفوضين ووكلائنا التجاريين في مرسيليا وباريس ولاهاي ، وأن انص في تلك الرسائل بصفة خاصة ان الداي سيكون مسئولا شخصيا عن سلوك هؤلاء الاشخاص ، في كل ما يتعلق بسحب الكامبيالات وشحن السفن الخ ، وقد لاقيت صعوبـة كبيرة في اقناع دونالد صون باعداد هذه الرسائل ، فكنت مضطرا اكثر من مرة الى ان اقرر له صراحة سخافة رفضه للقيام بهذا العمل والعواقب الوخيمة التي ستترتب على ذلك •

قلت لدونالد صون « انك مدين بمبلغ نحو 600000 دولار التي يتوقف سلام بلدك على دفعه ، والشخص الذي انت مدين له بهذا المبلغ لا يطلب منك سوى رسائل تقديم لاحد رعاياه ، وانت ترفض كتابتها ، مع انها في مصلحة الولايات المتحدة ، وذلك حتى لو كانت هذه الرسائل من اجل استلام المبلغ كله في باريس • ولكن الداي لا يطلب منك فتح اعتمـــاد لاستخلاص دينه فـي سفارتنا في باريس او لدى وكلائنا التجاريين ، وكل ما يطلبه منك هو أن تقول ان هذا الشخص يمكنه ان يسحب مبالغ من المال ستسدد بضمانه هو (اي الداي) » •

وفي نهاية المطاف ، رضي ان يكتب الرسائل المطلوبة ، واخذتها معـــي وعرضتها على الداي قرب غروب الشمس ٠

الواقع ان هذا السفير الذي يمثلنا تسري في نفسه روح من التناقض ويتسم بطبع من العناد لا اعرف له مثيلا في اي شخص آخر ٠ ولذا اخشى ان يخرب مصالحنا في الجزائر اذا تعطل وصول المبالغ التي ندين بها للداي فـي وقـــت قريب ٠

الاربعاء 28 اكتوبر ، نصح سكجولد برلند وكوهين بكري المستر دونالد صون بان يقدم هدية للحاج علي سفير تونس الذي وصل الى الجزائر ، حيث ان لهذه الشخصية نفـــوذا كبيـــرا في البـلاط التونسي ٠ وسوف يتبنـى قضيتنا مع تونس حينما تبدا المفاوضات بين البلدين ٠

كان هذا السفير وكيلا للجزائر في تونس من قبل ولكنه حضر الى هنا مبعوثا من الباي في هذه المرة ليحمل الضريبة السنوية التي تدفعها الايالة التونسية للجزائر بالزيت ٠

وصل الحاج علي الى هنا في سفينة تابعة للبندقية ، في يوم 24 من الشهر الجاري ، وقد طلب الي المستر دونالد صون مرافقته ٠ وبعد مفاتحته في موضوعنا وحصولنا على وعد منه بان يصادقنا ويساعدنا بكل ما فـي وسعه ، قدمنا منحة للسلام قدر بكري قيمتها بمبلغ ٩٢٥ سكوين ٠

وفي يوم 29 من الشهر ، نصحت انا وسكجولد برلند المستر دونالد صون، بان يطلب الى تونس عقد الهدنة ، وقد استجاب لهذا الطلب ، مشترطا ان لا تترتب على هذا الطلب اية تكاليف ، وقال انه سيترك لي القيام بهـــذه المهمة كلها وحدي ٠ وبعد ذلك ، خرج من المدينة ٠

وفي يوم 30 من الشهر ، عاد المستر دونالد صون الى الجزائر ليتسلم طردا ورد من اسبانيا يحتوي على مجموعة من الرسائل موجهة اليه ، وقد عرفنا ان هذه الرسائل لا تحمل اخبارا طيبة ٠

وفي نفس اليوم ، استدعاني الداي واخبرني انه تلقى رسائل من رئيس وزراء البرتغال ، مؤرخة منذ ستة عشر يوما فقط ، ذكر فيها انه وصلته اخبار عقد المعاهدة الجزائرية الامريكية يوم 8 من الشهر عن طريق الدون « جـــوان كريجو » ، وانه يطلب من الداي عقد معاهدة مع البرتغال على اساس شـروط مماثلـة ٠

والدون جوان كريجو لم يكن ليستطيع الحصول على معلومات بشأن المعاهدة الجزائرية الانجليزية الا من مصدر واحد ، وهو أسرة بكري ، وهو دليل قوي على انه لا ينبغي ان يضع الانسان ثقته في اي يهودي ، لان اليهودي لن يتردد في بيع اسرار أية أمة مهما يكن الثمن الذي يعرض عليه لخيانته ٠

اجرى الدون جوان محادثة طويلة مع الداي ، وقد قام هو نفسه بقراءة رسائل رئيس وزراء البرتغال وترجمتها للداي ، الامر الذي حرمت معه من معرفة تفاصيل عروض البرتغال ٠ ولكن الداي اطلعني على ختم الحكومة البرتغالية ، وقال لي انه لو لم يكن يفضل ضريبة أمريكا السنوية لحصل على مصدر آخر للمال ، وأن الامر في يده ليختار المصدر الذي يروق له أكثر من غيره٠

شكرت الداي على تفضله باختيار الولايات المتحدة ٠ ونظرا لان الداي قد وعد ـ بدون شك ـ الدون جوان بان يبقي هذا المسعى في طي الكتمان اكتفيت بما أخبرني به دون أن أحاول معرفة التفاصيل ، وانصرفت ، وأنا مقتنع بان هذا الخبر سيكون مفيدا للغاية للمستر دونالد صون الذي اخبرته بذلك ٠

قال لي المستر دونالد صون ان هذا الامر مستحيل ، واقسم لي بانه لا يستطيع تصديقه ٠ قلت له انه يستطيع أن يصدق أو يفعل ما يريده في هذا المجال ، ولكنه لا مصلحة لي في أن انقل اليه أخبارا لم تبلغني ، وأنني اشعر بالم لعدم تصديقه لي ، ومع ذلك ، رجوته أن يحتفظ بالامر سرا ، سواء أكان يصدق الخبر أم لا يصدقه ٠

وعندئذ أجابني هذا السفير العجيب (1) قائلا : « اذا كنت لا تستطيع الاحتفاظ باسرارك أنت ، فكيف تفترض انني أستطيع أنا كتمانها لك ؟ » ٠

تعجب الاخوان سكجولد براند من هذا الرد ، ولكنهما نصحاني بان لا أهتم بهذه الملاحظة التي يبدو انها صادرة عن جهل الشخص وفضاضته اكثر مما تدل على خبث الطوية ٠

وفي يوم 31 طلبني الداي ورغب مني أن أقوم باعداد قائمة باسماء الاسرى البرتغاليين في الجزائر ٠ قمت باعداد هذه القائمة وقدمتها لـه ، وفـي نفس

---

(1) في الاصـل (This Mohsw. K Ambassador) ٠ و « مهاوك » نهر في الولايات المتحدة (نيويورك) ، وهو احد روافد نهر الهدصون الكبير ، وكانت تقيم على ضفافه قبيلة من الهنود الحمر تحمل نفس الاسم ٠ اطلق المؤلف هذا الوصف كناية عن عجزه على فهم الامور السياسية الدقيقة ٠

الوقت ، سمحت لنفسي بان اخبر الداي باننا نفترض ان تكون اموال المعاهدة في البرتغال • وقلت لسعادته انه اذا كان ينوي الدخول في مفاوضات مع البرتغال ، فان ذلك سيكون من نتائجه تعطيل وصولها ، حيث أن الاعتبارات السياسية تفرض على بلاط البرتغال ان يضع عراقيل في طريق استخراجها من المصارف ، أو شحنها بعد الحصول عليها ، وذلك حتى يتسع الوقت امامه لتسوية أموره أولا •

فاجابني الداي قائلا :

« ان الرد الذي أعطيته للدون جوان وقلت له أن يبلغه الى الحكومة البرتغالية بشأن معاهدة السلام ، لا يمكن أن يعجبهم ، وانا متأكد من ذلك ، ولكنهم اذا ارادوا دفع الفدية لاسراهم ، فانا لا أعارض في ذلك » • عملت لاستغلال هذه المناسبة لصالح قضيتنا مع تونس ، فاخبرت الداي باننا قدمنا هدية للحاج علي ، ثم رجوت سعادته أن يحصل على هدنة لنا مع تونس •

قال الداي انه سبق أن تحدث مع الحاج علي في الموضوع ، وأن الاخير قد وعده بانه اذا أسر القراصنة التونسيون أية سفينة امريكية ، فسوف يستعمل نفوذه لكي يطلق سراحها واعادتها الى أمريكا ، كما وعده بان يتحدث اليه في الموضوع مرة اخرى ويحصل على هدنة ، واضاف قائلا انه ليس من حقه أن يتوقع هدايا بدون مقابل •

الاحد أول نوفمبر ، عاد دونالد صون الى المدينة وهو يعاني من مرض شديد بالكبد ، جاءه بعد مرض النقرس ، وقد الزمه الفراش شهرا كاملا •

الاحد ٨ نوفمبر • عقدت عدة اجتماعات مع الداي في غضون الاسبوع الذي يفصل بين التاريخين ، كما اجتمعت بالحاج على عدة مرات • وفي هذا اليوم بالذات ، حصل على هدنة من باي تونس للولايات المتحدة تمتد على ثمانية أشهر ، بضمان الداي حسن • توليت ترجمة وثيقة الهدنة وأخذت الترجمة مع الاصل الى المستر دونالد صون الذي كان في فراشه يشكو من النقرس والمغص•

٢٠ نوفمبر ، لايزال المستر دونالد صون ملازما لفراشه الذ كان يحاصره مساعدو الربان والملاحين الاسرى الامريكيين الذين يطلبون منه بالحاح الحصول لهم على اذن بالبقاء في المدينة حيث أن لهم الحق في أن يعفوا مثل الربابنة من الاعمال الشاقة • انني أعتقد أن لهم كامل الحق في ذلك • ولكن المستر دونالد صون اخبرهم أنه لا يستطيع القيام باي عمل من أجلهم في الوقت

الحاضر ، ونصحهم أن يعودوا الى مقر عملهم ويلوذوا بالصبر وقتا قصيرا ، وحينئذ ستتم فديتهم « لعنوا السفير وشتموه ونعتوه بمختلف الاوصاف ، ودعوا له بان يبقى شهرا آخر في الفراش ثم انصرفوا ·

كتبت رسالة الى الكلونيل هامفريز وابلغته خبر حصولنا على هدنة مع تونس لمدة ثمانية أشهر تبدأ في 8 نوفمبر ، ولكنني لم أبعث اليه نسخة من وثيقة الهدنة حيث أن المستر دونالد صون لم يعد الي الترجمة الانجليزية ·

ديسمبر ، لم يحدث تغيير يذكر على شئوننا في غضون هذا الشهر ، هذا اذا استثنينا ازدياد قلق الداي يوما بعد يوم (على تأخر أموال المعاهدة) · وفي كل مرة تجمعني به الاعمال يطلق العنان لتشكيه أمامي ، قائلا ان ثلاثة أشهر مدة كافية لوصول هذا المال من لشبونة ، وانني أنا الذي أقنعته بان ينصت الى العجوز « طويال » (الاعرج) ، وأن ذلك قد حال دون عقد معاهدة سلم مفيدة مع البرتغال ، ثم قال لي في المرة الاخيرة بكل صراحة أنني أنا الذي خدعته وأن شعبه ساخط وأن صبره هو قد نفذ الآن ·

وفي يوم 17 ، تلقيت ردودا على عدد من المناشر التي وجهتها الى قناصلنا في أوروبا ، وهي كلها مصاغة بعبارات على غرار رسالة قنصلنا في « لوغورن » ·

كان المستر دونالد صون اما ملازما للفراش بسبب مرضه ، أو مقيما في منزل قنصل السويد في الريف حينما يكون في صحة وعافية ، وهكذا كان علي أن أواجه الى جانب توبيخ الداي شكاوى الاسرى الامريكيين الذين اتهموني بالتقاعس للحصول على اذن لهم بالاقامة في المدينة واعفائهم من الاعمال الشاقة ، كان يمكنني أن أحصل على ترضية لمطالبهم بسهولة في بداية الامر ، أما الآن ، فان ذلك امر مستحيل ، لان الداي كثيرا ما هددني بان يعيد الربابنة أنفسهم الى الاعمال الشاقة ، اذا لم تصل أموال المعاهدة في وقت قريب جدا · وفي الوقت الذي كان يمكن فيه الحصول على اذن باعفائهم من الاعمال الشاقة ، ثبط المستر دونالد صون عزائم السلطات الجزائرية التي أرادت أن تقدم لنا هذه الخدمة برفضه تحمل المسئولية على سلوكهم ، وهكذا يكون من غير الملائم أن أتحمل أنا هذه المسئولية ·

الفصـــل الخامـس عشـر

الشئون البريطانية في الجزائر
فـي غضـــون هـذه الفتـرة

سبق لي أن ذكرت ان سفن القرصنة الجزائرية قد اسرت اثنتين وعشرين سفينة شراعية بريطانية بالاضافة الى اكثر من مائة سفينة لصيد المرجان وكلها تابعة لسكان جزيرة كورسيكا الذين كانت وزارة البحرية البريطانية التي تسيطر على البحر الابيض المتوسط ، تحميهم بمنحهم جوازات بريطانية • وقد سارت الامور على هذا المنوال منذ استيلاء بريطانيا على الجزيرة ، ولكن الداي رفض الاعتراف بالسلطة البريطانية على الجزيرة ، وبالتالي ، منع السفن التي يملكها سكانها جوازات بريطانية •

وهكذا صادر هذه السفن وباعها كما وضع بحارتها في قيد العبودية ، الامر الذي أثار امتعاض بريطانيا • وأما القنصل البريطاني فقد كان يلاطف الجزائريين ويهدئهم أحيانا ، ويتوعدهم بانتقام بريطانيا وعقابها احيانا اخرى ، وكل ذلك بدون أثر ولا جدوى ، لان القراصنة مصممون على الاحتفاظ بقنصهم ، ويرفضون اطلاق سراح الكورسكيين بدون فدية تدفع نقدا •

كان الداي ذا كلمة واحدة لا يرجع عنها ولا ينقضها ، وكذلك كان يعامل القنصل البريطاني بكثير من الاحتقار ، وفي بعض الاحيان بالتهديد •

والجزائر في ذلك الوقت لم تكن تعدم شخصا يعمل لتوسيع شقة الخلافات الموجودة ، خدمة لمصالح بلده ، وذلك باثارة جشع الداي وبتسكين مخاوفه من ردود الفعل البريطانية باعلامه بان البريطانيين ليسو في وضع يسمح لهم بارسال أية قوة بحرية معتبرة الى الجزائر لتضايقها ، حيث أن نتائج السماح لاسطول طولون بالخروج من نطاق الحصار المضروب عليه ستكون أوخم عواقب ألف مرة من ضياع جزيرة كورسيكا كلها من بريطانيا •

كانت هذه هي الوضعية يوم 6 سبتمبر ، وهو اليوم التالي لتوقيع المعاهدة الجزائرية الامريكية •

ففي هذا اليوم رافقت سفينة للقرصنة تابعة لباي معسكر الى الجزائر بأمر من الباي سفينة بريطانية لمقاومة القرصنة مقرها في جبل طارق مسلحة بستة مدافع ، وعلى متنها 45 بحارا معظمهم من الاسبان أو الايطاليين ، ولم يكن يوجد من بينهم سوى عشرة من البريطانيين • وبالاضافة الى ذلك ، كان يوجد خلل في الجواز الذي تحمله السفينه •

كانت هذه السفينة تسمى « النمر » (Tyges) ، وربانها هو القبطان « اسيلدا » ، شقيق زوجة الدكتور ورنر

ولما وصلت هذه السفينة الى الميناء تردد الداي وقتا قصيرا في أمرها، ولكنه في أخر الامر ، قرر اعتبارها غنيمة والاستيلاء عليها ووضع الرجال الذين كانوا على ظهرها في قيد العبودية ، ولو انه لم يبعها ، بل تركها بحمولتها في الميناء كما كانت عندما وقع أسرها •

وفي 20 اكتوبر ، وصلت بارجة بريطانية وارست في ميناء الجزائر . واثر ذلك وجه قنصل بريطانيا رسالة الى البحرية الجزائرية يطلب الاذن له بان يصعد على متن البارجة ، ولكن طلب القنصل رفض في مساء نفس اليوم . وكذلك أغلق الباب الخارجي للبحرية في ذلك اليوم قبل الوقت الذي يغلق فيه عادة ، وذلك للحيلولة دون التحاق القنصل بالبارجة •

وفي يوم 27 امتطى القنصل « ماس » البارجة ، وكان يرافقه قبطان الميناء ومترجمه البريطاني الجنسية « بروكر » وخادم له •

وبعد محادثات استغرقت عدة ساعات بين الطرفين ، أبلغ قبطان السفينة رغبة الطرف البريطاني بان يعلم الداي أن المعاملة التي تلقاها القنصل البريطاني على يده سوف تمنعه من اخضاع نفسه لمعاملة مماثلة في المستقبل ، وان يعلم انه بالنظر الى أنه قد خرق المعاهدة الجزائرية البريطانية ، ورفض تقديم تعويض على ذلك ، فان المهمة الدبلوماسية التي يمارسها القنصل قد توقفت، وفي المستقبل سوف يقع الاتصال بالداي عن طريق وزارة البحرية البريطانية بواسطة ربابنة الاسطول البريطاني •

عاد الموظفون الجزائريون الى البر ، واما القنصل البريطاني ، فقد بقي مع خادمه على ظهر البارجة •

ولما بلغت أخبار هذه الحوادث الى الداي ، بعث بقبطان الميناء الى البارجة ليبلغ القنصل رغبته في العودة الى البر ليعرض الطلبات التي امر قبطان البارجة بتقديمها اليه •

أجاب القنصل بانه لا يمكنه أن يتدخل بينه وبين القبطان ، ثم قال قبطان البارجة، وهو القبطان « هوب » (Hope) انه ينبغي أن يبلغ الداي رغبته في اعادة السفينة التي أسرت في يوم 6 من الشهر الجاري وجميع الكورسيكيين الذين يوجدون في الاسر ، وذلك بالاضافة الى تعويض عن 22 سفينة شراعية اسرت وبيعت •

وللمرة الثالثة بعث الداي بقبطان الميناء ليبلغ القنصل وقبطان البارجة ، وذلك رده السلبي على مطالبه ، وزيادة على ذلك ، فقد ابلغه ان الداي اعلن الحرب على بريطانيا ، وان القراصنة الجزائريين سيقومون باسر السفن والرعايا البريطانيين بعد اربعين يوما ابتداء من تاريخ الاعلان ٠

وعلى الساعة الرابعة بعد الظهر اطلقت ثلاثة مدافع نيرانها من برج الفنار ٠ وبهذه الطريقة اعلن الداي الحرب رسميا على بريطانيا العظمى ٠ واما وثيقة المعاهدة فقد كان القنصل « ماس » اخذها معه على متن البارجة ٠

وعلى الفور انزلت علمها وغيرت البارجة اتجاهها لتقترب من مجرى الرياح ورفعت قواربها الى السطح ، وفي الوقت نفسه وضعت الاغلال في ارجل العبيد وربطوا اثنين في سلسلة واحدة لمنعهم من الفرار الى البارجة التي تستعد للاقلاع ٠

وفي الصباح المبكر من يوم 22 من الشهر ، تلقى الدكتور ورنر طبيب القنصل البريطاني الذي هو المواطن البريطاني الحر الوحيد في الايالة ، امرا من الداي بان يبحر على متن البارجة البريطانية ٠ وفي نفس الوقت ، حزمت امتعة القنصل البريطاني واثاثه في 42 رزمة وضعت كلها في البحرية تمهيدا لشحنها على البارجة ٠ وفي الوقت الذي ظهرت فيه سفينة كبيرة في الافق ، رفعت البارجة البريطانية العلم الفرنسي وانطلقت في اثرها ، ونتيجة لهذه الحركة السريعة لم يمكن شحن اثاث القنصل ، فاعيد الى منزله ، دون ان تلمس رزمة واحدة منه ٠

ولما اقتربت السفينة وبلغت مرمى المدافع ، اطلقت اربع طلقات في اتجاهها ، ثم ارسل قارب بعد ذلك اليها ، وقد اتضح انها سفينة تابعة للبندقية جاءت تحمل الضريبة السنوية التي تدفعها تونس بالزيت للجزائر ٠

وفي يوم 24 انزلت حزمة من الرسائل من سفينة البندقية التي ارست في الخليج لانها لم تستطع الاقتراب من الميناء بسبب الرياح المعاكسة ٠

كانت احدى الرسائل التي وصلت موجهة الى الدكتور ورنر تسلمتها السفينة التي قابلت البارجة من القنصل البريطاني ، ماس ، وقد أخذها ترجمان قنصلية البندقية الى الداي ، بناء على اوامره ، بدون شك ٠

فض سعادة الداي رسالة الدكتور ورنر وبعث في طلبي لقراءتها له ، وقد كان من نتائج ما اطلع عليه في هذه الرسالة زيادة تصميمه وتبديد مخاوفه ٠

سالني الداي رأيي في الموقف ، فقلت له أنه اذا احتفظ بسفنه الحربية في الميناء ، لا يوجد ما يدعو الى تخوفه ، فان البريطانيين ليسوا في وضع يسمح لهم بقصف الجزائر ، وسوف يتحتم عليهم القيام بفدية الاسرى الكورسيكيين لكي يتجنبوا قيـــام ثـــورة ضد حكمهم في الجزيرة ، أو على الاقـل انتشار الاضطرابات فيها • ولكنهم اذا عثروا على سفنك في عـرض البحر فســوف يأسرها اسـطولهم ويحتفظ بها المبادلة اسراهم الجزائريين باسـراك الكورسيكيين •

ـ « ماذا تقول ؟ أيقومون بمثل هذا العمل قبل أن تمضي مدة أربعين يوما (التي تنص عليها المعاهدة كمهلة) ؟ » •

فاجبته قائلا :

ـ « ذلك شيء مؤكد في اعتقادي • فانت قد أسرت سفنهم قبل أن تعلـن الحرب عليهم ، وكونك قد صرحت من جانبك بانك لن تأسر سفنهم الا بعد مضى مهلة اربعين يوما ، اجراء يلزمك أنت ولا يلزمهم هم ما لم يدخلوا في اتفاقية جديدة خاصة معك وتعهدوا فيها بذلك ، والمؤكد أنهم سوف يعملون الآن لاسر أكبر عدد من رعاياك حتى يكون متساويا مع عدد الاسرى الذين هم في يدك من رعاياهم حتى يتبادلوهم » •

سألني الداي :

ـ « ولماذا لم تخبرني بذلك من قبل ؟ » •

ـ « لان سعادتك لم تطلب رأيي في الموضوع قبل الآن ، وقد كنت أعتبر وقحا ومتطفلا لو عرضت عليك رأيي دون أن يطلب مني ذلك ، ولكنني مقتنع بانك سوف تفرض شروطك الخاصة في ظرف اربعين يوما ، أو على أكثر تقدير في ظرف شهرين وتسوي هذا النزاع دون أن تتعرض لاية مخاطر » •

ـ « الله ، الله ، الله (1) هكذا يسكت من لهم معرفة ودراية ويصمتــون كالموتى ، حتى يطلب اليهم الادلاء بآرائهم بشأنها ، هذا في الوقت الذى يستمر فيه الجهال الذين لا يدركون شيئا في اللغط ويضللونني بآرائهم • خذ الرسالة « للطبيب » (1) الانجليزي ، وقل له أن يستقل أول سفينة تتجه الى أوروبا » •

أبحر الدكتور ورنر يوم 25 من الشهر في سفينة صغيرة اسبانية تتجه الى جزيرة مايورقة • عملت نسخة من رسالة الدكتور ورنر للداي •

---

(1) بالعربية في الاصل .

استمرت الشئون البريطانية بدون اي تغيير · وهذ ه الحالة منعت الداي من مضايقة قناصل البلدان الاخرى ·

في يوم 25 ديسمبر ، وصلت بارجتان بريطانيتان الى ميناء الجزائر ، البارجة « روميوليوس » بقيادة القبطان « هوب » والبارجة « الترتار » بقيادة القبطان « ايلفسطون » وعلى متنها اللــورد « فريد نــــورث » المبعوث الخاص من طرف ملك بريطانيا العظمى لدى داي الجزائر · وقد تمكـن المبعوث البريطاني في يوم 27 من تسوية النزاع الجزائري البريطاني مع الداي على الاسس التالية :

1 ـ لا تسمح الحكومة البريطانية بارساء الاسطول البرتغالي في جبــل طارق والبقاء هنالك مدة أطول مما يحتاج اليها للتزود بالماء والمواد الغذائية ·

2 ـ لا تعاد السفينة الاسيرة التابعة لجبل طارق وبحارتها الا بعد دفـع الفدية ·

3 ـ تدفع الحكومة البريطانية مبلغ 600 دولار اسباني فدية لكل واحد من الاسرى الكورسيكيين الذين يبلغ عددهم 195 أسيرا والذين هم في قبضــة الجزائر في الوقت الحاضر · وتتخلى بريطانيا عن مطالبها فما يتعلق التعويض على السفن الكورسيكية التي يبلغ عددها 22 سفينة والتي أخذها الجزائريون غنائم في الماضي · سوف تعتبر الجزائر جزيرة كورسيكا في المستقبل في نفس الوضع الذي كانت تتمتع به جزيرة مايورقه سابقا ويتمتع بها جبل طارق حاليــــا ·

وفي يوم 28 ديسمبر ، دفعت الحكومة البريطانية الى الداي مال فديــــة الاسرى الكورسيكيين ، وتم ترحيل هؤلاء على متن سفينة اسبانية استجؤرت خصيصا لهذه الغاية ·

رفع العلم البريطاني واطلقت المدافع تحية له · قدم الداي جهازا تركيا جميلا للورد نورث على سبيل الهدية بعد التوصل الى هذه التسوية ، وقد قام بجولة في شوارع الجزائر وكله فخر واعتزاز ، قبل أن يبحر عائدا الى بلده يوم 2 يناير 1796 ، ولكنه اتجه اولا الى باتيسته في كورسيكا ، وقد ترك الداي ليهنىء نفسه بالانتصار العظيم الذي احرز عليه ضد اكبر دولة بحرية في العالـــم ·

فهل يندهش الانسان متى قرأ هذه الصفحة لان يرى الداي يطالب بمبلغ كبير في مقابل ماهدة السلام وفدية الاسرى الامريكيين ، في وقت لم تكن فيه الولايات المتحدة تملك سفينة حربية واحدة ، وفي الوقت الذي تفرض فيه الجزائر ضريبة على دولة تملك اسطولا تقع قواعده على مسافة ستة أيام من الجزائر ، وتملك قوة تكفي لتدمير مدينة الجزائر والاسطول الجزائري كله في الميناء ٠

اوائل يناير 1796 ٠ بدأت هذه السنة الحادية عشر لاسري بحصار ٠ فان مرض النقرس الزم المستر دونالد صون الفراش ، حينما قام مساعدو الربان والبحريون الامريكيون بضرب حصار على منزل السفير ، قائلين انه ملكية عمومية ، وانهم يتمتعون بحق الاقامة فيه مثله تماما ، وقد رفضوا جميعا العودة للخدمة في اشغال البحرية ٠

رغب المستر دونالد صون من سلاون ان يقنعهم بالتي هي أحسن بان يغادروا منزله بهدوء ، ولكنهم رفضوا ٠ وفي آخر الامر ، اضطر الى طلب نجدة الحرس ٠

كنت في قصر الداي حينما تقدم السفير بشكوى ضد مواطنيه ، وقد أمر الداي بوضع الاغلال في ارجلهم ، ولكنني تضرعت الى الداي ورجوته أن يعفو عنهم ، وقد استجاب لذلك ، ولكنه صرح بانه اذا لم يتحسن سلوكهم في المستقبل فسوف يقيد كل اثنين منهم في سلسلة واحدة ٠

خرجت الى الاسرى الامريكيين وأبلغتهم ما قاله الداي ، وما كان منهم الا ان انهالوا علي بالسب والشتم لتدخلي في صالحهم بطلب العفو عنهم ، وقالوا ان مسئوليتي في استمرارهم في الاعمال الشاقة لا تقل عن مسئولية السفير نفسه ٠

يتزايد قلق الداي يوما بعد يوم لتاخر اموال المعاهدة ، ونظرا لانه يعتبرني العامل الاول في عقد معاهدة السلام ، فقد كنت دائما هدفا لسهام توبيخه ، ولم يكن يوم يمر دون أن يوجه الى التهديد والاهانة ، بل والشتائم الفاضحة احيانا ٠ وبالنظر الى أن المستر دونالد صون لم يضع رجله في القصر قط منذ أن قام بتوزيع الهدايا ، فان الشتائم والاهانات التي كان الداي سيكيلها له لو وقت عيناه عليه ، تنصب علي هي أيضا ٠

نصح سكجولد براند المستر دونالد صون بان يوجه رسائل الى الكلونيل هامفريز لكي يعرف الاسباب التي حالت دون وصول مال المعاهدة ٠ ولكنه

نظرا لانه يتوقع وصول البريد من اسبانيا واخبارا من الكلونيل هامفريز ، فقد صمم على الاستمرار في الانتظار والامل في أن يتلقى اخبارا طيبة ·

ولكنه في يوم 3 من يناير الجاري ، اضطره الدأي الى تغيير تصميمه ، وذلك حين بعث اليه بامر ايجابي بان يستاجر سفينة ويوجهها الى اسبانيا لكي تنقل اليه أخبارا مباشرة من سفير امريكا في لشبونة ، لماذا لم يصل مال المعاهدة المتفق عليه كما وعد السفير بذلك · وقد وعد الداي بان ينتظر حتى تعود السفينة من رحلتها ، ولكنه صرح بانه اذا لم تنفذ نصوص المعاهدة ـ على الاقل جزئيا ـ ويتلقى تاكيدات يستطيع ان يطمئن اليها ، بانه لن يقع تاجيل غير ضروري لارسال هذه الاموال ، أو الجزء المتبقى منهـــا ، فســوف يطرد « السفير الاعرج » من بلده وينقض كل ما أبرمه مع الولايات المتحدة ، ويأمر بقطع رأسي أنا بسبب اقناعه بان يفضل امريكا ويعقد السلام معها ثم يعقد سلاما على غراره مع البرتغال · وقال انه سوف يعقد الصلح مع البرتغال ويفتح البحر على مصراعيه لسفن القرصنة لكي تنتقم له لخرق المعاهدة وتأسر عددا كبيرا من السفن الامريكية الخ ·

وكما جرت عادة دونالد صون بأن يلتجىء الي كلما عرضت له مشكلـــة صعبة لا يقدر على حلها ، ترك الامر كله في يدي وطلب مني أن أستأجر سفينة، وهو ما قمت به في مقابل 200 دولار ، لكي تسافر الى اليقانت وتبقى هناك 15 يوما ، أو مدة أطول من ذلك ، اذا تراءى ذلك للقنصل الامريكي · وقد بلغ مجموع تكاليف هذه السفينة باعدادها وتزويدها بالمؤن 232ر75 دولار ·

حصلنا على شهادة من دونالد صون للسفينة ، تثبت انها سافرت فـــي مهمة لخدمة السفارة الامريكية في الجزائر ، وقد وضع الداي ختمه على الشهادة كما زودت بشهادة صحية ، وتولى فليــب سلاون قيادتها · وكذلك رفع العلـم الامريكي على السفينة التي كانت مستعدة للاقلاع في المساء ، ولكن رسائل المستر دونالد صون لم تكن جاهزة ·

وفي يوم 4 يناير ، ابلغت الداي ان السفينة مستعدة للاقلاع وانها لا تنتظر الا أوامره · وعندئذ ، أملى علي رسالة الى الكلونيل هامفريز · وبينما كنت منهمكا في الكتابة انهال علي بالشتم ، أنا و « السفير الاعرج » والكلونيل هامفريز ، وجميع أعضاء الحكومة الامريكية والرئيس واشنطون ، وقد وصــف الجميع بانهم مجموعة من الدجالين ، خدعوا سلفه وها هم يخدعونه هو نفسه الآن · وبعد ذلك ، اقسم بلحيته بان أحدا لن يتلاعب به بعد الآن ·

وفي يوم 28 يناير ، وصلت السفينة التي طال انتظارنا لها ، من اليقانت ، حاملة معها رسائل من الكلونيل هامفريز ، مؤرخة في 14 يناير ، يبلغنا فيها انه لم يتمكن من جمع المبالغ المطلوبة في لشبونة ، وأن القبطان أوبراين قد ارسل الى لندن في سفينة شراعية ذات صاريتين ، ليسعى للحصول عليها . وقد أخبرنا أن سلاون قد وصل الى اليقانت يوم 6 من نفس الشهر ، ولن منتوجمري قد سافر الى لشبونة من أجل قضيتنا .

وفي 29 نصحت أنا وسكجولد براند المستر دونالد صون بان يقدم هدية صغيرة للداي باسم الكلونيل هامفريز ، في مقابل الياتجان الذي كان قد أرسله اليه ، وأن يبلغه اننا لم نتمكن من جمع المال في البرتغال ، وأن أوبراين قد ارسل الى لندن لهذه الغاية ، وأن يطلب الى سعادته أن يصبر قليلا ، حيث أن المعاهدة مقبولة شكلا وموضوعا وقد وافق السفير هامفريز على جميع بنودها ، وان كل جهد قد بذل لجمع ذلك المال ولكنه لم ينجح بالنظر الى الطلب المفرط على المال السائل بسبب الحرب ، ولكن الامل قوي في أن الحكومة الامريكية سوف تحصل على هذا المال في لندن ، وأننا سوف نتلقاه في هذه الحالة عما قريب .

ولكن دونالد صون رفض رفضا باتا أن يقدم أية هدايا اخرى ، قائلا انه قد تجاوز الحدود التي رسمتها التعليمات التي يحملها ، ثم لعن الساعة التي جاء فيها للجزائر .

على الساعة 2 بعد الزوال بعث الداي في طلبي ، وسالني ما هي الاخبار التي تلقاها « طوبال » (الاعرج) من لشبونة . اجبته بمضمون ما تقدم ثم أضفت ان العوائق التي واجهها الكلونيل هامفريز في طريق جمع المال في البرتغال ، يرجح أن يكون مرجعها الى كون سعادته قد استقبل مساعي البرتغال استقبالا حسنا ، الامر الذي يحمل الحكومة البرتغالية على وضع يدها على كل ما يتوفر من المال السائل في السوق بقصد استعمالها لنفس الغرض . وقلت أيضا انه لو كان رده على مسعى البرتغال سلبيا في الحين ، لكان الكلونيل هامفريز قد جمع الآن ، بدون شك ، المال المنصوص عليه في معاهدة السلام الامريكية .

ولكن الداي أبدى شكه فيما قلته . وزيادة على ذلك شتمني لانني لم احمل هدية تعزز اعتقاده (كذا) ، وقال انه الآن مقتنع باننا كنا نلعب به ، ورغب مني أن أبلغ المستر دونالد صون انه اذا لم نحترم أحكام المعاهدة في ظرف شهر واحد ، ابتداء من تاريخ اليوم ، فانه سيعتبرها ملغاة وسيامر بطرده من البلد ، « وأما انت ، ايها الرجل الذي لا ايمان له (1) (يوجه الحديث الي) فأنا أعرف ما أصنعه بك » .

وقد أرفق الداي الكلمة والتهديد بالاشارة ، فجر يده على عنقه بطريقة أفقية .

أبلغت دونالد صون مضمون حديثي مع الداي ، فضحك كثيرا قائلا ان عمل الداي سيكون شاقا بالنظر الى أن عنقي قصيرة وصعبة للقطع ، تماما ، مثل عنقه هو . أما سكجولد براند الذي كان حاضرا في هذا المجلس ، فقد عرض أن يستعمل نفوذه لدى الداي بحيث يستخدم بدلا من قطع الرقبة الاحراق حيا في مقبرة المسيحيين في باب الوادي ... ولكنه بالنظر الى انني قد اضطررت الى تحمل كل ما جرفه سيل غضب الداي من الشتائم في هذا الصباح ، فانني لم أكن في مزاج أتذوق معه النكات والمزاح ، وكذلك جلست للعشاء وأنا مهموم ومشغول البال بما فيه الكفاية .

يوم الاحد 21 فبراير 1796 . وقعت مشادة في المنزل الذي استاجرته بناء على طلب المستر دونالد صون عقب توقيع المعاهدة ، لاقامة الربابنة الامريكيين، بين القبطان « ولاس » والقبطان « فورناس » والقبطان « نيومان » الذي كان يقامر ويشرب الخمر ، وكان من نتائجها سقوط الضابطين الاوليين من شرفة المنزل الى البلاط ، أما القبطان « ولاس » ، فقد قتل على الفور ، واما القبطان « فورناس » فقد كسر ذراعه . جاء القبطان « موسى مورس » الي ليطلب نصيحتي ، فقلت له ان من الضروري ان يقدم تقريرا عن الحادث في الحال ويستدعي الطبيب ، ولكن الوقت فات بالنسبة الى ولاس الذي فاضت روحه .

وفي صباح يوم ٢٢ ، ابلغت لحادث للداي . علق على ما حدث قائلا أنه يشعر بسرور لان هذا عقاب من الله حيث اننا لم ننجز ما تعهدنا به ، وانه ينتظر أن يقع مثل ذلك للاعرج العجوز ، وانني انا شخص لافائدة مني الا لنقل الاخبار السيئة .

---

(1) في الاصل : (Bonna Feda)

كان غضب الداي كبيرا بحيث انه نسي أن يجري تحقيقا في حادث وفاة ولاس الذي أمرت بدفنه في الحال قبل أن تطرح أية اسئلة اخرى في الموضوع ، وذلك لانه لو علم الداي بحقيقة الحادث لامر بجلد الضابطين الاخرين خمسمائة جلدة لكل واحد منهما وبارسال الضابط الآخر الى الاشغال الشاقة ٠

كانت لدي أعمال مع الداي يوم الخميس 25 من الشهر الجاري وبلغ بشتائمه لي حدا لا يطاق ولم أسجل له مثيلا من قبل ولا يسمح الادب والحشمة بتسجيله هنا ٠ أقسم أنه سوف ينتظر حتى عودة فليب سلاون ، ولا ينتظر لحظة واحدة بعد ذلك ٠ لقد كانت حياتي في الايام الاخيرة عذابا مستمرا ، فان الداي يعتقد انه خدع وهو يحني علي بالتوبيخ والتقريع والشتم لانه يعرف انه لا أحد يستطيع شيئا معه ٠

ان دونالد صون رجل خال من الاحساس والعقل معا ، وما دام يلتزم حدود التعليمات التي زود بها ولا يعرض نفسه للوم والنقد من رؤسائه ، فهو لا يهمه شيء بالنسبة الى النتائج التي تنطوي عليها الوضعية الحالية ، وليس لديه اي شعور بثقل الثقة التي وضعها فيه الداي ولا بمدى الضرر الذي سيلحق مصالح الولايات المتحدة لو انقطعت المفاوضات في مرحلتها الحالية ٠

انني أصرح بكل قوة أنني لو كنت مكلفا باعمالنا لدفعت من جيبي مبلغ 100000 دولار للداي لكي اكسب الوقت من أجل الوفاء بتعهداتنا ، بدلا من الاستمرار في هذا التلاعب ، واضع ثقتي بعد ذلك كلها في حكمة الشعب الامريكي لكي يصدر حكمه على سلوكي ٠ والشخصية الديبلوماسية يجب أن تتمتع دائما بسلطه اضافية يمكن استخدامها عند الحاجة وطبقا لمعلومات جديدة ليست متوفرة عند المسئول الذي يصيغ تعليماته ٠

وفي الحالة التي بين ايدينا بالذات ، نجد أن الهيئة التنفيذية (الحكومة) تسير في ظلام دامس وعلى غير هدى ، انهم يجهلون كل شيء ، وانا اعني كل شيء ، عن القضية التي كلفت بها دونالد صون فيما عدا أن التجارة في البحر الابيض المتوسط ذات قيمة واهمية كبيرة للولايات المتحدة وتستحق العمل من اجل الحصول عليها ، وان تحرير اسرانا امر ضروري ، كما يجب منع وقوع امريكيين آخرين في الاسر في المستقبل ، ان أمكن ذلك ٠

وفي مثل هذه الظروف ، يمكن اعتبار الرجل الذي يتردد في منع وقوع مثل هذه الكارثة ، بسبب خوفه من اللوم والنقد لتجاوزه التعليمات التي زود بها ،

من أجل بذر حفنة من المال ، هي أقل من القليل ، يمكن اعتبار هذا الرجل غير صالح للقيام بأي وظيف له أية أهمية خارج حدود البلد ، بقدر ما هو خال مـن الروح الوطنية ٠

ومع ذلك ، فانا من انصار التقشف والاقتصاد في صرف الاموال العمومية، ولكن ادخار المال ليس باقتصاد حينما تتطلب مصلحة البلد انفاقه لتحقيـــق هدف سياسي أو تجاري كبير لا يمكن الوصول اليه بدون تلك النفقات ، وفيما يتصل بهذا الراي ، أجد انني على اتفاق تام مع المستر بارلو ، وذلك على الرغم من أننا نختلف في تفاصيل ثانوية ٠ ولكن ، ليكن في علم القارىء ان المستر بارلو لم يقم حتى الان باي دور اطلاقا في الشئون المغربية الامريكية ٠

* * *

الفصـــل الســـادس عشــر

وصــول المستــر بارلــو

كانت هذه هي حالة قضيتنا يوم 4 مارس 1796 ، عندما وصل المستر بارلو الى الجزائر ، على متن سفينة شراعية ذات صاريتين اسمها « صالي » تابعة للولايات المتحدة بقيادة القبطان « ماس » قادمة من اليقانت .

كانت هذه هي السفينة الامريكية الاولى التي أرست في ميناء الجزائر منذ اعلان استقلال الولايات المتحدة ، وذلك باستثناء السفن الامريكية التي اسرها القراصنة ، طبعا .

كانت الرياح عاصفة ومضادة لاتجاه السفينة ، الامر الذي حال دون وصول السفينة الى الميناء ، واضطرها الى الرسو في الخليج ، على مسافة لا تقل عن أربعة أميال من المدينة .

وقبل وصول المستر بارلو ، كان اليهود قد أعلنوا للداي وجوده في مرسيليا ، وانه قد عين قنصلا للولايات المتحدة في الجزائر .

وهذا الخبر حاولت تكذيبه ، ولكن اليهود ألحوا على القول بانه صحيح ، لانه كان يحمل معه الهدايا القنصلية للداي ، تلك الهدايا التي كان قد اشتراها من باريس . وتأكيدا لاقوالهم ، قرءوا علي الرسائل التي بعث بها اليهم مراسلوهم من مرسيليا .

أمرني الداي أن أصعد الى ظهر السفينة الامريكية وأصطحب معي بارلو الى البر . ولكنني أخبرت سعادته بان الجو رديء للغاية وأن القارب الذي ينقلني قد تلتهمه الامواج ، ولكنني سوف أصطحبه الى البر في اليوم التالي ، حين آمل أن يكون الطقس قد تحسن والرياح معتدلة .

وتبعا لذلك ، حصلت في اليوم الخامس على قارب كبير ذي ثمانية مجاديف من احدى سفن البندقية كانت راسية في الميناء ، وعدت ببارلو الى الشاطىء وثيابه تقطر بالماء ، حيث أن البحر كان مضطربا والامواج عالية في الخليج .

نزل بارلو في البحرية ثم سار في اتجاه المدينة مباشرة بقصد تغيير ملابسه .

قدمت بارلو الى دونالد صون ، وكان ذلك بعد مضي ستة أشهر بالضبط على توقيع المعاهدة الجزائرية الامريكية . وبمجرد ما غيرت ملابسي ، قصدت

الى الداي حسن وابلغته خبر وصول بارلو ، ولكنه سالني لماذا لم اخبره بانني اصعد الى السفينة حتى يتلقى القنصل الجديد التحية التقليدية باطلاق خمس طلقات بالمدافع · فهذه هي العادة المتبعة عندما ينزل كل قنصل جديد بالجزائر ·

تشاورت مع بارلو واخبرته بما أبلغه اليهود للداي بشأنه · وقد ترجاني بارلو أن ابلغ سعادته انه لم يعين في منصب القنصل بعد ، ولكن المرجع ان يتم هذا التعيين في وقت قريب ·

أبلغت الداي أن أوراق اعتماد بارلو لم تصله بعد ، وانه بمجرد وصولها ، سوف أخبره حتى يتم الاستقبال الرسمي باطلاق خمس طلقات مدفعية ·

كان الداي في مزاج عصبي للغاية وقال انه يعرف جيدا ماذا سيصنع بالامريكيين وأمرني بالخروج من مكتبه ·

في يوم 8 مارس ، تحسن الجو وأصبحت الرياح معتدلة وبذلك أمكن للسفينة الامريكية أن تتقدم وترسو في الميناء ، وقد أنزلت منها أمتعة بارلو · سلمني بارلو رسالة من سلاون ، ثم أرسل كوهين بكري الى الداي ليطلب اليه اجراء مقابلة معه ، ولكن الداي رفض رفضا باتا استقبال بارلو ·

كان يوم ٩ مارس هو اليوم الاول من شهر رمضان (١) لسنة 1210 هجرية· ففي غضون هذا الشهر كله يمتنع المسلمون عن تناول الطعام والشراب من مطلع الفجر حتى الغروب ، بل ان المسلم غير مسموح له حتى بشم السعوط ، ولكن المسلمين يتخذون من الليالي أعراسا ، ويحول ليلهم الى نهار في هذا الشهر ·

كان بارلو قد أعد بعض الهدايا الثمينة للداي بقصد الحصول منه على مهلة اضافية لوصول أموال المعاهدة · وكذلك بعث من جديد باليهودي كوهين بكري لكي يحصل له على مقابلة مع الداي ليقدمها اليه ، ولكن الاوان كان قد فات ، فقد زاد الصيام من حدة مزاج الداي وشراسته ·

فلو قدمت هذه الهدايا في الوقت الذي أوصينا فيه دونالد صون بتقديمها ، لكن بارلو في غنى عن التضحيات التي يتكلفها الآن ·

---

(1) يوافق اول رمضان سنة 1210 هجرية في جداول المطابقة بين التقويم الهجري والتقويم الميلادي يوم 10 مارس 1796 · ولكنه يجب ان نتذكر ان الصيام والعيد كانا يقمان برؤية الهلال ، وليس بالحساب ·

صرح الداي لليهودي بقوله انه لا يقبل اية هدايا من الامريكيين وانه بمجرد ما يرفع الحظر المفروض على الحركة في الميناء سوف يخرجهم من البلد ٠

وفي يوم 11 ، جاء اليهودي ، كوهين بكري ، واخذ من بارلو صندوقــا صغيرا من الفضة وقال له انه يريد ان يقدمه باسمه هو الى ابنة الداي ، وان يحاول أن يستغل تلك المناسبة لتذكير الـداي والفـات نظـره الـــى الشئون الامريكية ٠

ولكن حيلة اليهودي فشلت ٠ فعندما قـــدم الصندوق للداي قال له انه يستطيع ن يحمله الى ابنته بنفسه تمطلب اليه أن يخرج من عنده حيث كان يستعد للنوم ٠ وأما بارلو ، فانه خسر الصندوق الجميل دون أن يحصل حتى على كلمة شكر من أحد ٠

ان شهر رمضان شهر ركود تام ، ولا تكاد تنجز في غضونه اية اعمال ٠

في يوم 21 مارس ، سالني دونالد صون عما اذا كان الداي قد وجه بواسطة سلاون رسالة الى الكلونيل هامفريز ، فقلت له انه فعل ذلك ٠ ومضى فـــي سؤاله قائلا :

ــ « ولكن لماذا لم تخبرني بذلك ؟ »

قلت له مجيبا ، ان السبب في ذلك يرجع الى أوامر الداي الذي لم يشأ اخبارك بذلك ٠ هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، فقد عملت بالنصيحة التـــي قدمتها الي يوم 30 من شهر أكتوبر الاخير ، تلك النصيحة التي كانت ثمينـــة للغاية ولم يمكنني نسيانها بسرعة : « فاذا لم تستطع كتمان اسرارك ، فكيف تتوقع مني أن اكتمها لك ؟ » ٠

كان تبدو على بارلو امارات الدهشة والتعجب ، فقال انه لم يكن في وسع المستر كاثكارت في هذه الظروف ان يتصرف بطريقة غير التي تصرف بها ، مهما كانت درجة استقامته واحترامه لنفسه ٠

تعقيب : بعد وصول بارلو الى الجزائر مباشرة ، وجه الي عددا من الاسئلة يرجوني أن أمده بمعلومات عنها ، وهي تتناول الشئون المدنية والعسكرية في حكومة الجزائر ــ الدخل المالي والتشريع والادارة والقضاء الخ ٠ ــ وقد اجبته عن بعض اسئلته شفاهيا وفيما يتعلق بالبعض الآخر ، وضعت بين يديه هذه المذكرات والمراسلات الشخصية ٠ ومن ذلك كله استخلص مادة تقريره الاول الى وزارة الخارجية بتاريخ 18 مارس 1796 ، ذلك التقرير الذي تلقى شكر الوزارة عليه فيما بعد ٠

وبعد حلول شهر رمضان خف عملي في القصر كثيرا واصبحت مهامي سهلة حيث أن الداي كان ينام معظم النهار ٠

وفي يوم 28 مارس ، وصل فليب سلاون الى الجزائر عن طريق البر قادما من شرشال ، وهي مدينة تبعد عن العاصمة بنحو أربعين ميلا في الاتجاه الغربي ، فقد أضطرته الرياح المعاكسة الى الارساء بالسفينة التي سافر بها الى اليقانت في هذه المدينة ٠

طلب الي المثلون الامريكيون أن أرافق سلاون لمقابلة الداي لكي يشرح له الرسالة التي حملها من الكلونيل هامفريز ردا على رسالته اليه ٠

فاما اليهودي ، بكري ، فقد رفض القيام بمثل هذه المهمة باصرار ، وبالتالي ، فكلما قامت صعوبة في وجههم ، طلبوا الي ازالتها من طريقهم ٠ ولكنه متى كان هناك اتصال من شأنه أن يرضي الداي ، سارع اليهودي للتدخل ولتقديم خدماته الى المثلين الامريكيين ٠ ومتى كانت المهمة مشكوكا فيها ويحتمل أن تكون مرضية للداي بقدر ما يمكن أن تكون مثارا لسخطه وغضبه ، قبل اليهود القيام بها وساروا الى قاعة القهوة في القصر ، ثم يرجعون بكذبة الى ممثلينا دون أن يحظوا حتى بمجرد رؤية الداي ٠

وكذلك طلبوا الي أن أبلغ الداي أن القنصل الامريكي في اليقانت قد حمل معه اعتمادا الى مصرف في مدريد بمال المعاهدة المطلوب ، ولكنه نظرا لفرض اسبانيا حظرا صارما على تصدير العملة ، فانه لا يمكن شحن المبلغ الا اذا تفضل سعادة الداي بالكتابة الى ملك اسبانيا لكي يصدر اذنا بذلك ٠ وهم يرجون سعادة الداي أن يقوم بهذه الخطوة في اقرب وقت ممكن حتى يصل المال الى الجزائر بسرعة ٠

وعلى الساعة السادسة مساء دخلنا على الداي ، الذي بادر بسؤال سلاون بمجرد ما وقعت عينه عليه ، عما اذا كان قد أحضر معه مال المعاهدة كله او جزءا منه ٠

أعربت للداي عن أسف الكلونيل هامفريز وخيبة أمله ، ثم طلبت منه الاذن بقراءة رسالة السفير اليه ، وقد قصدت ان ادخل بهذه المقدمة الى المهمة المذكورة أعلاه ٠

ولكن الداي فقد صبره وخاطبنا كلينا ، سلاون وانا بعبارة « ايها الكلاب الذين لا ايمان لهم » ، ثم صفعني صفعة جيدة على خدي الايسر ، وانتزع من يدي رسالة الكلونيل هامفريز بكل قوته ثم رمى بها خارج جناحه ، وامرنا بالخروج من عنده ، مهددا باننا لو عدنا اليه في مثل هذه المهمة الفارغة فسيكون مصيرنا الموت المؤكد ٠

قلت للداي :

« اصفع ، يا أفندي ، ولكن اسمع » ، ولكن الطاغية ، بدلا من ان يسمع اتجهت يده الى « ياتجان تحت وسادته على الاريكة وسحبه ، وعندئذ لم يكن أمامنا بد من الانسحاب بسرعة ثم التقطنا رسالة الكلونيل هامفريز ، وطار بها سلاون ليعيدها الى وكلائنا وهي غير مفتوحة (ولم تفتح قط بعد ذلك) ٠ لم يتعقبنا الداي بياتجانه ، لحسن الحظ ، والا لما عشت لاكتب هذه الكلمات٠٠

ولما وصلنا الى دونالد صون وعرف القصة المحزنة ، استغرق في الضحك ووجه الي الحديث قائلا : « ضربك على خدك الايسر ، فلو أدرت له خدك الايمن لكنت قد عملت بتعاليم الانجيل ! » ٠

ولكن المستر دونالد صون كان حريصا كل الحرص على الا يخاطر بنفسه ليتلقى الصفعات ٠ وانه لمن الغريب لرجل في مثل مركزه الا يحسن سوى اطلاق النكات على حساب الآخرين ٠ وبالاضافة الى جرح شعوري ، فان التنكيت في أعماق أزمة ديبلوماسية حادة يدل ، كما قلت له ذلك ، على قلة العقل والطيش من جانبه ٠

وأما المستر بارلو ، فقد كان يبدو عليه الاسف للاهانة التي لحقتني ٠ وأما شعوري الخاص ، فهو انه لا تحط من شرفي اهانة مجنون أو طاغية مستبد ، بل ان الشخص الذي يسدد الاهانة في الحالة الاخيرة ، انما يحط من قدره هو٠

تلقيت عن طريق سلاون رسالتين من الكلونيل هامفريز احداهما بتاريخ ٧ والثانية بتاريخ ١٦ فبراير ١٧٩٦ ٠

كان من راي سكجولد براند ومن راي الجميع ، بما في ذلك اليهود ، ان من الضروري الالتجاء الى وسيلة فعالة في الحال لتجنب العاصفة التي تهددنا ٠

فان الاسطول قد خرج للمطاردة ، ونحن غير متاكدين من ان لا يكون قد تلقى اوامر باسر السفن الامريكية والسفن الدانماركية ٠ ولكنه حتى الآن لم ترد اية اخبار من الاسطول منذ ان غادر ميناء الجزائر ٠

الفصــــل السابــع عشــر

كان الدانماركيون قد جددوا المعاهدة التي تربطهم بالداي والايالة وقدموا الهدايا التقليدية ، ولكنهم تاخروا عن دفع الضريبة بالعتاد والاجهزة البحرية سنة ، ولكن قنصل الدانمارك وعد بانه عندما يشحن العتاد والاجهزة من الدانمارك ، سوف ترافقها مبالغ تغطى مقابل الضريبة بالمال العين لمدة سنتين أو ثلاث سنوات • وهذا التعهد كان يبدو مرضيا للداي • وكذلك اعتبر ان الشئون الدانماركية قد سويت ، وان تجارة هذا البلد لا تتعرض لاخطار قرصنة الجزائر •

على أنه من سوء حظ الدانمارك ، أن سفينة دانماركية كانت تنقل 300 جندي تركي جندوا من الاناضول وأرسلوا الى الايالة ، قد تعرضت لهجوم سفينة نابولية حربية واسرتها وسارت بها الى نابلي •

استدعى الداي قنصل الدانمارك لمقابلته ، وبعد التهديد والشتم ، ساله الداي عما اذا كان ملكه لا يشعر بالخجل لان يتعرض عمله لاهانة جبان نابلي بدون عقاب • وبعد ذلك قدم اليه انذارا بانه اذا لم يطلق سراح الاسرى الاتراك في عدد محدود من الايام يكفي لكي يتمكن القنصل من الكتابة الى نابلي ولتلقي الرد ، فانه سيعلن الحرب على الدانمارك ويجعل القنصل واسرته عبيدا •

وهكذا وجه القنصل في الحال سفينة الى لوغورن تحمل رسائل الى حكومته والى وزير الدانمارك المفوض في نابلي •

وقد قام الاخير بمسعى لدى حكومة نابلي وطالب باطلاق سراح الاسرى الاتراك ، ولكن الاخيرة رفضت طلبه الا اذا ضمن فدية عدد مماثل من الاسرى النابليين الذين كانوا في قيد العبودية في ذلك الوقت في الجزائر وتونس •

وهذه قضية مهمة جدا لم يكن في وسع الوزير الدانماركي أن يبت فيها بدون تعليمات من حكومته ، حيث ان فدية 300 اسير نابلي تكلف ما لا يقل عن 300000 دولار •

ومن جهة اخرى ، ونتيجة للحرب التي كانت شبه عامة في اوروبا وما يوفره العلم الدانماركي من الحماية (أو ما يفترض انه يوفره) للممتلكات في البحر الابيض (بسبب حياد الدانمارك) ، فقد نصح الوزير القنصل الدانماركي في الجزائر بان يعمل جهده للوصول الى حل وسط على اساس افضل ما يمكن من الشروط ، أو على الاقل ، لكسب الوقت ، حيث أن موانىء البحر الابيض مزدحمة بالسفن الدانماركية التي أصبحت في الازمنة الاخيرة تشكل الاسطول الرئيسي الذي يتولى شحن البضائع والمنتجات في هذا البحر.

وعقب وصول رد الوزير الدانماركي من نابلي ، طلب القنصل مقابلة مع الداي ، وأكد له خلال هذه المقابلة أن الوزير قد بذل كل ما في وسعه لدى البلاط النابلي بدون نتيجة ، وأن رسائله الى الحكومة الدانماركية قد ارسلت بالبريد السريع الى كوبنهاجن ، وانه يوجد ما يحمله على الاعتقاد بان مطالبه سوف تعنى بها الحكومة الدانماركية بحيث تسفر مساعيها عن نتائج مرضية ، وأضاف قائلا انه بالنظر الى أن هذه القضية خطيرة جدا ، فانه ليس في امكانه هو ، ولا في امكان الوزير أن يعد بشيء في شأنها ، حيث أن تسويتها لا بد وأن تتم الآن على مستوى البلاطين •

كانت سفن القرصنة على وشك الاستعداد للابحار والمطاردة ، وهي عبارة عن ست سفن كل وحدة منها مسلحة بما يتراوح بين 6 و 44 مدفعا ، بينما بقيت في الميناء ثلاث سفن صغيرة لم تبحر بسبب نقص في البحارة • وهذه السفن، مضافا اليها ثلاث غليوطات وثلاث سفن كبيرة تسير بالمجاذيف، تشكل كل اسطول الهجوم الجزائري الذي تكفي لارساله الى أعماق البحر في ساعة واحدة ، ثلاث بارجات كل واحدة منها مسلحة بـ 36 مدفعا •

وفي هذه المقابلة ، صرح الداي بانه يعلن الحرب على الدانمارك في الحال، ثم أمر بوضع القنصل في الاغلال وارساله الى الاشغال الشاقة •

عرض القنصل في اللحظة الاخيرة لانقاذ الموقف أن يدفع 50000 سكوين، أو نقل عدد مماثل من الجنود الاتراك من الاناضول في مقابل الاسرى الذين أخذتهم نابلي ، ولكن الداي أجابه بصوت من الرعد ، قائلا :

- « ماذا تقول ؟ واترك ابناء جلدتي أسرى في يد النابليين ؟ أبدا ! هل تظن انني يهودي أو نابلي ؟ انني أريد نفس الاشخاص المعتقلين في نابلي ، وليس غيرهم • فماذا يقوله السلطان عني ؟ فكر في ماذا يقع لي لو تركت اتراكا في قيد العبودية ؟ ماذا يقوله عني جنودي ؟ سوف يقطعون رقبتي بمجرد

ما يحضرون لدفع مرتباتهم ، ان ملكك لا يملك من المال ما يدفع به فدية هؤلاء الاسرى (النابليين) ، وانت نفسك تعرف ذلك · يجب أن استرجع اولئك الاتراك الذين يوجدون في نابلي حاليا ، والا فساحرقك حيا انت وجميع الدانماركيين الذين يوجدون في الجزائر ، في مقبرة اليهود في باب الوادي ! اذهب الآن الى منزلك وفكر في الامر ، فسوف اتصل بك سريعا » ·

وعندما كانت سفن القرصنة مستعدة للاقلاع ، زودها قناصل الدول بالجوازات التي اعطيت لكل واحد من بلادهم ، بما في ذلك قنصلية الدانمارك·

فقد أبلغ الداي القنصل في مقابلة اخرى انه لا يعتبره مسئولا شخصيا عن اعتقال الجنديين الاتراك ، ولكنه يلقي هذه المسئولية على عاتق امته ، وانه تقديرا له قد قرر عدم اعلان الحرب على الدانمارك · واضاف الداي حسن ، وهو يبرم شاربه ، قائلا :

ـ « ان أفرادا من ابناء جلدتي في سفينة تحمل علمكم · وقد اعطيت قراصنتي أوامر بأن تأسر جميع السفن الدانماركية ، كل سفينة دانماركية تقابلها ، وأنا آمل ان تصادفهم في طريقهم احدى بوارجكم ، وذلك حتى يتجمع لدي عدد من الدانماركيين يساوي عدد الاتراك الذين اسرتهم نابلي · وساحتجز سفنك أنت · ومتى أعيد الي الاسرى الاتراك أعدت اليكم سفنكم واسراكم · واذا لم يصلني الاتراك بعد مضي أربعين يوما من عودة سفن القرصنة الى الميناء ، أمرت ببيع السفن الدلنماركية بحمولاتها ، وأخضعت طواقمها وركابها لقيد العبودية وأعلنت الحرب على بلدكم » ·

حاول القنصل أن يتفوه ببعض الكلمات ، ولكن الداي أدار رأسه وأعرض عنه فلم يرد الاستماع اليه ، بل أضاف في حدة قائلا :

ـ « اذهب الآن الى منزلك ، فان هذا شهر رمضان ، وأنا أريد أن أنام » ·

وأدار الداي حسن رأسه في اتجاهي وقال لي :

ـ « وأنت ، اذهب وابلغ السفير الاعرج انه صاحب الدور التالي ، وأما أنت شخصيا ، أيها الدجال الذي حملني على ان بعث اليه بجواز سفر ليقدم الى هنا ويخدعني ، سأسوي حساباتي معك في وقت قصير جدا » ·

نهض الداي من مقعده ومد يده الى ياتجانه وجرده من غمده ولوح بحده الى يده الاخرى بنفس الطريقة التي يمسك بها الجندي السيف ويهوى به على رقبة المسيحي عند باب القصر ·

خرجت سفن القرصنة وجالت جولات في عرض البحار ، ثم عادت وارست في الميناء يوم 20 ابريل وقد عادت بقنص محترم ، وهو ثلاث عشر سفينة تابعة للدانمارك وكلها محملة ، وبعضها تحمل بضائع ثمينة جدا ، وقد قدرت حمولة هذه السفن في مجموعها بنصف مليون دولار · وكذلك اسر الاسطول ثلاث سفن اخرى تابعة لجنوة ذات قيمة متواضعة ·

بعد تدخل القنصل وتقديمه الهدايا ، سمح للسفن الدانماركية الاسيرة ان تبقى بحمولاتها مرفوعة الاشرعة في الميناء ، كما سمح لربابنتها وضباطها وبحارتها بالبقاء على ظهرها · واما الداي ، فقد صرح بانه اذا لم يعد الاسرى الاتراك الذين يوجدون في قبضة نابلي في ظرف أربعين يوما ، فسوف يحكم على هذه السفن ببيعها هي وحمولاتها ويضع قيود العبودية في أرجل الدانماركيين الاسرى الذين يبلغ عددهم 120 أسيرا ·

كنت قد غادرت الجزائر قبل انتهاء مهلة الاربعين يوما المحددة ، ولكنني علمت فيما بعد أن نابلي أعادت الاسرى الاتراك وأن السفن الدانماركية قد اطلق سراحها هي ورجالها وحمولاتها ، ولكن القراصنة قد سلبوا ضباطها وبحارتها امتعتهم الشخصية التي لم يتلقوا أى تعويض عنها ·

رمضـــــان

سبق لي ان ذكرت أن المستر بارلو قد نزل في الجزائر في يوم 5 مارس 1796 ، ولكن الهدايا التي كان يحملها معه لم تنزل الى البر الا في يوم 8 من الشهر ، نتيجة لرداءة الاحوال الجوية التي اضطرت السفينة الامريكية التي اقلته الى الرسو في الخليج ، وقلت أن شهر رمضان بدا يوم 9 من الشهر (مارس) ، وان من المرجح ان يكون الصيام هو السبب الرئيسي الذي حمل الداي على رفض منح مقابلة لبارلو ·

وانا اعتقد انه لو لم يكن الوقت وقت الصيام لرضي الداي باستقبال بارلو ، على الاقل ، ليمتع نفسه بشتمه وتهديده · ولكن المؤمنين الصائمين بالنهار يحولون الليل الى اعراس للمتعة ، ويرون أن من الملائم ان يناموا معظم النهار ، وهم حين يقومون باعمال يقومون بها بطريقة مقتضبة ومستعجلة وبدون ترو ·

وتبعا لذلك ، فان أعمال الجور والتعسف التي تقع في هذا الشهر المعظم عندهم هي اكبر من الاعمال التي تقع في الشهور الاخرى · وانا اذكر على سبيل المثال الوقائع التالية :

في يوم 5 رمضان الموافق 14 مارس (1) 1796 ، وقع عراك في السجن المسمى « سجن جاليرا » بين عبدين اسبانيين كلاهما ممن هرب من حامية وهران يسمى أحدهما « دومنيجو جوميز » والآخر « بيدرو دلجادا » وقد طعن جوميز دلجادا خمس طعنات بخنجره ، ولكن الطعنات لم تكن قاتلة ٠ وقد نقل الضحية الى المستشفى الاسباني ، وهناك عولجت جراحه وشفي ٠

وبينما كان الحارسان المسيحيين جوزيف جارسيا وبيدرو سلفاستر اللذان كان دورهما في الحراسة في ليلة الحادث ، يحاولان تجريد جوميز من سلاحه، انهال عليهما بالطعن فجرح سلفاستر في ذراعه وأصاب جارسيا في بطنه وقد قتل الاخير بعد اصابته بساعة واحدة فقط ٠

انتشر الذعر والرعب بين نزلاء السجن وساد الاضطراب فيه بعد هذا الحادث بحيث اضطر « مونت نيجرو » ، مدير السجن الذي يحتفظ بمفاتحه الى النزول ومعه عدد من الحرس المسلحين ، وسدد مسدسه الى جوميز آمرا اياه أن يرمي بخنجره الى الارض ٠ ولكن المعتدي اجابه بتحد وتصميم قائلا :
– « هيا ، اطلق الرصاص ! ولكنك اذا كنت تشعر بشجاعة كافية فتقدم لتنزعه مني ! » ٠

ولكن أحدا لم يجرأ على الاقتراب منه ، وقد ظل مدة ثلاث ساعات كاملة مسيطرا على السجن يصول ويجول فيه دون أن ياتي الحرس الذين كانوا مسلحين بالسكاكين بحركة ، وكانما اذهلهم الرعب وجمدت أقدامهم في أماكنها ٠ واستمرت الحال على ذلك حتى اقترب منه أحد مواطنيه ممن كان لا يشك فيهم وسدد اليه ضربة بهراوة كان يخفيها وراءه ، وسقط على الارض٠

وعندئذ احاط به الاتراك ونزعوا سلاحه وأخذوا يضربونه ضربا مبرحا وبكل قسوة ، بينما كان جوميز يوجه اليهم عبارات السب والشتم ويدعوهم بالجبناء قائلا انه يوجد الآن كثيرون ليسيئو معاملته ، بينما كانوا لا يجرؤن على الاقتراب منه منذ بضع دقائق ، وانه يعرف انه سوف يموت بعد قليل وأن أسفه الوحيد أنه لم يقتل عددا آخر من الاشرار الذين دفعوه الى اليأس والقنوط ـ ولا سيما ذلك الخائن الذي كان يثق فيه والذي ضربه بالهراوة ومكن الآخرين من السيطرة عليه ٠ واختتم ترتيله قائلا ان حسرته لا تنتهي لانه لم ينتقم لنفسه قبل أن تقطع رأسه ، من جميع الاهانات التي تلقاها في السجن ٠

---

(1) راجع الهامش اعلاه ٠

كان جوميز رجلا يتمتع بحظ من التعليم ، وكان يعتبر قبل هذا الحادث رجلا مستقيما ٠

كان من بين مهام منصبي كمدير لمكتب الداي أن اقدم اليه كل يوم عند طلوع النهار تقريرا عن الاحداث غير العادية التي وقعت في الليل في سجون الاسرى الاروبيين ٠

وفي صباح اليوم التالي لوقوعه ، ابلغت الداي خبر هذا الحادث ، وعلى الفور ارسل في استدعاء جوميز الذي اقتيد أمام باب القصر وأمر بضرب عنقه ٠ سدد اليه الجند يالجلاد ثلاث ضربات بياتجان ، قبل أن يحز راسه من كتفه ، وصيحات الجمهور تتعالى : « رأس مسيحي آخر تسقط » !

وأما الجندي الجلاد ، فقد أعرب عن رغبته في أن يقوم بهذا العمل كل يوم حيث أن العشر « باتشاس جورداس » (حوالي 6 دولارات) التي يتلقاها مكافأة على هذا العمل من الحكومة ، سوف تكون أفيد له من جميع المسيحيين في المغرب ٠

وعقب ذلك أصدر الي الداي الامر الغريب وغير العادل التالي :

ـ « اذهب في الحال الى جميع أصحاب الحانات وامرهم بان يدفعوا الفي سكوين من أجل العبدين القتيلين (واحدهما ، كما رأينا ، هو الذي أمر بقتله) ٠ لانه لو لم يكونوا قد باعوا لهم المشروبات الكحولية لما وقع شجار بينهم ، ولما احتاج حراس السجن الى التدخل ، ولما أمرت باعدام المجرم ٠ اخبر أولئك الاوغاد انهم اذا لم يدفعوا المال ، فسوف أصادرحاناتهم ، بل وجميع ممتلكاتهم، متى كانوا يملكون شيئا وآمر بجلد كل واحد منهم خمسمائة جلدة قبل أن ارسله الى الاعمال الشاقة في الاغلال » ٠

سلمت أوامر الداي الى اصحاب الحانات كتابة ، فكان جوابهم انهم ليس في مقدورهم دفع المال المطلوب ، فهم ليسوا الا عبيدا فقراء ، وأن الداي هو السيف وانهم اللحم ، وفي وسعه ن يعاملهم كما يشاء ، ولكنهم لا يستطيعون دفع مال لا يملكونه ٠

أبلغت الداي هذا الرد ، فأثار ذلك فورة من غضبه الذي صب علي جامعه وفي عبارات لا تخلو من الفحش ، ثم أمرني أن أبلغهم انه اذا لم يصله المال المطلوب في ظرف ثلاثة أو اربعة أيام على أقصى تقدير ، فانه يمكنهم ن يطمئنوا الى

وعيــده والى انه سوف ينجز كل ما انذرهم به ، بل واسوا من ذلك· وكذلك امرني ان ابلغ مدير السجن انه اذا مات الرجل الجريح الذي يعالج في السجن ، فسوف يتحتم على ارباب الحانات ان يدفعوا الف سكوين اضافي من اجل ديته ·
واختتم الداي قائلا :

« يجب الا تضيع الخزينة فلسا واحدا ، ويجب عليك الا تضطرني الــى اعادة وتكرير اوامري » ·

وفي يوم 18 الذي طالب بالرد فيه (وهو اليوم المحدد اعلاه) حاولت ان استعطف الداي من أجل هؤلاء العبيد المساكين ، ولكن الطاغية استولت عليه نوبة من الغضب والانفعال اعتقدت معها لحظة انه فقد عقله تماما ، فانهال علي بالشتم قائلا انني اشجع اصحاب الحانات على عصيان اوامره ، ثم امرني ان اتجه الى البحرية لتبعث بجميع الحراس ليقبضوا على ارباب الحانات ويزجوا بهم في السجن وان يغلقوا جميع الحانات ، وان احضر اليه مفاتحها ·

نفذت هذه الاوامر بحذافيرها ، وبلغ عدد أرباب الحانات الذين قبض عليهم والحانات التي أغلقت أبوابها 25 ، وذلك بالاضافة الى العبيد الذيــن كانوا يعملون فيها ·

تدخلت لاستعطف الداي بشان حالة الفئة الآخيرة ، فكان جوابه :

ــ « ان هؤلاء الاوغاد لا يملكون المال لدفع الغرامة لان ثمن المشروبات الكحولية التي يبيعونها لا تدخل الى جيوبهم ، ولكنهم سوف يجلدون مــع ذلك ، لانهم لم يكونوا يخلطون الخمر والبراندي الذي يبيعونه للمسيحيين بماء كثير ، كما يفعلون بالبراندي الذي يبيعونه للمسلمين · ولو فعلوا ذلك لما انتاب السكر حالة اولئك الذين تسببوا في الاضطرابات » ·

وبعد ذلك ، عزل مدير السجن لانه عين حارسين من الجبناء لحراســة السجن ليلا عجزا عن السيطرة على المجرم الذي قتل أحدهما وجرح الآخر ، وعين مكانه مديرا آخر للسجن ·

لقد حان الآن موعد الجلد ليتلقى كل واحد عدد الجلدات المحددة له ، وذلك بعد الساعة الواحدة بعد الزوال ، لدى خروج المسلمين من المساجد ، بعد صلاة الظهر · وكذلك امر الداي بحرمان السجناء من الاكل حتى تحل نفس الساعة من يوم الغد · وبعد ذلك يرسل كل واحد منهم الى الاعمال الشــاقة مقيدا بالاغلال ويستطيع ان ياكل كل واحد منهم حسب شهيته ·

رجاني أرباب الحانات أن استعطف الداي عليهم واسترحمه ، فقلت لهم أن ذلك اسوأ من كونه غير مفيد وبدون جدوى ، لانه سيزيد من غضب الداي علي ، وانه اذا لم يعدوا بدفع المبلغ المطلوب ، فسيكون من غير الممكن زيادة حدة غضب الداي ، وأن كل ما استطيع القيام به هو أن أترجى الداي أن يمنحهم مهلة اخرى من الوقت طويلة بقدر الامكان لكي يدفعوا المستحق في نهايتها .

وهكذا منحني هؤلاء العبيد المساكين توقيعا على بياض لاعمل ما أراه في صالحهم واتفق مع الداي عليه ووعدوا بان ينفذوا ذلك بدون تردد .

كان يوجد في المدينة 25 حانة ـ وكنت أنا أملك شخصيا ثلاثا منها . وقد تكهنت بأن كل صاحب حانة يمكنه أن يلتزم بدفع ٥ سكوينات شهريا ، وأن الداي سوف يرضى ، متى تجاوز حالة انفعاله بهذا الحل ، حيث أن الذي يهمه في القضية ليست الناحية المالية ، بل تنفيذ أوامره .

وطبقا لهذا التحليل قصدت في الصباح الى القصر ومعي 240 سكوين ، وهي حصتي الشخصية ، ودخلت على الداي . ولكي اطمئنه وأهيىء له الظروف الملائمة لاعتدال المزاج ، قلت له :

ـ « يا أفندي ، انني أملك شخصيا ثلاث حانات ، وسوف لا يكون من العدل والانصاف أن اترك المكلفين بادارتها يتعرضون للعقاب لانهم لا يملكون المال الذي يدفعونه للخزينة . وهم قد وعدوا بأن يسددوا لي هذا المبلغ بمعدل 5 سكوينات في الشهر ، وباقي المسيرين للحانات فقراء مثلهم ، وقد وعدوا ، هم ايضا ، بان يدفعوا نفس المبلغ للخزينة شهريا ، وانه لمن واجبي أن أجمع منهم ذلك المبلغ وأنا أضمن ذلك ، والخزينة غنية يا أفندي . انني فقير ولكنني اطيع اوامرك ، يا أفندي ، وأنا أرجو عفوك ورحمتك ، وان تتقبل هذه الشروط وتترك هؤلاء العبيد المساكين يعودون الى حاناتهم ، وهم الآن يكادون يموتون جوعا ، بل انهم شبه أموات من الخوف مما ينتظرهم » .

وهكذا لمست جانب الضعف في الداي الذي لم يكن يريد أن يتفوق عليه انسان في أي جانب من الجوانب ، بما في ذلك جانب الشفقة . وقد حسبت انه بعدما هدأ غضبه وتناول فطورا شهيا ودخن غليونه ، سوف يؤنبه ضميره على ما ارتكبه من امور تخالف العدل والصواب . ولكنه نظرا لانه أحدث كثيرا من الضجيج حول هذه القضية ، فهو لا يستطيع التراجع دون عذر ومسوغ قوي ، وهذا بالضبط ، هو ما أردت تقديمه له بعرضي .

وكذلك تدخل بعض الخوجات ليتشفعوا لديه ، فكان جوابه :

ـ « انت على حق ، فان الخزينة ليست فقيرة • والنقود ليست هـــي المشكلة سواء دخلت في هذا الشهر أو بعد بسنة ، ولكن المهم هو طاعة اوامري• خذ مالك ، وادفع مثلما يدفع الاخرون ، ولكن ، تذكر انني اعتبرك مسئولا عن المبلغ برمته » •

وهكذا أصدر أوامره الى السجان ليخلي سبيل المسيحيين كما أمر باعادة مفاتيح الحانات اليهم • قبلت يد الطاغية وشكرته وانصرفت •

وبعد ذلك ببضعة أيام غادر الاسباني المصاب المستشفى وعاد الى عمله ، وكان مدير السجن الجديد قد نصب رسميا في عمله ، وبذلك انتهت القضية وعادت الامور الى مجراها الطبيعي • وفي يوم 8 مايو 1796 ، غادرت الجزائر ، وكنت مضطرا الى دفع كل حصتي من تلك الغرامة التي تولى خلفي مهمة جمعها من أرباب الحانات ، ومثلما فعلت من قبل ، فقد دفع هو أيضا مبلغ الف سكوين للمنصب ، ومثليكان أهلا لان تفديه أية دولة اروبية ترتبط بمعاهدة سلام مع الايالة • والجدير بالذكر انه في غضون مدة اسري قد افتدي ثلاثة من الذين شغلوا المنصب الذي شغلته ، وقد دفعت المبلغ المطلوب لفديتهم دول ليسوا من رعاياها • ولهذا الاعتبار ، فان هذا المنصب يرغـب فيه كثيـــر من الاســرى الاروبيين المؤهلين •

ونظرا لانني لم أعد الى الجزائر ا لافي شهر فبراير 1799 ، حينما كـان حسن باشا قد توفي ، فانني لم أعرف التطورات التي وقعت في هذه القضية التي تتسم بالجور والظلم •

تحقيق تقدم متواضع في قضيتنا

كان الداي حسن قد رفض استقبال بارلو لمدة أكثر من شهر بعد وصوله الى الجزائر • وأكثر من ذلك ، فهو قد أمر اسطوله بالتسلح والاستعداد لاعــلان الحرب على الولايات المتحدة •

ولكسب الوقت والخروج من هذه الورطة ، عـرض بارلو علـى الـداي أن يزوده ببارجة مسلحة بستة وثلاثين مدفعا ، اذا رضي ان ينتظر مدة ثلاثة أشهر اخرى وصول مال المعاهدة الجزائرية الامريكية •

وهذه المهلة اعتبرت غير كافية من كل من له معرفة بحقائق الامور ، ولكن بارلو صرح بانه يجب ان نثق بالمستقبل ، حيث أنه لا يمكن ان تكون شئوننا في وضعية أسوأ من الوضعية الحالية ·

وفي آخر يوم من شهر ابريل ، أعلمني الداي حسن أن أعوان الولايات المتحدة ووكلاءها قد تلاعبوا بالايالة طويلا ، وانه لم يعد يثق بوعودهم ، وانه لا يعتقد أن الولايات المتحدة سوف تفي بتلك العهود ، ولذلك فانه يريـــد أن يوجهني برسالة منه الى رئيس الولايات المتحدة · وقال انه سوف ينتظر ردا منه مدة تسعة أشهر ، بشرط أن أؤكد له انه سوف يتم بناء البارجة التي وعد بهـــا في تلك المدة ·

قلت لسعادة الداي انه ليس من المكن بناء بارجة وتجهيزها في غضون تلك الفترة ، ولكنني أعده بان العتاد والاجهزة البحرية التي تنص عليها المعاهدة سوف تصل في ظرف أقل من هذه المدة (9 أشهر) ·

وعند ذلك أمرنا بالاستعداد للابحار الى امريكا في ظرف ثمانية أيام ·
سافرت حاملا رسالة من الداي الى رئيس الولايات المتحدة ورسائل بارلو الرسمية يوم 8 مايو 1796 ، بعدما بقيت في الاسر في الجزائـــر منـــذ يوليو 1785 ، أي ما يقرب من 11 سنة ·

في يوم 5 مايو ، أمرني الداي بكتابة الرسالة التالية لرئيس الولايات المتحدة الامريكية · وفي يوم 6 ختمت بختم الايالة الكبير وحملتها الى بارلو الذي نسخ صورة منها وكان يبدو عليه كثير من الفرح والاغتباط بسببها ، وفي يوم 8 أقلعت بي سفينة شراعية من نوع « البولكا » كنت أتولى قيادتها بنفسي بمساعدة طاقم يتكون من ثلاثة من المسيحيين وسبعة من العرب ، وسرنا في اتجاه اليقانت ·

في الصباح ودعت الداي ووزراءه ورجال القصر ، ثم تلقيت أوامره ورسائل بارلو ، وعند الزوال أقلعت من ميناء الجزائر ·

وفيما يلي رسالة الداي حسن الى رئيس الولايات المتحدة الامريكية :

من حسن باشا ، داي ايالة ومدينة الجزائر

الى جورج وشنطون رئيس الولايات المتحدة الامريكية
نتمنى لك الصحة والسلام والرخاء :

« لقد استقر السلام وحل الانسجام بين امتينا بواسطة ممثلين (وكيلين) للولايات المتحدة ، وهما جوزيف دونالد صون وجويل بارلو ، وبما انه مضت ثمانية أشهر دون أن تطبق مادة واحدة من المواد التي تنص عليها المعاهدة ، فقد رأينا أن من الضروري ان نبعث اليك رسولا ، وهو جيمس ليندر كاثكارت الذي كان يشغل منصب كاتبنا المسيحي سابقا ليحمل اليك مذكرة بشأن الاجهزة والعتاد المطلوب والذي تحتاج اليه هذه الايالة ، وبجواز سفر في البحر الابيض حتى تتمكن من تزويد قنصلك المقيم هنا في الجزائر بأوراق الاعتماد ، وذلك باسرع ما يمكن . وللحصول على معلومات اخرى ، أحيلك على قنصلك المقيم في الجزائر وعلى المذكور ، جيمس ليندر كاثكارت . وانني أرجوك ، مهما تكن المعلومات التي يقدمانها اليك من أجل تقدم مفاوضاتنا ، ان تزودهم بأوراق اعتماد كاملة ، وأن تبعث بالاجهزة والعتاد المنصوص عليه في معاهدتنا والذي يكون جاهزا باسرع ما يمكن ، مع كاثكارت المذكور والذي زودناه لهذه الغاية بجواز سفر في البحر الابيض ساري المفعول ابتداء من أول مايو 1796 من السنة الميلادية .

عمل في قصر الداي وختم بامرنا بختم الايالة الكبير في 26 شوال (1) 1210 للهجرة الموافق 5 مايو 1796 .

التوقيع : الوزير حسن باشا داي ايالة ومدينة الجزائر .

(الختم)

---

(1) في الاصل : - (Carib) وهو تحريف لا ندري كيف وقع ، وشهر شوال هو الذي يوافق مايو كما أثبتناه .

الفصـــل الثامـــن عشـــر

الى المستر هامفريز
وزير الولايات المتحدة المفوض
لشبونه

الجزائر 5 مايو 1796

سيدي العزيز ،

ان المستر كاثكارت حامل هذه الرسالة اليك شخص معروف لديك بواسطة مراسلته · وستقرأ في الرسالة المرفقة طيه والموجهة الى وزير الخارجية الهدف من رغبة الداي في توجه المستر كاثكارت الى فيلاديفيا (١) ان ذكاءه ونشاطه سوف يسمح له ، بدون شك ، بتقديم خدمة جوهرية في هذه القضية · لقد كان مفيدا للغاية لقضيتنا هنا ، ولذلك ، فاني أرجوك أن تسبغ عليه حمايتك وتمنحه ثقتك ·

انني ، يا سيدي ، بكل احترام ، وتعلق مخلص ، صديقك وخادمك ·

جـــويـــل بـــارلـــو

---

(1) ميناء ومدينة (بنسلفانيا) امريكية تقع على نهر دلــوار (2050000 نسمــة حاليا) · انشاها وليام بن ، مركز صناعي هام (الميتالورجيا وتكرير النفط) · كانت خلال الفترة 1790 1800 عاصمة الولايات المتحدة ·

الى وزير الخارجية ،   الجزائر في 5 مايو 1796

سيدي ،

السيد جيمس ليندر كاثكارت هو الشخص الذي ذكرت لك أن من المرغوب فيه أن يسافر الى فيلاديفيا ليقدم اليك التفاصيل التي ستكون مفيدة لوضع الترتيبات لنقل العتاد والاجهزة البحرية ولاختيار هدايا السلام ولدفع الضريبة السنوية ٠

لقد قدم المستر كاثكارت خدمات جلى لقضيتنا هنا بذكائه ونشاطه ، وانا لا اشك في أن من الممكن استخدامه بصورة مفيدة من طرفكم في المهام المذكورة اعلاه ، أو في اية مهمة اخرى قد ترون من الملائم الاستفادة من خدماته ٠

مع احترامي الكثير ، خادمكم المطيع ٠

جويل بارلو

الى السيد تيموثي بيكرينج ،
وزير الخارجية ، فيلادفيا ٠

وفيما يلي نسخة من التعليمات التي زودني بها المستر بارلو قبل مغادرتي الجزائـــر ،

السيد كاثكارت ،

سيدي ،

بالنظر الى أن الداي قد أتاح لك الحرية لمغادرة قصره على متن سفينتك الشخصية الى فيلادفيا لتقدم تفاصيل الحقائق المفيدة لحكومتنا بجمع وشحن هدايا السلام ودفع الضريبة السنوية ، فانا افهم أنه اعتبارا لكونك حصلت على حريتك ووضعت سفينتك تحت الخدمة بسرعة أكثر مما كنت ستحصل بها عليها عادة ، فانت تتعهد بان تسلك أفضل السبل الى فيلادفيا ، وعلى نفقتك الخاصة ، وأنا أرغب منك أن تمر في طريقك بلشبونة وتسلم هناك طردا أرسله معك الى وزيرنا المفوض هنالكك ، وتتلقى منـــه تعليمات اضافية لسفرك الى أمريكا ٠

وأفهم كذلك أنك ستتوقف في اليقانت ، وأنا أرغب منك أن تسلم طردا ارسله معك الى قنصلنا هناك ٠ وفي حالة ما اذا سافرت برا عبر اسبانيا ، فسوف يزودك بجواز السفر الضروري ٠

ولدى وصولك الى فيلادفيا ، اعتمد على ذكائك وحماسك لان تقنـــع المسئولين المعنيين في الحكومة بضرورة الوفاء بالتزاماتنا بالسرعـة التـــي تفرضها طبيعة المعاملة ٠

انني اذ أتمنى لك الوصول بسلامة وكل رخاء وسعادة ، سأبقى صديقك وخادمـــك ٠

جويل بارلو

الجزائر في 8 مايو 1796

ملاحظـات عـن شروط رحلتي

كنت من قبل قد لاحظت أن الداي قد أمرني في يوم 29 أبريل بان اجهـز سفينتي للابحار في أسرع وقت ممكن · وقد أبلغته أنني لم استطع العثور على اشخاص يعملون لحسابي في السفينة ، فأمرني بان اصطحب معي عددا من العرب واعيدهم أدراجهم من اسبانيا · وللقيام بهذه الرحلة رغبت منه أن يمنحني جواز سفر ساري المفعول لمدة سنة كاملة ·

كانت أوامر المستر بارلو تقضي بأن أسافر شخصيا الى فيلاديفيا وأن اتوقف في اليقانت لاسلم طردا هناك ثم أمضي الى لشبونة وأسلم طردا اخر هناك واتلقى تعليمات لبقية رحلتي الى أمريكا ، « فأنا أفهم انه اعتبارا لكونك حصلت على حريتك ووضعت سفينتك تحت الخدمة بسرعة أكثر مما كنت ستحصل بها عليها عادة ، فانت تتعهد بان تسلك أفضل السبل الى فيلاديفيا ، وعلى نفقتك الخاصـــة » ·

والمستر بارلو لا يرى انني بوضع سفينتي في الخدمة سـوف أتكلـــف نفقات كبيرة ، وهو يعرف جيدا الى أية درجة تسمح لي حالتي المتواضعة بتكبد تلك النفقات ·

وقبولي جواز سفر الداي يضطرني بتعهد بشرفي أن أقوم برحلتي مباشرة ولا أقبل شحن البضائع في أي ميناء من الموانىء لو كان ذلك متاحا · وكل انسان حسن النية سيتفق معي أن هذه الشروط كانت شديدة الوطـأة علـــى نفسي بالنظر الى حالتي المالية المتواضعة ·

والآن ، وانا في عرض البحر ، أجدني مصمما على المضي قدما في هـــذه الرحلة ، حتى لو اقتضى الامر مني الالتجاء الى بيع هذه السفينة نفسهـــا لمواجهة تكاليف الرحلة · واسفي الوحيد هو ان تواضع ظروفي تجعلني اعتبر

هذه النفقات باهضة ، وعزائي في ان اضيفها الى المبالغ التي قدمتها على سبيل المساعدة الى اخواني في القيد الذين لم يكونوا يتلقون اي شيء من بلدهم مدة أربع سنوات كاملة ، وكذلك اعزي نفسي بانني اعمل ما يوحي به احساسي وضميري لتخفيف الآلام والقيام بالواجب .

وانني لم اهمل وسيلة لخدمة اولئك البؤساء ولخدمة وطني .
انني حر من جديد وشئوننا في المغرب تسير في طريق التسوية النهائية، وعلم الولايات المتحدة أصبح يرفرف حرا في البحر الابيض المتوسط ، وتجارتنا قد توسعت واخواني في قيود الاسر والعبودية تعود اليهم اعز علاقاتهم ووطنهم .

انني سعيد واشكر الله لان أجد نفسي في وضع يمكنني من تقديم خدمة جوهرية لوطني والعون لمواطني البؤساء في قيد الاسر للتخفيف من عذابهم وويلاتهم .

في يوم 8 مايو ، تلقيت رسالة بارلو الى الكلونيل هامفريز مع التعليمات التي كتبها لي ، قبل الرحيل .

لم أعرف قط فراقا أصعب وأشق من فراق اليوم مع بارلو ومع صديقي العظيم ، سكجولدر براند ، ولكن أشد من كل ذلك وقعا على نفسي ، هو فراق أخواني الاسرى البؤساء الذين أتركهم على هذه الشواطىء الموحشة . الواقع أن فراقي معهم كان منظرا يذوب له الحجر ، والكلمات عاجزة عن وصف الاحاسيس والمشاعر في مثل هذه الحالة ، والصمت يصف شعورنا أكثر من أبلغ التعابير .

عند الزوال أقلعت سفينتي بعدما تعرضت لاهانات هي أشنع ما تفتقت عنه عبقرية الانسان في غضون عشر سنوات وتسعة أشهر وأربعة عشر يوما ، كلما مرت بخاطري ذكريات يوم واحد منها اقشعر لها جسدي .

قـصـيـدة : " بـاب الـوادي"

(تقع مقبرة المسيحيين في باب الوادي علىمسافة بضع ياردات من ماء البحر الابيض في أوقات المد) ٠

- باب الوادي
- تحت رمالك يرقد اخوتي الاسرى
- بعيدا عن الاوطان والاحبة
- وموسيقاهم الجنازية
- هي انين البحر والتطام الموج
- لقد أبقى علي القدر
- لامتطي متن الامواج
- لاساعد الذين لا يزالون على قيد الحياة
- حتى يذوقوا طعم الحرية من جديد

خليج اليقانت في 22 مايو ، 1796

قـصـيـدة : " أنا انسان حر ابتداء من هذا التاريخ "

- لم أعد عبدا !
- انني أترك الاغلال على الشاطئ
- انا مالك نفسي
- ولم أعد ملكا لاحد
- انني أضع ثقتي كلها فيك يا الهي
- ان تحرر من يريدون أن يحذو حذوي
- في طريق الحرية والسلامة

28 مايو ، لكي افي بعهدي للداي ولبارلووانصف مواطني واساعد في تقدم مفاوضاتنا ، لم يكن هناك امامي بديل سوى تاجير جزء من سفينتي لشحن البضائع ، وقد عرض علي مبلغ 6ر10 جنيه استرليني للطن الواحد ، ولكنني رفضت هذه العروض المغربية احتراما لجواز السفر الذي منحه لي الداي٠

فلو قبلت بتاجير سفينتي في صفقة اخرى لتسافر الى ايرلاندا ، أوبيعها ثم استقل سفينة للركاب من لشبونة الى امريكا ، لما عدمت عدوا يبلغ خبر هذه الصفقة الى الداي ويوشيها بكثير من المبالغات ٠ واذا لقال الداي عني :

« اعطيته جواز سفر ليسير به الى امريكا ثم يعود الى الجزائر في مهمة تتصل ببنود معاهدة السلام والهدايا السنوية . ولكنه ارسل سفينه في اعمال تجارية الى بلدان اخرى ، لقد عصا أوامري ولن يفي بعهده » .

وهذا العمل وحده خليق باثارة نقمة الداي وغضبه . وبالطبع ، فهو سوف ينتقم لهذه الخديعة من القنصل الامريكي ، بارلو ، الذي سيتهمه بالتلاعب معه . وهذا الاعتقاد سينجم عنه كثير من الاضطراب والمتاعب في العلاقات الجزائرية الامريكية .

وهكذا كان الحل الوحيد الذي بقي امامي ، هو ان ابيع ثلث سفينتي بمبلغ 1666 دولار ، تمكنت بها من شراء الزاد الضروري ومن تاجير زورق لاعادة الملاحين العرب الى الجزائر ، بعدما دفعت لهم اجورهم وزودتهم بالتموين الضروري لهم في الطريق .

وفي 1 يوليو واجهت بعد الاقلاع رياحا معاكسة ، فاضطررت الى العودة الى اليقانت ، حيث بقيت حتى يوم 9 من الشهر واستأنفت سفري .

جويل بارلو المحترم ، اليقانت 5 يونيو 1796
مدينه الجزائر

أخبرتك في رسالتي الاخيرة بوصولي الى هنا ، وفي الوقت الحاضر ، احيلك على رسالة المستر منتوجمري فيما يتعلق بقضيتنا ، تلقيت منذ وصولي الى هنا رسالتين من صديقنا المشترك ، الكلونيل هامفريز ، ولكنهما لا تتضمنان أخبارا ذات بال ، وكذلك وجهت اليه نسخة من كل واحد من الاوراق التي وضعت في عهدتي ، وذلك حتى يتمكن من أرسالها الى امريكا متى أمكنه ذلك ، قبل وصولي الى لشبونه .

أبلغني منتوجمري أن القبطان اوبراين قد سافر الى امريكا على متن السفينة « صوفيا » يوم 27 ابريل ، وقد علمت من رسالة دونالد صون الاخيرة انه يوجد كثير من المال السائل في لوغورن وانه لا توجد اية عوائق لشحنه .

ابلغني المستر منتوجمري انه وجه رسالة فتح اعتماد بالمبلغ كله الى اسبانيا ، ولكنه لم يسحب منه اي مبلغ حتى الان . وعلى اية حال ، فهو سيعلمكم بتفاصيل الموضوع بطريقة افضل مما استطيع .

دفعت مبلغ 100 دولار في مقابل استئجار القارب الذي ينقل هذه الرسائل مع البحارة العرب ، وقد دفعت اجور هؤلاء حتى يوم 4 يونيو الجاري ، ومن هذا التاريخ حتى تاريخ وصولهم ارجوك ان تدفع لهم الفارق ، وهو بمعدل 7 دولارات في الشهر للفرد منهم ، وسجل ذلك على حسابي الخاص .

ليس لدي ما اضيفه سوى ان اؤكد لك انك تستطيع الاعتماد علي في ان اقوم بكل مهمة عهدت بها الي على خير وجه واكمله في حدود استطاعتي .

لقد وجدت صعوبة كبيرة في جمع البحـــارة هنا وتحملـــت كثيرا مـن النفقات ، بالاضافة الى اجور البحارة العرب الذين اعدتهم على حسابي الى الجزائر ، ولكن هذا شيء لا اهمية له في الوقت الحاضر ، فان فكري كلــه مشغول بالامور التي لها اهمية اكبر . والواقع ، يا سيدي ، انه لن يهنا لي بال ابدا حتى نسوي قضيتنا في الجزائر ـ وهو أمر ادعو الله ان يتم بسرعة .
مع احترامي الفائق وصداقتي المتينة ، خادمكم المطيع :

جيمس ليندر كاثكارت

* *

*

مقتبسات من رسالة لوزير الخارجية الامريكية الى المستر بارلو ، وجهها اليه عقب وصولي الى فيلاديفيا .

وزارة الخارجية

فيلاديفيا ، في 3 ديسمبر 1796

سيدي ،

ان السفينة التي جاء بها القبطان كاثكارت من الجزائر جاهزة ومشحونة بالعتاد والاجهزة البحرية الموجهة الى الجزائر . انه لمن الصعب في الوقت الحاضر أن نصنع أكثر من ذلك ، ولكننا عازمون على شحن عدة سفن في الربيع القادم بجميع العتاد والاجهزة البحرية المطلوبة ، وذلك في أسرع وقت ممكن، حتى نفي بتعهداتنا نحو الداي ، القبطان كاثكارت سيبقى هنا وقد اقترح استخدامه في هذه القضية ، ونحن نأمل أن يجد الداي في الاجهزة التي اخترناها ما يرضيه .

وابحار هذه السفينة يتيح لي الفرصة لافيدك بوصول الرسائل العديدة التي وجهتها الي . قدم القبطان كاثكارت رسالة مفتوحة الى داي الجزائر . ليس لدي ما الاحظه فيها ، ولكنه اذا بدا لك شيء غير ملائم فيها ، يمكنك شطبه أو حذفه وانا أوكل اليك مهمة تفسيرها حسبما يبدو لك ملائما .

حمل الي القبطان كاثكارت رسالة موجهة من داي الجزائر الى رئيس الولايات المتحدة ، تجد الجواب عنها طيه . ان الرئيس واشنطن يرغب منك ان تسلمها بنفسك الى الداي بالطريقة التي تبدو لك ضرورية وفي الوقت الذي تراه ملائما ومقبولا .

أتشرف ، مع احترامي الفائق ، بان أكون خادمك المطيع

تيموثي بيكرينج

وزير الخارجية

قائمة باسماء الامريكيين الذين اسرتهم الجزائر منذ توقيع اسـبانيا معاهدة السلام معها في 30 يونيو 1785 ٠

اسرى السفينة « ماريا » من بوسطن 25 يوليو 1783
اسحاق ستيفانز ـ بالفدية العامة 1796
الاسكندر فودسيث ـ «
جيمس ليندر كاتكارت ـ سافر في مهمة في 8 مايو 1796
توماس بيلينج ـ افتدي في سنة 1796
جيمس هارنيت ـ توفي في مستشفى المجاذيب 1793
جورج سميث ـ افتداه اصدقاؤه في سنة 1793
السفينة دوفين ـ اسرت في 2 أغسطس ، 1785
ريتشارد أوبراين ـ غادر الجزائر حاملا للمعاهدة والرسائل
أندريو منتوجمري ـ بالفدية العامة ، 1796
فليب سلاون ـ افتداه الهولنديون في سنة 1794
بيتر لورينج ـ مات في وباء الطاعون في 27 يونيو 1794
جيمس هول ـ أخذته سفينة للقرصنة تابعة لنابلي في سنة 1796
تشارلز كولفيل ـ افتداه اصدقاؤه في سنة 1790
جون روبرتصون ـ افتداه اصدقاؤه في 12 يونيو 1794
بيتر سميث ـ مات في وباء الطاعون في 3 يناير 1787
روبرت ميجنيز ـ مات في وباء الطاعون في 1787
جون دوران ـ مات في وباء الطاعون في 1 يوليو 1787
القبطان زخوس كوفين ـ مات بالسل في 2 يوليو 1787
ادوار أورايلي ـ مات في وباء الطاعون في 8 مايو 1788
وليام هاردينج ـ مات في وباء الطاعون في 6 يوليو 1788
جاكوبوس تاسنر ـ مات في وباء الطاعون في 13 يوليو 1793

ومن مجموع الواحد والعشرين أسيرا الذين أخذوا في سنة 1785 ، مات تسعة ، اثنان منهم من طاقم السفينة ، وعاد الى بلدهم 12 أسيرا في أوقـات مختلفة ٠ وبعد ذلك ، لم يقع في الاسر أي أمريكي حتى سنة 1793 ، عندمـا عقدت بريطانيا اتفاقية للهدنة للبرتغال مع الجزائر وأصبح من الممكن دخول الاسطول الجزائري الى المحيط الاطلسي عبر مضيق جبل طارق ٠

الفصـــل التاســـع عشـــر

الاحداث التي تلت اطلاق سراحي

سبق لي أن ذكرت انني غادرت مدينة الجزائر في 8 مايو 1796 . انني لا استطيع وصف الشعور الذي اعتلج في نفسي حينما وطات رجلاي التراب الامريكي من جديد ، بعد عدة سنوات من المحنة والهوان . فبعدما تخلصت من الاعمال اليدوية الشاقة ، تعرضت لضغط طغيان لا يطاق عند كل من له احساس بالكرامة البشرية .

بقيت في خدمة الولايات المتحدة اكثر من سنتين في فيلاديفيا ـ حيث احتيج الى خدماتي في الشئون المغربية ، وهناك اخترت شريكة حياتي .

وفي 5 مايو 1798 ، عقد زواجي القسيس اشيل جرين مع الانسة جان وود سايد ، كريمة القبطان وود سايد ، أحد جنود الثورة الامريكية . وقد بقينا في فيلاديفيا حتى شهر ديسمبر .

وفي 20 من الشهر ، تلقيت أمرا من وزير الخارجية بان أتوجه لمقابلته في ظرف يومين ليعطيني تعليمات ، وقد أمرني بتوفير علمين كبيرين لقنصلياتنا في تونس وطرابلس (عين كاتكارت قنصلا في كلا البلدين) .

وهكذا قمت انا والمستر فرنسيس باختيار كميات من أرفع الاقمشـــــة الملونة التي ينتجها البلد .

وفي يوم السبت 22 سبتمبر 1798 ، قمنا بزيارة لوزير الخارجية في مكتبه على السابعة مساء وبقينا معه حتى الساعة 12 ، حين تلقينا تعليماتنا وودعنـــــاه .

وفي يوم الأحد 23 ، استقلينا عربة لركوبنا واخرى لحمل الاعلام والاقمشة متجهين الى ميناء « بن » (Port Pen) .

وفي مساء يوم الاحد وصلنا الى « ويلمينجطن » . وفي يوم الاثنين واصلنا سفرنا ، فاجتزنا نهر « دولاوير » وقمنا بزيارة القبطان « جيدس »

والسيدة كاثكارت ، وقد اضطررنا الى البقاء هناك بسبب غياب الربان ، حتى يوم الجمعة 4 يناير (1799) حين رحلنا في سفينة « حسن باشا » ومعها سفينة « سكجولد براند » والسفينة « الجنرال جرين » التي كانت راسية في الخليج ٠

كانت العواصف شديدة في يوم الاحد 6 يناير ٠ وفي يوم الاحد 22 تراءت لنا جزيرة سانت ماري ٠

وفي 2 فبراير رأينا الطرف الاغر وكنا نشاهد في الليل جبال غرناطة ، وكنا عند خط العرض 36٠9 ٠

وفي 7 فبراير وصلنا الى رأس « جات » (Gatt) عرض 36:35 ٠ وفي يوم الجمعة 8 تراءت لنا شواطىء بلاد البربر ٠ وعلى الساعة العاشرة اقتربنا من رأس تنس ، وفي يوم السبت تراءى لنا رأس « كاكزينيس » ، وعلى الساعة 12 بدا لنا رأس بيسكاد ٠ وعلى الساعة 2 بعد الزوال دخلنا الميناء ٠

أمتطى المستر أوبراين ظهر السفينة ثم نزلنا معه الى البر عند باب البحرية ، ومن هناك انتقلنا الى منزله المتواضع حيث استقبلنا بقدر ما تسمح به الظروف ٠

وفي يوم السبت 9 من شهر فبراير 1799 ، وصلنا الى مدينة الجزائر حيث وجدنا السفن الثلاثة « حسن باشا » وسكجولد براند و « للاعايشة » ٠ وكانت « للاعايشة » قد وصلت الى الميناء يوم ١٦ يناير ، والسفينتان الاخريين وصلتا بعد ذلك بوقت قصير ٠ وأما السفينة « صوفيا » التي أقلتنا ، فقد وصلت يوم 9 ، كما قلنا ، بعد وصول « حسن باشا » بست عشرة ساعة ٠ واما السفينة « هيرو » ، فاننا لم نسمع شيئا من اخبارها منذ اليوم الثاني أو الثالث بعد ابحارنا ، يوجد لدينا من الاسباب ما يحملنا على الاعتقاد بانها قد غرقت أو أسرها القراصنة في عرض البحر ٠

يوم الثلاثاء 12 ٠ منذ وصولنا الى الجزائر حتى هذا التاريخ ونحن لم نقم بزيارة أحد ، أنا والمستر ايطون ، حيث ان قيمة حمولة السفن لم تقدر بعد٠ وقد قمنا بتقدير قيمة البضائع التي تحملها كما يلي :

« حسن باشا » 49000 دولار ٠ « سكجولد براند » 28000 دولار ٠ « للاعايشة » 21000 دولار ٠ وقد بلغ مجموع قيمة الحمولات

98000,00 دولار ، وكانت قيمتها قد قدرت في فيلاديفيا بـ 78689,38 دولار ، بفارق قدره 19310,62 دولار . وهكذا استفادت الولايات المتحدة ، بعد طرح اجور الملاحين والبحريين ، مبلغ 19310,62 دولار .

تقوم السفن الان بانزال شحناتها الى البر ، وسوف نسلم البضائع المشحونة بمجرد ما يوافق الداي على تسلمها على اساس تقدير قيمتها السابق ، وعندئذ يطرح هذا المبلغ من مجموع الدين القومي الامريكي .

قال الداي في بداية الامر ان الولايات المتحدة قد اعطت الداي حسن (وكان قد توفي وخلفه الداي مصطفى الخزنجي) بارجة وانه هو يتوقع منها سفينة . ولكن اوبراين نازع الداي بحق في أن تكون البارجة هدية للايالة ، وانه هو الوارث للداي الراحل ، وبالتالي فان البارجة ملك له . وقد ايد اوبراين في موقفه هذا كل من رئيس الوزراء (الخزنجي) ومدير البحرية ، وكذلك يبدو الآن أن البضائع المشحونة سوف تستلم طبقا لرغباتنا .

تقول الاخبار الرائجة هنا في الجزائر ان نابليون بونابرت لا يزال يسيطر على عدة مدن في مصر ، وانه قد تحصن في العاصمة المصرية ـ القاهرة ـ ، وأن البريطانيين قد استولوا على ماهون ويقومون بمحاصرة جزيرة مالطة ، وأن ملك نابلي قد جلى عن مدينة نابلي والتجأ الى جزيرة صقلية .

في يوم 19 ديسمبر 1799 ، وصل الى الجزائر سفير من الباب العالي يحمل القفطان ومرسوم السلطان العثماني وأوامره الى هذه الايالة بان تعلن الحرب على الفرنسيين ، وان يستولي اسطولها كذلك ، على جميع السفن اليونانية التي يعثر عليها في المناطق الغربية من البحر الابيض ، وكان الجزائريون قد أسروا من قبل عددا من السفن اليونانية ولكنهم كانوا يتخوفون من ان يطالب الباب العالي باعادتها الى أصحابها . ومن ثم ، فقد اغتبطوا لدى تلقيهم هذه الاوامر واعتبروا أنفسهم محظوظين . والعامة من الشعب يرون في هذا التطور دليلا على حكمة الداي وبعد نظره السياسي .

وفي يوم 21 ديسمبر ، اعتقل جميع موظفي المفوضية الفرنسية ووضعت السلاسل في أرجلهم وارسلوا الى الاعمال الشاقة ، حيث بقوا 46 يوما . وقد افرج عنهم الآن بكفالة مالية ووضعوا تحت الاعتقال المنزلي ، في انتظار نتائج حملة نابليون على مصر .

بعد وفاة الدا حسن ، اجتمعت الكلمة في الايالة على اختيار الآغا مصطفى دايا ليحل محله ، ولكن الآغا فضل منصب رئيس الوزراء (الخزنجي) على منصب الداي ، وتبعا لذلك تولى الخزنجي منصب الداي واختار الآغا لشغل منصب رئيس الوزراء ٠

وهكذا أصبح رئيس الوزراء يحكم الجزائر والداي معا ، حيث أن الداي غير قادر على حكم نفسه ٠ وكذلك يضطر الى مراعاة جانبه ومصالحته ٠ والآغا ، رئيس الوزراء ، رجل طيب وعاقل ، وهو يرتبط بعلاقات صداقة مع للولايات المتحدة ٠ وعلى عكس العوائد والتقاليد السائدة في هذه الايالة ، اخبرت بانه يحتقر كل مظاهر الضعة ولا يستطيع أحد أن يحمله على قبول الرشوة ٠

الخميس 14 فبراير ٠ وصل اليوم ماثياس سكجولد براند على متن بارجة سويدية قاما من مرسيليا ، وقد استقدم معه زوجته وابنه ٠ وعندما أرست البارجة في الميناء اطلقت المدافع 21 طلقة تحية لها ، وقد ردت التحية بمثلها ٠

وعندما غادر القنصل البارجة حيته بخمس طلقات مدفعية ، ولما وطأت رجله الشاطىء ، حيته القلعة الواقعة قرب البحرية بخمس طلقات ٠

ولما قام القنصل بزيارة الداي ، طلب اليه الاخير أن تقوم البارجة بنقل سفير الباب العالي الى تركيا ، ولكن القنصل لم يستطع الاستجابة لهذا الطلب ، ولتخوفه من عواقب هذا الرفض والتعقيدات التي قد تنجم عنه ، بعث باخيه في اليوم التالي الى مالقه ٠

وفي يوم ١٥ ، وهو يوم جمعة ، كتبت رسائل الى الكلونيل بيكرينج (وزير الخارجية) والى المستر سميث ، ولكن البارجة غادرت الميناء باستعجل ، فلم يمكنني اعدادها لارسالها معها ٠

وفي يوم الاحد ، قمت برد زيارة المجاملة التي قام بها لي قناصل الدول، قبل أن نقوم بزيارة الداي (وتقاليد المراسم تقضي بتقديم الزيارة الاخيرة) ٠

تنازع بحارة السفن في عودتهم على متن سفينة « بولكاينروز » وقد انتهى الامر بتسفيرهم على متن السفينة « صوفيا » ٠

يوم ٢٢ فبراير ، هو يوم عيد ميلاد جورج واشنطون العظيم ، وقد احتفلنا به باطلاق السفينة الامريكية « صوفيا » ١٣ طلقة مدفعه .

كانت هذه هي الزيارة الاولى التي قمنا بها للداي ، تلقينا البريد عن طريق اسبانيا . كتبت رسالتين الى وزير الخارجية .

وفي الوم التالي وصل ٩٣ اسيرا فرنسيا الى مدينة الجزائر قادمين من القالة ، وهي قاعدة فرنسية محصنة تقع في شرق الجزائر . اســتخدم هؤلاء الاسرى بطريقة قاسية في شق الطرق ، وقد مات اربعة منهم .

يوم الاربعاء 27 اخذ داود بكري اليهودي 18 من الشخصيات الكبيرة من بين الاسرى من البحرية ، وظل الباقي يزاولون الاعمال الشاقة .

يوم الخميس ، حمل الي بكري من الداي الرسالة التي زودني بهــا للتوصية الى باشا طرابلس . نصحني بكري ان احمل شحنة من البضائع على السفينة التي تقلني الى طرابلس ، فرفضت ذلك .

وفي اليوم التالي ، تلقيت رساله توصيه من بكي الى فرفرا ، ماذا تحتوي عليه هذه الرسالة ؟ لا احد يعلم الا الله ! انني اخشى ان يكون اليهود بصــدد التآمــر لخداع الولايات المتحدة .

في يوم 2 مارس اقلعت من الجزائر متجها الى تونــس ، وفــي يــوم 8 وصلنا الى ميناء بنزرت الذي دفعتنا اليه عاصفة هوجاء .

وفي يوم 10 واصلنا رحلتنا ، وقد وصلنا الى طرابلس يوم 5 ابريل 1799 .

وفي 24 مايو 1801 ، غادرت طرابلس نتيجة لاعلان الباشا الحرب علــى الولايات المتحدة .

وفي 2 يونيو ، وصلنا الى لوغورن ، بعد ما مررنا بمالطة ، وهناك انزلنا رسائل للحكومة .

وفي 3 نوفمبر 1802 ، غادرنا لوغورن على متن سفينة متجهين الى جزيرة مالطــة .

جبل طارق ، 5 ابريل 1803 ، ابحرت اليوم على متن البارجة الامريكية « آدمز » بقيادة القبطان كامبل ، بناء على أوامر الكمودور موريس واتجهنا مع قافلة في الاتجاه الشرقي ، وبلغنا حتى لوغورن ، وقد جرى خصام بيني وبين الكمودور لانني احتججت على ارسالي الى لوغورن في الوقت الذي تحتاج فيه الحكومة الى خدماتي في طرابلس • وقد قال لي انه اذا احتجاني فسوف يرسل سخونه لتنقلني اليه •

وفي يوم 6 تلقيت أمرا مكتوبا من الكمودور ، كما وعد ، بالرحيل •

وفي يوم 7 رحلت على متن البارجة « آدمز » مع سبع سفن تشكل قافلة متجهة الى مالقة التي وصلنا اليها يوم 8 منه •

يوم الاحد 17 أبريل 1803 ، هو يوم عيد الفصح رسونا عند اليقانت . وفي يوم 18 حضر الينا منتوجمري ، قنصلنا ودعانا لتناول طعام الغداء ، ولكننا لم نستطع قبول دعوته حيث كنا نعتزم الرحيل • وهناك انضمت الينا سكونه ، بينما كانت السفينة فينوس التي انفصلت عنا من قبل قد انضمت الينا قبلها ، وبذلك بلغ عدد سفننا خمسا ، وعند الغروب ابحرنا ، كان الطقس جميلا خلال يومي 19 و 20 ابريل • وفي طريقنا مررنا بجزيرة ابيزا وراس سانت انطونيو ، ورأينا مايورقة وعددا من المدن الصغيرة على الشاطىء السباني ونزلنا في « سانت جوان دوبيند » وهناك اشترينا بعض الاشياء وتجولنا في قوارب الصيد ، ان الناس هنا تبدو عليهم مظاهر الصحة والعافية ويرتدون ملابس نظيفة • ان هذه المنطقة هي أكبر المناطق الاسبانية نشاطا وأوسعها انتاجا •

وفي يوم 24 ارسينا عند برشلونه وتجولنا حتى الساعة التاسعة ثم عدنا الى السفينة ونحن أشد ما نكون تعبا ، وكان قنصل الدانمارك قد دعانا لتناول بعض المشروبات •

أول مايو 1803 • نزلنا في لوغورن ووجدت اسرتي تنتظرني هناك • أحمد الله أن أجدهم كلهم بخير بعد فراق دام ستة اشهر ، وهي فترة لم يقم فيها الاسطول الذي أرافقه باي عمل يذكر •

وفي شهر مايو مات ملك « ايتوريا » (1) وتولى الملك في مكانه ولي العهد وعينت الملكة وصية على العرش حتى يبلغ الحلم •

---

(1) (Etruria) مملكة قديمة في ايطاليا تمتد اراضيها في المساحة التي تشغلها ولاية توسكانيا الحالية ، وفي غضون الفترة بين 1801 ـ 1808 كانت توجد مملكة مستقلة تسمى « ايترוريا » •

وفي 27 مايو وردت اخبار من فرنسا بان انجلترا قد اعلنت الحرب على فرنسا في 17 من الشهر ، واعلنت فرنسا الحرب على بريطانيا في 22 منه . وفي يوم 30 استولى الفرنسيون على سفينة انجليزية ، وقد فرض منع دخول السفن الى الميناء .

مورا (Murat) زوج اخت نابليون :

يوجد الجنرال كلارك (Clerk) حاليا في فلورنس ، وينتظر ان يلحق به الجنرال مورا بتعزيزات في وقت قريب .

21 يوليو . تلقيت رسائل من وزارة الخارجية ، حزمت أوراقي للسفر الى مالطة على متن السفينة « منيرفا » ، وفي يوم 27 اسرت السلطات العسكرية الفرنسية تلك السفينة . وفي يوم 30 انزلت امتعتي .

في يوم 30 يوليو ، احتشدت القوات الفرنسية على الساعة العاشرة استعدادا لاستقبال الجنرال مورا (1) الذي وصل على الساعة 11 ليلا . وقد أعلن عن مقدمه بمائة طلقة وطلقة مدفعية ، وقد اضيئت الشوارع وزينت افخم زينت للترحيب به .

25 يوليو ، علمت برسالة وردت من دوجان في نابلي أن الاسطول الامريكي كان منذ عشرة أيام راسيا في مسينا ، وأن الاشارات الصادرة عن الفنار تدل على أنه على مرأى من نابلي .

كتبت الى الكمودور في نفس اليوم واجلت سفري الى مسينا .

يوم الثلاثاء ، سافر الجنرال مورا الى حمامات « بيره » على الساعة الثانية بعد الظهر . يبلغ عدد القوات الفرنسية المرابطة في توسكان 4000 جندي وضابط .

يقضي الكمودور موريس وزوجته اجاز في « مسينا » وفي نابلي وفي جبل فيزوق قبل أن يعود الى « بالسطون » .

---

(1) ماريشال فرنسا ، ولد في سنة 1766 وتوفي في سنة 1815 . تزوج اخت نابليون ، كارولين ، وعين دوقا كبيرا (1806 ـ 1808) ثم ملكا على نابلي (1808 ـ 1815) . فقد عرشه وحاول استرجاعه ولكنه اسر في « بيزو » وقتل بالرصاص .

السبت ، وصل الاسطول الامريكي باكمله ، بما في ذلك البوارج « جون آدمز » و « نيويورك » و « انترابرايز » · امتطيت سفينة الاميرال وقدمت الى الكمودور نسخة من الرسالة التي كنت قد بعثت بها اليه ولم تكن قد وصلته بعد ، وكنت قد وجهتها اليه يوم 1 أغسطس الى نابلي ·

17 أغسطس تناول جميع قواد الاسطول طعام الغذاء على مائدتي في منزلي ·

18 أغسطس ، أبحرت على متن البارجة « انترابرايز » بقيادة القبطان هول في اتجاه مالطة لاستلم البريد الوارد من الولايات المتحدة ·

الاحد 21 · أبحر الكمودور موريس والمستر سميث الى فلورنس ليسالا ملكة « ايتروريا » عما اذا كان ميناء لوغون في نظرها خاضعا لفرنسا أم لا · يا لها من امرأة مسكينة ! لا بد وان يكون جوابها في عبارة مثل التالية : « انك ترى يا سيدي أن الفرنسيين يحتلون هذا الميناء ، وبالتالي ، فسوف اؤجل الجواب عن سؤالك الى وقت أكثر ملاءمة » ·

*   *

*

الفصل العشرون

يوم السبت ٢٧ اغسطس ١٨٠٣ ، سافرت على متن البارجة « ادمز » بقيادة القبطان كمبيل من لوغون في اتجاه تونس ، وقد اعتمدنا على الرياح البحرية ، وفي الطريق التقينا بسفينتين انجليزيتين تابعتين لقاعدة جبل طارق كانتا تعملان في البحر مدة 48 يوما وأخذتا احدى عشر سفينة اسرى ارسلت الى سردينيا ٠ وقد كان على متنها رجلان جريحان ٠

وفي أول سبتمبر ، 1803 ، ارسلت البارجة على الساعة 2 في خليج تونس ، حيث وجدنا بارجة اسبانية راسية ٠

وفي 3 سبتمبر نزلت الى الشاطئ في « جوليتة » ومن هناك ارسلنا رسولنا الى الدكتور دافيز ، ثم عدت الى البارجة ، على الساعة الثامنة مساء وصل الدكتور دافيز وتناول معي طعام العشاء ولكنه لم يحصل لنا على اذن بالنزول ٠

وفي يوم الاحد احتفظنا بقارب للنزول طوال اليوم ولكننا لم نتلق أية اخبار من الدكتور دافيز ، وبالتالي ، فقد كنا نجهل السبب لماذا لم يسمح لنا بالنزول ٠

وفي يوم الاثنين 5 أغسطس ، وصل الترجمان بمذكرة من الدكتور دافيز يخبرنا فيها بانه استصدر اذنا لنا بالنزول في اليوم التالي من الباشا ، واعتذر عن عدم حضوره شخصيا بصداع انتابه ٠

نزلت الى البر في رفقة القبطان كمبيل ، والمستر بنون ، والمستر تورنر ثم اتجهنا الى مدينة تونس التي وصلنا اليها على الساعة الثالثة مساء ٠ وقد طلبنا مقابلة الباشا في اليوم التالي وأجيب طلبي ٠

كان الدكتور دافيز ساخطا لانه لم يتلق رسائل ولا مال من وزارة خارجية الولايات المتحدة ، ان عجرفته تضايقني كثيرا ٠

في يوم الثلاثاء قمت بزيارة الباشا وقد رافقني القبطان كمبيل وضابطان من ضباطه والدكتور دافيز ٠ وقد استقبلنا بما ينبغي من اللياقة ٠

سلمت الى الباشا رسالة رئيس الولايات المتحدة ، فطلب الى القبطان كمبيل أن ينتظر يومين قبل أن يسلمه رده عليها ، وطلب الي اجراء اتصالات بوزيره ٠ وقد حددنا اليوم التالي موعدا للعمل ٠

سلمني الدكتور دافيز اليوم رسالة وتحدث الي عن الحسابات ٠ لقد

اكتشفت هوة تفصل بين اقواله وتصرفاته · وبعد ذلك سافر الى منزله الريفي وتركني انا والقبطان كمبيل لنقضي وقتنا كيفما اتفق · اعتقد انه ذهب ليتآمر فهو مصمم على الاحتفاظ بأرضيته وأنا لن أمنعه من ذلك ·

يوم الاربعاء 7 سبتمبر ، على الساعة التاسعة قمت بزيارة الوزير وعرضت عليه مبلغ 24000 دولار يدفع مرة في كل ثلاث سنوات لكي يسعى لدى الباشا حتى ندخل بعض التعديلات على معاهدتنا ، ولكنه رفض · وقال انه لا يطالب بمبلغ سنوي ولا يريد نقدا ، وانما هو يريد الحصول على بارجة ، وقال ان الدانمارك والسويد تقدم كل منهما هدايا في شكل عتـــاد حربي وأجهـــزة بحرية الخ ، وقال ان الباشا لا يريد ان يقبلني كقنصل للولايات المتحدة ، بل هو عين الدكتور دافيز ، وبعد ذلك طلب مني أن أعود لزيارة الباشا في اليوم التالي ليقدم الي رده على رسالة رئيس الولايات المتحدة · اجريت محادثة مع الوزير حول الباشا وغير ذلك من الموضوعات ·

طلب مني الدكتور دافيز مالا ورفضت أن أقدمه شيئا ·

تلى ذلك حديث غير ملائم ، وقد قال انه يفضل أن يرى كل ما هو عزيز على الولايا تالمتحدة يحتجز على أن يرى حالته تتدهور الى المضايقات الحالية·

اجتمعت بالحاج ونيس ولكنه رفض أن يتدخل في موضوع الاسلاب · طالب أولا بمبلغ 7 سكادي مالطي ، ثم بـ 12000 دولار ·

اعرب دافيز عن تخوفه من أن يحتجز القبطان كمبيل ، وجرت بيننا محادثة في هذا الموضوع ·

تسلمت حسابات الدكتور دافيز التي تبلغ 2011 دولار ، واعدتها اليه ، وبعد ذلك اصطنع مظهرا يتسم بالعجرفة والتهديد ·

وفي يوم الخميس 8 سبتمبر ، قصدت الى القصر في رفقة القبطان كمبيل، وهناك قدم الى الحاج ونيس بن لونيس قائمة طويلة باللغة العربية · لم يعرب الدكتور دافيز عن اعتراضه على أية مادة من موادها ، بل وعد بـــان يجيب جميع تلك المطالب · أما انا والقبطان كمبيل ، فاننا لـم نعلـــق علـى الموضوع ، بل قمنا واستأذنا للانصراف ، وسلم الي رد الباشا على رسالة رئيس أمريكا ·

أخذت الوزير من يده وقلت له باللغة التركية : « أني اسف يا صاحب السعادة لان وساوس اعداء بلدي قد وجدت اذنا صاغية وحولت ممثلا معتمدا لبلد بعيد الى ساع للبريد ، ان هذه اهانة غير متوقعة مني بقدر ما تمثل عملا غير ودي تجاه بلدي واحتقارا لرئيس الولايات المتحدة » .

فاجاب بقوله :

« سيدي القنصل ، انني لا أنوي اهانتك أو عدم احترام بلدك . فان اسبابا سياسية تمنعني من قبولك قنصلا . وأنا قد كتبت الى رئيس الولايات المتحدة في هذا الموضوع ، وقلت له اننا نريد قنصلا غير معروف في مناطق اخرى من المغرب » .

أعربت له عن تمنياتي بالرخاء وبادلني مثلها بسفرة طيبة .

كان الدكتور دافيز قد أعرب عن مخاوفه من أن يحتجز القبطان كمبيل ، حينما كنا في طريقنا الى القصر .

عدنا الى القنصلية وقد كنت مصمماعلى أن أمتطي السفينة بمجرد ما أتغلب على بعض العوائق التي وضعت عمدا في طريقنا ، مثل استئجار البحارة .

وعلى الساعه 3 بعد الظهر ، وصلنا الى الجوليطة ، ووجدنا السفينة جاهزة للاقلاع فصعدنا اليها وصعد معنا سكرتير الدكتور دافيز وترجمانه ليسافروا معنا . كتب الدكتور دافيز بعض الرسائل ، وكان يكتب والسيجار بين أصبعيه ، كتبت رسالة رسمية الى الباشا أعلن فيها عزل الدكتور دافيز من عمله في القنصلية . وقد أجلت هذا الاجراء ولم أقم به من قبل خوفا من اعتقال القبطان كمبيل . أعطيت الدكتور دافيز أوامر شفاهية ولكنه رفض أن يطيعها . نزل الى الشاطىء على الساعة 6 . وعلى الساعة 9ر30 عاد القارب الذي نقله الى ابر ، فاقعت بارجتنا .

يوم الثلاثاء 13 . منذ يوم 9 حتى هذا التاريخ والبحر رخاء والريح طيبة والجو صحو ، ونحن اليوم نمر على مسافة 8 أميال من الجزائر ، تحدثت في عرض البحر مع القبطان « بورتر » ربان السفينة « مونرو » التي استغرق سفرها 45 يوما من « بلتمور » ، وهي تتجه الى لوغورن . وجهت معها رسالة الى زوجتي هناك .

يوم الاحد ، قابلنا البارجة « فيلاديفيا » ، بقيادة القبطان « بينبريدج » ووجهنا اليها عدة اشارات ورفعنا علم بارجتنا ، ولكننا لم نتلق اي رد على هذه التحيات ، الامر الذي أغضب بحق القبطان كمبيل · وقد كانت ترافق « فيلاديفيا » سفينة تجارية ·

تحدثنا الى ربان السكونة الامريكية « فيكسن » التي قابلتنا ، وهو القبطان جون سميث الذي أخبرنا أن سلطان المغرب الاقصى قد أعلن الحرب على الولايات المتحدة ، وأن البارجة « فيلاديفيا » قد أسرت احدى سفنه (1) كما استعادت سفينة أمريكية كانت قد أسرتها السفينة المغربية ·

الثلاثاء ، 22 · تقابلنا هذا المساء مع البارجة « ذي كونستيتوشين » صعدت على متنها وتلقيت من ربانها الرسائل التي وجهتها الى الحكومة · وهناك قدمت الى الكمودور « بريبل » والكلونيل « ليتر » رسالتي الثانية عشرة ·

يوم الاربعاء ، 23 · ارسينا في جبل طارق حيث كانت قد سبقتنا البوارج « كونستيتوشين » ، و « نيويورك » و « انتربرايز » وقد صعدت الى متن البارجة الاولى التي انزلت الكلونيل « لير » ·

وفي يوم 24 ، حصلت على اذن بالنزول الى البر ·

وفي مساء اليوم ، أبحرت البارجة « كونستتيوشن » واتجهت الى طنجة·
وفي يوم 25 نزلت الى البر بامتعتي ، تولى القبطان موريس قيادة البارجة « آدمز » ، بينما انيطت مقاليد قيادة البارجة « نيويورك » بالقبطان كمبيل · وعند الزوال التحقنا بالقبطان روجرز في عرض البحر مقابل موجدور (الصويرة) ·

وفي هذا المساء سافرت البارجة « آدمز » حاملة رسائلي الى الولايات المتحدة ·

سلمت اختامي القنصلية وأوراقي الرسمية الى المستر « لير » ·

---

(١) السفينة المغربية الاسيرة هي" مبروكة" .واما السفينة الامريكية التي كانت "مبروكة" قد اسرتها ،فهي "سيليا" من بوسطن ،وكان طاقمها يتكون من ربانها وسبعة بحارة، راجع تفاصيل هذه التطورات في ايروين "العلاقات الديبلوماسية" ، المصدر المذكور، ص ١٨٣ وما يليها.

في يوم 27 واجهنا عاصفة شديدة من الرعد والبرق ولكن الرياح كانت خفيفة مع ذلك ٠

أول اكتوبر ، وصلت السفينة « سيرين » من فيلاديفيا بعد رحلة استغرقت 28 يوما ٠

وفي 2 اكتوبر صعدت على صخرة جبل طارق وعلى الحصن الذي يعلوه وأشرفت من هناك على كهف سانت ميكايل العجيب وذلك في رفقة سيد اسباني اسمه الدون فرنسيسكو جوميز باصو ٠ لا توجد اية مدافع عند مدخل هذه المغارة ولكنه يمكن وضع مدفعين تكون لهما قيمة فعالة عند الحاجة ٠ تنزل من المدخل نحو ثلاثين قدما بالعمق وتأخذك الدهشة لهذا العمل الطبيعي العظيم الذي يشبه خرائب مسرح قديم ، أو مبنى على الطراز القوطي ، كبير الارتفاع، فيه بحيرة يبدو لي انها تستمد مياهها من نهر يجري في بطن الارض ، وماؤها في غاية العذوبة ٠ ولو كانت هذه المياه راكدة ولا تجري لكانت قد تحجرت منذ وقت طويل ، وبجانب البحيرة يشاهد عمود من الصخر عبارة عن مياه تسربت الى المغارة وتحجرت مع مرور القرون ، ولربما كان ذلك منذ عهد الطوفان ٠

وعلى الحصن نقشت العبارة التالية :

يبلغ ارتفاع هذه الصخرة 1740 قدما فوق سطح البحر في وقت المد سنة 1800 ٠

وحصن سانت جورج اقامه الجنرال تشارلز اوهارا ، حاكم جبل طارق في سنة 1799 ٠

2 اكتوبر ، 1803 ٠ ابحرت البارجة « جون آدمز » في اثر البارجة « نيويورك » ٠

3 اكتوبر ، ابحرت البارجة « كونستتيوشن » وعلى متنها الكمودور « بريبل » والكلونيل « لير » في هذا المساء عقب الاخبار التي وردت من (القنصل بالمغرب الاقصى) سيمصون ، بانه قد اطلق سراحه ، وان السلطان قد انكر انه اعطى اوامر الى الحاج حاسي ، حاكم طنجة باسر سفن امريكية ، وانه (اي السلطان) على استعداد لانهاء النزاع معنا بتجديد المعاهدة التي تربط البلدين ٠

6 اكتوبر ، قصدت الى الجزيرة الخضراء في اسبانيا ، وقد عدت منها يوم 9 من الشهر ·

11 اكتوبر ، علمت بخبر نقلته سفينة قادمة من الجزائر ان سلطان المغرب قد عقد معاهدة مع الولايات المتحدة ، وكذلك عرفت أن طلقات المدافع التي سمعناها آتية من بوارجنا تحية لسلطان المغرب ·

فرض اليوم الحجر الصحي على جميع السفن الآتية من مالقة ، نتيجة لانتشار الحمى الصفراء ·

أبحرت السفينة « سيرين » مع القافلة يوم أمس ، مرافقة للسفينة « مالبروش » (١) المسلحة بعشرين مدفعا والتي أخذت غنيمة من سلطان المغرب الاقصى · سوف ترسل الى طنجة ، وهناك تعاد الى سلطان المغرب ·

13 أكتوبر · عادت السفينة « سيرين » من رحلتها وحملت الي رسالة من الكلونيل « لير » يخبرني فيها بعقد الصلح مع المغرب الاقصى ، ذلك الصلح الذي يقول انه يقوم على اسس مفيدة ، انني آمل أن يستمر السلام بين البلدين ·

15 اكتوبر ، وصلت البارجة « كونستتيوشن » · قمت بزيارة الكلونيل لير رغبة في الحصول على مزيد من المعلومات عن الصلح المعقود ·

16 اكتوبر · قمت بزيارة مجاملة للكمودور « بريبل » والقبطان ستيورت على البوارج التي يقودها كل منهما ·

18 اكتوبر ، أبحرت كل من البارجتين « نيويورك » و « جون ادمز » في اتجاه الولايات المتحدة ، ومعها بارجة الاميرال الطرابلسية التي اسرت ، والتي نالتنا منها كثير من المتاعب ، سوف تتوقفان في طنجة ، وهناك ستعيدان السفينة الطرابلسية الى سلطان المغرب الذي وعد بان يطلق سراح للسفينة الامريكية ذات الصاريتين والتي اسرت ، مع حمولتها · ارسلت امتعتي على متن السفينة « سيرين » ، وانا انتظر الآن هبوب رياح طيبة للسفر ·

---

(١) كذا في الاصل (Mabruch) وهو تحريف لاسم « مبروكة » كما اشرنا الى ذلك في التعليق السبق ·

22 اكتوبر · لا تزال الرياح المتجهة الى الشرق معاكسة · سافـــرت البارجة « انتربرايز » متجهة الى قادس ·

التجأ عدد من بحارتنا الى الحماية البريطانية ، وقد تبادل الكمـــودور « بريبل » عدة رسائل مع كل من القبطان « جور » قائد السفينة « ميدوزا » والقبطان « هارت » قائد السفينة « دي ماوث » في هذا الشان · لقد اغتبط البريطانيون كثيرا لهذا الحادث واحتفظوا بالبحارة الهاربين ·

23 اكتوبر · ابحرت قافلة السفن البريطانية تحـــت حمايـــة البارجة « تيومينجت » بقيادة القبطان « بيتي » الذي اخذ معــه البحــارة الامريكيين ، وسيلتحق باسطول الاميرال نيلصون الذي يوجد الآن في مقابل طولون ، ومن هناك سيتجه الى مالطة ·

والمستر فالكون القنصل البريطاني الذي طردته الحكومة الجزائرية منذ وقت ، يوجد على متن البارجة « تبرمجنانت » · فقد تلقى الاميرال نيلصون أوامر بأن يعيده الى منصبه ، حيث أن البريطانيين يأنفون من فكرة الامـــلاء عليهــــــم ·

24 اكتوبر ، ابحرت اليوم على متن السفينة الامريكية « سيرين » ذات الصاريتين في اتجاه لوغورن ·

* *

*

الفصــــل الواحـــد والعشرون

أول يناير 1805 • أبحرت اليوم من لوغورن على متن السفينة « ميركوري » مع زوجتي واطفالي الاربعة ، أكبرهم « اليزا » التي ولدت في طرابلس ، و « اميليا » ، و « جورج » و « ماري آن » • والثلاثة الاخيرون ولدوا في لوغورن •

أبحرنا على الساعة الثانية بعد الزوال ، وكانت الريح رخاء منتظمة والجو معتدلا • وعلى الساعة العاشرة من يوم الجمعة 5 مررنا بجزير مايورقة على مسافة أربعة فرسخ ونصف ، ثم بجزيرة ابـزه على مسافة ستة فراسخ في يوم السبت ، وفي يوم الاثنين كان الجو رديئا ، ولكنه تحسن يوم الثلاثاء ، على اننا تعرضنا لعاصفة هوجاء يوم الاربعاء 9 من الشهر ، عند منتصف الليل ، وقد استمر حتى يوم 11 ، وكانت الامواج تلطم سفينتنا من كل اتجاه ، ودخلت المياه الى عنبرنا ، وأصبحت وضعيتنا خطيرة •

وفي يوم الخميس 10 يناير ، كان الجو لا يزال عاصفا ، والبحر مضطربا خصوصا ، بسبب التيارات القوية المتعارضة • وعلى الساعة 10 صباحا وصلنا الى جبل طارق ، ولكننا لم نتوقف هناك •

وفي اليوم التالي ، كانت العواصف مستمرة • تحدثت الساعة 1 بعد الظهر الى ربان السفينة « ماري » من بوسطن ، وأخبرني أن البارجتين الامريكيتين « اسيكس » و « جون » آدمز » توجدان حاليا في جبل طارق •

استمر الجو العاصف حتى يوم 18 من الشهر ، وقد أرسينا عند جزيرة « سانت كروز » • وهناك حضر الينا قارب تابع لمصلحة الصحة العمومية وكشف عنا رجاله • وهناك اشترينا جديا وبيضا وخلا ، ولم نتمكن من شراء اللحم حيث أن هذه الجزيرة تتلقى التموين من الجزر الخالدات •

وفي يوم الاربعاء 27 فبراير ، رست سفينتنا في نيويورك على الساعة الثامنة صباحا • حضر الدكتور روجرز ، الضابط الصحي وصعد الى متن سفينتنا ، وكان اليوم ثلج وعاصفة ، وفتش في سفينتنا رعايننا ، ولكننا لم نستطع النزول الى الشاطيء بسبب رداءة حالة الطقس •

وفي أول شهر مارس 1805 ، استأجرت منزلا عند السيدة انطوني وأخذت عائلتي الى هناك على الساعة الثانية بعد الزوال •

وفي يوم 2 كنت منهمكا طول النهار في الجمارك ، بعد ما انزلت جزءا من اثاثنا وامتعتنا •

وفي يوم 7 ، قصدت الى « فلات بوش » مع عائلتي حيث نزلنا جميعا في منزل المسز « بانكر » ، جدة زوجتي ، واقمنا هناك اسبوعا ·

وفي يوم 92 من الشهر ، غادرت نيويورك متجها الى فيلاديفيا ·

وفي 24 وصلت الى فيلاديفيا حيث وجدت جميع اصدقائنا في حالة صحية جيدة ·

وفي يوم 29 غادرت فيلاديفيا ، ووصلت في اليوم التالي الى بالتيمور ، واقمت هناك طول اليوم ·

وفي يوم الاثنين أول أبريل ، غادرت « بالتيمور » واتجهت الى وشنطون التي وصلت اليها على الساعة الثامنة ليلا ·

وبهذا انتهت تلك الرحلة التي استغرقت ثلاثة اشهر بالضبط · وقد انفقت في غضون هذه الرحلة 1380 دولار ·

* *

*

الفصـــل الثاني والعشرون

اقمنا في شارع « ويست ستريت » في جورج طاون ، حتى تم تعييني قنصلا في جزيرة مدايرا ، وهناك في جورج طاون ولد ابني في 31 ينايـــر 1807 ٠

وفي 21 مايو ، ابحرنا على متــن السفينة « لويـــزا » ذات الصاريتين ، بقيادة القبطان « ماكنمارا » ٠

غادرنا واشنطون على الساعة 11 صباحا ، ووصلنا الى الاسكندرية (1) على الساعة 3 بعد الظهر ، ثم اتجهنا الى فندق « جادسبي » وتناولت طعام العشاء مع القبطان « سلوكم » ٠

وفي يوم 23 من الشهر أبحرت واتجهت مباشرة الى جزيرة مدايرا ٠

وفي يوم 25 مررنا عند الزوال براس هنري ، كان الجو صحوا ، وقـــد مررنا في طريقنا بعدد من السفن ٠

الخميس 11 يونيو ٠ منذ سفرنا والجو الصحو لم يفارقنا ومن ثم لم اسجل اية ملاحظات خلال هذه الرحلة ٠

وفي يوم الخميس 81 بدا لنا الطرف الشمالي من جزيرة مدايرا ، وقـــد وصلنا الى عاصمتها « فونشال » على الساعة الثالثة بعد الظهر ٠

وعلى الساعة الخامسة نزلت الى الشاطىء وحللت بمنزل المستر فوستر ، وذلك بعد مرور 28 يوما منذ ارتحالي عن وشنطون ، و 26 يوما منذ مغادرتـــي الاسكندريـــة ٠

---

(1) مدينة في ولاية فرجينيا بالولايات المتحدة ، يبلغ عدد سكانها في الوقت الحاضر 100000 نسمة ٠

وفي يوم 26 يناير ، 1807 ، نقلت اسرتي الى « كويتاديسكانصو » .
كنا نقضي فصل الشتاء في « فونشال » عاصمة جزيرة « مداير » • الامطار غزيرة في فصل الخريف وفي فصل الربيع ، وكذلك تنحدر كثير من الجداول والانهار الصغيرة من الجبال وتحفر اخاديد عميقة تفصل بين مختلف اجزاء الجزيرة ، والماء ينقل في قنوات الى حقول العنب ، وشجر الارز كثير في مداير ، ومعظم سقوف المنازل والاثاث في مداير مصنوع من خشب الارز ، الذي هو جميل وذو رائحة طيبة • وكذلك تكثر الازهار في الجزيرة ، والثعابين قليلة ولا تكاد تشاهد فيها •

أقمنا في جزيرة مداير أكثر من ثمان سنوات • وفي غضون هذه الفترة التي كانت فترة حروب واضطرابات ، كانت الجزيرة من الممتلكات البريطانية ، ولكن شعور العداء نحو امريكا بين سكانها لم يحل دون حصولنا على المواد الغذائية التي نحتاج اليها •

كان اطفالي يترددون على مدرسة تديرها سيدة انجليزية كانوا متعلقين بها كثيرا ، وقد اتاحت لهم فرصة طيبة للتربية والتعليم ولتحسين سلوكهم • وعندما غادرنا الجزيرة ودعها الاطفال بكثير من الامتعاض والحسرة •

ولد ثلاثة من اطفالنا في جزيرة مدايرا ، وهم : « شارل ولیامز » ، و « جان بانكر » و « جون فيلاديفوس » •

غادرنا مدايرا حيث كنت اشغل منصب قنصل الولايات المتحدة ، واتجهنا الى واشنطون ، العاصمة • وبعد ذلك ، عينت قنصلا في قادس ، وقد سافرت واقمت هنالك سنة كاملة قبل أن تلحق بي اسرتي •

* *
* *

الفصــــل الثالث والعشرون

مدينة قادس مدينة واسعة ، شوارعها ضيقة ولكنها نظيفة • والنازل الاجنبي يندهش لنظام المدينة المطلية منازلها بالجبس ولنظافتها الفائقة •

والميزة الاساسية التي تضفي سحرا خاصا على مدينة قادس ، هو سعة البحر وانفتاحه أمامها •

والمشى العمومي « المايده » يقع في مكان بهيج ويوفر منظرا من اجمل ما تقع عليه العين • والميناء يعج بالسفن الشراعية التي تنتمي الى مختلف بلدان العالم •

وقادس تملك « كزينو » واسعا جدا وأنيقا ، ويمكن لمن يقصده للجلوس أن يجد صحفا محلية وأجنبية •

والحمامات العمومية مؤسسات يسود فيها الترف والبذخ والسيدات مولعات بالتردد عليها •

وابني ، « هنري ناسو » ولد في قادس •

غادرت قادس وعدت الى واشنطون في سنة 1817 ، وكان هذا آخر تعيين لي في السلك السياسي في الخارج •

ولد ابني ، « ادوارد بريبل » في جورج طاون ، ومن بين ابنائي الاثني عشر ، لم يولد سوى ثلاثة في الولايات المتحدة الامريكية •

عملت وكيلا للولايات المتحدة في « لويزيانا » (1) سنة واحدة ، وبعد ذلك شغلت منصب نائب المراقب العام •

انتهى الكتاب

---

(1) (Louisiana) ، احدى الولايات الامريكية ، عاصمتها « باطون روج » ويبلغ عدد سكانها حاليا 3603000 نسمة • كانت لويزيانا التي سميت باسم لويس الرابع عشر ، مستعمرة فرنسيه ، حتى تنازل عنها نابليون للولايات المتحدة في سنة

فهـــرس الاعـــــلام

أ ــ

ب ـــ

ت ـــ

ق ـــ

ك ـــ

ل ـــ

كتب اخرى للمؤلف

التآليف :

(في الشئون الدولية) :

ـــ التنمية الاقتصادية في الدول العربية في المغرب (طبعة ثانية) .
ـــ التنمية الاقتصادية في الدول العربية في المشرق (ط ٠ ٢)
ـــ التكتل والاندماج الاقتصادى بين الدول المتطورة (ط ٠ ٢) .
ـــ هيئة الامم المتحدة والتنمية الاقتصادية (ط ٠ ٢) .
ـــ التعاون الاقتصادى للتنمية في نطاق المنظمات الدولية (ط ٠ ٢) .
ـــ فصول في العلاقات الدولية .
ـــ نماذج من روائع الادب العالمي (٥ أجزاء) .
ـــ حاضر الدول الاسلامية في القارة الافريقية .

(في التاريخ) :

ـــ دراسات في تاريخ الجزائر الحديث .
ـــ دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية .
ـــ دولة بني زيرى ملوك غرناطة .
ـــ دولة الادارسة ملوك تلمسان وفاس وقرصبة .
ـــ المقاومة الجزائرية تحت لواء الامير عبد القادر (ط ٠ ٢) .
ـــ المدن المغربية في الادب الجغرافي العربي .
ـــ العلاقات الديبلوماسية الجزائرية في عهد الامير عبد القادر .
ـــ جدول المطابقة بين التقويم الهجرى والميلادى (بتعاون مع الدكتور عبد العظيم عبد الفوى .
ـــ الصحراء الكبرى وشواطئها .

— معجم الفرق والمذاهب الاسلامية.
— عواصم بني زيري ملوك غرناطة وبجاية والمهدية.

تحقيــق الــتراث الاســلامـــي :

— كتاب الجغرافيا لابن سعيد المغربي (القرن السابع الهجرى) (ط ٢).
— سيرابــي زكريا (سير رجال المذهب الاباضي).
— سير مسائخ المغرب لابي الربيع الوسياني.
— القارة الافريقية والاندلس (مقتبس من كتاب نزهة المشتاق للشريــف الادريسي).
— سفارة احمد الغزال ورحلته الى الاندلس (ط ٢).
— كشف الغمة لموءلف مجهول (في تاريخ الاباضية).
— تحفة الالباب لابي حامد الغرناطي.
تحت التجهيز : تقويم البلدان للملك الصالح ابي الفداء.

تـــرجـــمـــــة :

— كتاب الجغرافيا لابن سعيد (الى الفرنسيــة).
— مذكرات شالر قنصل امريكا في الجزائر.
— مذكرات الكلونيل سكــوت.
— الاسلام في مجده الاول للاستاذ الراحل لومبار.
— الدراسات العربية في الجزائر خلال قرن من الاحتلال الفرنسي.
— الفتوحات الاسلامية في فرنسا وايطاليا وسويسرا لرينو.
— قصر الحمراء لواشنطون ايرفينج.
— سقوط غرناطة لواشنطون ايرفينج.

فهرســـــت الكتـــاب

الفصل الحادي عشر **صفحة 165**

مقابلة دونالد صون الاولى مع الداي ـ الداي يامرني بان احمل مع الشروط التي كان قد عرضتها على امريكا في السنة الماضية الى دونالد صون ـ الداي يطالب بمبلغ 2247000 دولار في مقابل معاهدة السلام وفدية الاسرى ـ اقدم مقترحات دونالد صون للداي لعقد المعاهدة ـ خبث دور القنصل الفرنسي ـ الداي يرفض مقترحات دونالد صون ـ السفير الامريكي يرفض أي تعديل بزيادة المبلغ الذي اشتملت عليه مقترحاته ـ محاولاتي للتوفيق بين المقترحات الجزائرية والمقترحات الامريكية ـ دونالد صون يرفض الشروط الجديدة ـ دونالد صون لا يكترث بالمصير الذي ينتظرني في حالة فشل المفاوضات ـ ردي على سخريته ـ الداي يشتمني ويهددني ـ الداي يامر دونالد صون بمغادرة الجزائر ـ الحجج التي استعملناها لاقناع دونالد صون بضرورة عدم قطع المفاوضات ـ دونالد صون يخضع لضغوطي ويقدم اقتراحات جديدة ـ اعرض المقترحات الامريكية على الداي ـ تضرعي الى الداي واستعطافه ليسمح بفدية الاسرى الامريكيين ـ اقتناعي بان كل محاولة جديدة لعقد السلام سيكون مآلها الفشل في المستقبل اذا رفضت المقترحات المعروضة على الداي .

صفحة 179

الفصل الثاني عشر

المقابلة الثانية بين دونالد صون والداي ـ اقامة دعائم السلام بين البلدين ـ تأكيد شروط السلام وفدية الاسرى ـ المحادثات التي جرت اثناء استقبال الداي لدونالد صون ـ دونالد صون يرفض اخراج مواطنينا من الاشغال الشاقة ـ عدم اكتراثه بما اذا اعتنق الامريكيون الاسلام ـ طلقات المدافع تحيي العلم الامريكي والمنادي لعمومي يعلن قيام علاقات لسلام بين البلدين ـ تهنئتي دونالد صون وحصولي على اذن من الداي للقبطان أوبراين ليحمل المعاهدة الى هامفريز ـ أقوم بنسخ النسخة الاصلية لمعاهدة السلام التي وقعها دونالد صون ـ حصولي على جوازات من الداي للقبطان أوبراين ليحمل المعاهدة الى بوعده بان يستعمل نفوذه لدى باي تونس وطرابس لعقد معاهدات السلام بيننا وبين الايالتين على اسس ملائمة ـ أقوم بتقديم القبطان اوبراين للداي لاول مرة .

الفصل الثالث عشر صفحة 190

حالة العلاقات الخارجية الجزائرية ـ مفاتحة وكلاء بعض الدول للعمل لصالحها ورفضي لها بكل احتقار ـ القنصل الفرنسي يخبر الداي أن دونالد صون مزود بتفويض مطلق ـ زيف الاعتماد على فرنسا لكي تستخدم نفوذها في صالحنا في بلدان المغرب ـ فرنسا تعمل لماكسة مصالحنا ـ وصول الوزير المفوض مونرو الى باريس ـ حالة العلاقات الامريكية الفرنسية ـ مونرو لا يتمتع بثقة الفرنسيين ـ اسباب عدم قيام فرنسا بالوفاء بتعهداتها في نطاق المعاهدة الامريكية الفرنسية (1778) في سياق العلاقات مع دول المغرب ـ وصول نص معاهدة « جاي » مع انجلترا الى فرنسا ـ تصديق مجلس الشيوخ عليها ـ وصول فانشيت الى فرنسا ـ خطاب واشنطون يقرؤنه في باريس ـ مجلس النواب يصدق على المعاهدة الامريكية الانجليزية ـ سعيي وحصولي على هدنة بين الولايات المتحدة وتونس لمدة ثمانية اشهر ـ بارلو يحل هدايا غير مرضية للداي ـ اسبا بمعارضة وكلاء اسبانيا لمصالحنا في الجزائر ـ كانت مهمتي شاقة في الدور الذي قمت به في معاهدة السلام ٠

الفصل الرابع عشر صفحة 211

انتقال دونالد صون الى منزل قنصل السويد في الريف ٠ في كل يوم نتوقع أموال المعاهدة ـ حضر الى المدينة يوم 22 ـ تناولنا طعام العشاء معا ـ أعلنت ان القبطان أوبراين قد وصل الى مالقه ـ دونالد صون يقوم بزيارته الاولى لوزراء الداي ويجرح شعورهم بسبب بخله ـ تصرف المستر دونالد صون في قضية سفينة كنت على وشك شرائها ـ الداي يامرني بوضع قائمة كاملة للاسرى البرتغاليين في الجزائر ـ دونالد صون يقع ضحية للمرض ـ كيف حصلت على هدنة للولايات المتحدة مع تونس لمدة ثمانية أشهر ـ مساعدو الربابنة والملاحون الامريكيون يحاصرون مقر السفير الامريكي من اجل الحصول على رخصة للاقامة في المدينة ـ السفير يقول انه لا يستطيع ذلك في الوقت الحاضر ـ نفاذ صبر الداي ٠

الفصل الخامس عشر صفحة 226

الداي يرفض اطلاق سراح الاسرى الكورسيكيين قبل أن تدفع فديتهم بالمال المعين ـ بيع غنائم السفن الكورسيكية ـ وصول سفينة بريطانية اسيرة ـ وضع ركابها وبحارتها في قيد العبودية ـ وصول بارجة بريطانية ، ومطالبة

ربانها باطلاق السفينة الاسيرة وبحارتها واعادة جميع السفن والاسرى الكورسيكيين ـ الداي يرفض المطالب البريطانية ويعلن الحرب على بريطانيا العظمى ـ الطبيب البريطاني يتلقى اوامر بمغادرة الجزائر ـ تسوية المشاكل الجزائرية البريطانية بالمفاوضات ـ تقديم الداي هدية الى المستر نورث ـ دونالد صون يطلب مني أن أستأجر سفينة نسيرها الى اليقانت للتعجيل بتسوية قضيتنا ولكنه يرفض تقديم هدية الى الداي لتعزيز ثقته فينا ـ مساعدو الربابنة والملاحين الامريكيين ياتون بحوادث الشغب ـ الداي يامر بوضعهم في السلاسل ـ استعطافي الداي وعفوه عنهم ـ قلق الداي يزداد يوما بعد يوم من أجل التاخير في وصول أموال المعاهدة ـ الداي يهدد بأن يعتبر المعاهدة ملغاة ويقطع رأسي للاشارة عليه بان يفضل عقد معاهدة مع امريكا بدلا من البرتغال ٠

الفصل السادس عشر **صفحة 239**

وصول المستر بارلو على أول سفينة امريكية تدخل الى ميناء الجزائر ـ بارلو يطلب مقابلة من الداي لتقديم الهدايا القنصلية ـ الداي يرفض استقباله ويرفض أية هدايا من المثلين الامريكيين ويهدد بطردهم من البلد ـ بارلو يرسل صندوقا جميلا الى ابنة الداي ـ بارلو طلب مني تزويده بالمعلومات ـ تقديم يومياتي ومراسلاتي اليه ووضعها تحت تصرفه ـ بارلو يتلقى شكر وزارة الخارجية الامريكية من أجل التقرير الذي قدمه على اساس تلك المعلومات ـ مقابلتي السيئة الحظ في وقت كان فيه مزاج الداي معكرا ـ نكات المستر دونالد صون ٠

الفصل السابع عشر **صفحة 247**

أسر نابلي 300 من الجنود الاتراك الذين كانت تقلهم سفينة دانماركية ـ الداي ينتقم من الدانمارك التي اهين علمها ويأسر اسطوله 13 سفينة دانماركية ـ بعد تهديدات ووعيد لقنصل الدانمارك يتحول الداي لتهديدنا نحن ، دونالد صون وأنا ـ الداي يشير الي ويأتي بالحركة التي يقوم بها الجلاد لقطع رؤس المسيحيين عند باب القصر الخارجي ـ رمضان ـ قسوة وظلم ـ استعطافي الداي ليعفو عن أصحاب الحانات من المسيحيين ـ دفعي كلها من الغرامة التي فرضها عليهم ـ قبوله ان يدفعوا بالتقسيط ـ خلفي في منصبي يتكلف بعد سفري من القيام بجمع الاقساط الشهرية المستحقة عليهم ـ الداي يبعثني في مهمة لتسليم رسالة منه الى رئيس الولايات المتحدة وشنطون ـ نص رسالة الداي ٠

الفصل الثامن عشر **صفحة 262**

نص رسائل من بارلو الى السفير هامفريز ـ نص رسالة من بارلو الى وزير الخارجية تيموثي بيكرينج ـ نص تعليمات بارلو الي ـ ملاحظاتي عن هذه التعليمات ـ فراق يحز في النفس مع رفقائي في الاسر ومع بارلو والصديقين سكجولد براند ـ اقلاع سفينتي ـ وصولي الى اليقانت يوم 22 مايو ـ زيارتي للقنصل منتوجمري ـ ليس أمامي بديل سوى بيع ثلث سفينتي لتوفير المال للقيام بهذه الرحلة ولاعادة الملاحين العرب الذين رافقوني الى بلدهم ـ رسالتي الى بارلو من اليقانت ـ اقلاعي من اليقانت واضطراري الى العودة بسبب الرياح المعاكسة ـ رسالة من وزير خارجية أمريكا الى بارلو بشأن وصولي الى فيلاديفيا بتاريخ 3 ديسمبر 1796 ـ قائمة باسماء الاسرى الامريكيين في الجزائر .

الفصل التاسع عشر **صفحة 274**

غادرت الجزائر في 8 مايو ووصلت الى فيلاديفيا في 3 ديسبمر 1796 ـ زواجي في 5 يونيو 1798 ـ تلقيت تعليمات من وزير للعودة الى بلاد المغرب لشغل منصب القنصل ـ غادرت فيلاديفيا في ديسمبر 1798 ووصلت الى الجزائر في 9 فبراير 1799 ـ غادرت الجزائر الى تونس في 2 مارس ووصلت الى بنزرت في 8 والى تونس في 12 من الشهر ـ سفري الى طرابلس ووصولي اليها في ابريل 1799 .

الفصل العشرون **صفحة 283**

في يوم السبت 27 اغسطس سافرت على متن البارجة الامريكية « ادمز » بقيادة القبطان كمبيل من لوغورن الى تونس ـ تحدثت مع عدد من ربابنة السفن في الطريق ، في 2 ديسمبر رست بارجتنا في خليج تونس ـ يوم 5 وصل ترجمان الدكتور دافيز يحمل اذنا لنا من الباي بالنزول الى البر ـ تمت بزيارته وسلمت اليه رسالة من رئيس الولايات المتحدة .

الفصل الواحد والعشرون **صفحة 293**

عودتي الى الولايات المتحدة في أول يناير 1805 ـ ذكر عدد من الاماكن ـ نزولي في ميناء نيويورك ـ انزالي اسرتي الى الشاطىء وزيارتنا لبعض الاقارب ـ وصولي الى فيلاديفيا ـ وصولي الى واشنطن .

أنجز طبعه على مطابع
ديوان المطبوعات الجامعية
29 :نهج ابو نواس ـ حيدرة
الجزائر العاصمة

رقم النشر : 636- 12 - 82

" انهم لم يعلموني في صغرى أن محمدا رسول الله، ولكنني أعرف جيدا أن محمدا سنّ شريعة عظيمة ووضع قوانين عادلة، وحطم الاصنام، واقنع الملايين من الناس بأن لايعبدوا الا الها واحدا حقيقيا لاشريك له، وهو الاله الذى أومن به وأعبده أنا أيضا".

كانكارت